بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الأردنية

كلية الدراسات العليا

٦١٧
٢٩
عميد كلية الدراسات العليا

رسائل عبد الله بن المقفع

«دراسة نقدية»

مها أحمد صالح

إشراف

الدكتورة عصمة عوشة

قُدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية

بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية

آب/١٩٩٥م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ١٩٩٥/٨/٨، وأجيزت

أعضاء اللجنة **التوقيع**

١. الدكتورة عصمة غوشة / مشرفة

١. الاستاذ الدكتور محمود إبراهيم / عضواً

٢. الدكتور صلاح جرار /عضواً

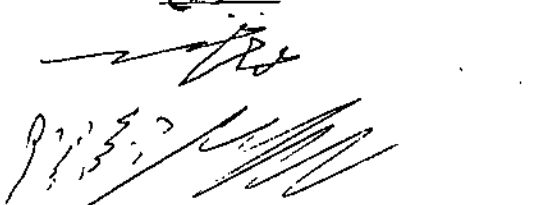

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

إلى الذين مدوا لي يد المساعدة فأيقظوا الإرادة والعزم في نفسي.

إلى الذين زرعوا الورود والرياحين في دربي فغاب الشوك والبرد والظلام.

إلى أبي...

إلى أمي....

إلى زوجي...

أهدي بحثي هذا.....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

يسرني في نهاية بحثي هذا أن أقدم عرفاني بالجميل ، وأن أرفع جزيل شكري وامتناني إلى أستاذتي الدكتورة عصمة غوشة التي كثفت الجهود ، وقصرت المسافات ،في سبيل إخراج بحثي هذا إلى حيز الوجود.
وأخص بالشكر أيضا الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم ، والدكتور الفاضل صلاح جرار لتفضلهما بالإشتراك في مناقشة هذا البحث .
كما أتقدم بالشكر إلى العاملين في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث -دبي - الإمارات العربية المتحدة ، لما قدموه من تسهيلات ، وما وفروه من كتب ومراجع أغنت هذا البحث ودعمته .
وإلى كل من قدم يد العون والمساعدة ، وإلى كل من قدم النصائح والتوجيهات أقدم شكري وعرفاني.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرست المحتويات

الموضوع	الصحفة
- قرار لجنة المناقشة.....	ب
- الإهداء.....	جـ
- شكر وتقدير.....	د
- فهرس المحتويات.....	هـ
- الملخص باللغة العربية.....	ح
- التمهيد.....	١-٦
- الفصل الأول : البعد الاجتماعي لرسائل ابن المقفع	
- المجتمع وأحواله.....	٨-١٤
- الصديق.....	١٥-٢٤
- العدو.....	٢٤-٢٨
- العلم والعمل.....	٢٩-٣٤
- إصلاح النفس.....	٣٤-٣٦
- الرأي والهوى.....	٣٦-٣٧
- المال.....	٣٧-٤٢
- المرأة.....	٤٢-٤٤
- العمل للآخرة.....	٤٤-٤٦
- القضاء.....	٤٦-٤٨
- آداب الطعام.....	٤٨-٤٩
- إخوانيات ابن المقفع.....	٤٩-٥٠
الفصل الثاني : البعد الأخلاقي لرسائل ابن المقفع	
- آداب المجالسة.....	٥٢-٥٧
- مكارم الأخلاق	
الكرم.....	٥٧-٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصدق والكذب..... ٥٨-٦٠
- الغضب..... ٦٠-٦١
- التواضع..... ٦١-٦٢
- الحسد..... ٦٢-٦٣
- الصبر..... ٦٣
- الشكر على قضاء الحوائج..... ٦٣-٦٤
- تقديم الفعل على القول..... ٦٤-٦٦

الفصل الثالث: البعد السياسي والعرقي لرسائل ابن المقفع.

- السلطان..... ٦٩-٧٥
- صحابة السلطان..... ٧٥-٨٠
- طريقة التعامل مع السلطان..... ٨٠-٨٣
- نقد سياسة الحكم العباسي..... ٨٣-٩٢

الفصل الرابع: السمات الفنية لرسائل ابن المقفع.

- الألفاظ..... ٩٥-٩٦
- الاهتمام بالمعاني والدقة في تناولها..... ٩٦-٩٧
- الأفكار..... ٩٧-٩٨
- صياغة الجمل والتراكيب..... ٩٨-١٠٠
- التقسيم والتسلسل المنطقي..... ١٠٠-١٠١
- أدوات الربط في الجمل..... ١٠١-١٠٢
- مقدمة الرسائل..... ١٠٢-١٠٣
- البلاغة..... ١٠٣-١٠٥
- الاستشهاد بالشعر والحكمة والمثل..... ١٠٥-١٠٦
- أسلوب الخطاب في الرسائل..... ١٠٦-١٠٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-أثر الثقافات المختلفة
- الأثر الفارسي..... ١٠٧-١٠٨
- الأثر الإسلامي..... ١٠٨-١١٠
- الأثر اليوناني..... ١١٠-١١٢
- بعض الأقوال التي قيلت في ابن المقفع..... ١١٣-١٢١
* كتب ارتبطت باسم ابن المقفع
- الأدب الوجيز للولد الصغير..... ١٢٣-١٢٥
- الرسالة اليتيمة..... ١٢٥
- يتيمة السلطان..... ١٢٥-١٢٦
- عهد أردشير..... ١٢٦-١٣٠
- كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع..... ١٣٠-١٣٦
- رسالة تنسر..... ١٣٧-١٥٠
- الخلاصة..... ١٥١
- ثبت المصادر والمراجع..... ١٥٢-١٦٢
- الملخص باللغة الإنجليزية..... ١٦٣-١٦٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخص

رسائل عبدالله بن المقفع

«دراسة نقدية»

مها أحمد محمد صالح

بإشراف : د. عصمة غوشة

تتناول الرسالة رسائل عبد الله بن المقفع الكاتب الأديب ، الذي عاش في أواخر العصر الأموي ، وشهد ولادة العصر العباسي ، عصر التطور والغنى الحضاري.

ويتألف هذا البحث من أربعة فصول ومقدمة، وتمهيد تاريخي تناولت فيه أثر الثقافات الأجنبية في أدب العصر العباسي ، لا سيما الثقافة الفارسية التي كان لها أكبر الأثر في موضوعات الأدب العربي خاصة تلك الموضوعات المتصلة بالسلطان ، والأنظمة التي تسير بالمجتمع نحو الأفضل، كما تناولت فيه دور ابن المقفع في إغناء الأدب العربي بما ترجمه عن الثقافات التي ثقفها وبما ألّفه من مؤلفات.

في الفصل الأول : تحدثت عن البعد الإجتماعي لرسائل ابن المقفع ، وناقشت أبرز الموضوعات الاجتماعية التي ظهرت واضحة في رسائله مثل حديث ابن المقفع عن أحوال المجتمع ، وعن الصداقة وأهميتها في حياة الفرد ، وحثه على العلم والعمل ، وضرورة إصلاح النفس ، وتقديم الرأي على الهوى ، والمال ، و العمل للآخرة، والقضاء، وآداب الطعام .

في الفصل الثاني : تناولت البعد الأخلاقي لرسائل ابن المقفع .. وتحدثت عن الأخلاقيات التي نادى بها في رسائله للوصول إلى مدينة أفلاطون الفاضلة كحديثه عن آداب المجالسة ، ومكارم الأخلاق مثل الكرم ، والصدق ، والغضب، والتواضع ، والحسد ، والصبر ، والشكر على قضاء الحوائج ، وتقديم الفعل على القول.

في الفصل الثالث : تناولت البعد السياسي والعرقي لرسائل ابن المقفع ، وتحدثت فيه عن الموضوعات السياسية التي طرحها ابن المقفع في رسائله متأثراً بأصله الفارسي كحديثه عن السلطان ، وصفاته ، وكيفية تعامله مع رعيته ، والأسس التي ينبغي أن يتبعها في اختياره لبطانته . وعن نقد ابن المقفع لسياسة الحكم العباسي.

أما الفصل الرابع فتناولت فيه ، السمات الفنية لرسائل ابن المقفع ، تلك التي ظهرت واضحة في رسائل العصر العباسي الأول ، ومثّلها ابن المقفع في رسائله ولا سيما تأثيرات الثقافات الأجنبية في الأدب ، واللغة والأسلوب وفنون البلاغة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي النهاية قدمت طائفة من الأقوال التي قيلت في شخصية ابن المقفع وفي أدبه ، ثم عرضت لبعض الكتب التي ارتبطت باسم ابن المقفع ، وفقد أصلها العربي.

ثم كتبت الخاتمة التي عرضت فيها لأهم النتائج التي تمخض عنها البحث ، وكان من أهمها أن ابن المقفع استطاع تمثيل فن الرسائل الادبية في العصر العباسي الأول. إضافة إلى كونه صاحب طريقة في الكتابة ، سار على نهجها كثير من الكتّاب الذي جاؤوا بعده.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمهيد

شاعت في العصر العباسي الأول ثقافات عدّة نشأت من دخول أمم مختلفة في حمى الدولة العباسية ، وكان لكل أمة من هذه الأمم ثقافة خاصة بها ، وقد امتزجت هذه الثقافات ببعضها بحكم التزواج والتوالد وأبرز هذه الثقافات كانت الثقافة العربية والفارسية واليونانية والهندية .

وقد أثرت الثقافات الفارسية واليونانية والهندية في الثقافة الاسلامية ، وفي الأدب العربي ، ولعلّ التأثير الأكبر كان للعنصر الفارسي لا لشيء إلا لأنه العنصر الذي اتصل به المسلمون اتصالاً مباشراً لم تحظ به باقي الثقافات، وإن كان تأثير بقية الثقافات بداجلياً في الثقافة الاسلامية .. فقد دخلت العربية ألفاظ لغوية جديدة كان أصحابها فرساً أو هنوداً أو يونانيين . كما دخلت الثقافة الاسلامية علوم عديدة كالتنجيم والسير والتاريخ والهندسة والأديان من الهنود والفرس، والمنطق والطب والهندسة والنجوم والفلسفة من اليونان .

أما التأثير الأهم لهذه الثقافات فكان في الأدب، وهنا برز الأثر الفارسي وذلك لأن العباسيين اعتمدوا كثيرا على العنصر الفارسي.

وقد تمّ تأثير الثقافات المختلفة في الثقافة الاسلامية بطريقين الأول : طريق النقل والترجمة وهو الطريق الذي برز من أعلامه ابن المقفع . وطريق تعرّب الشعوب التي أسلمت وانتقالها إلى العربية بكل ما تحمله من ثقافة ومعرفة ، وعادات وتقاليد ، وطرائق معيشة .

وقد وصل التأثير الهندي إلى الثقافة الاسلامية بطريق مباشر تمثل باتصال المسلمين بالهند عن طريق التجارة ، وبالفتح العربي الاسلامي الذي أتاح فرص الالتقاء بين العرب والهنود ، وامتزاج ثقافة كل عنصر بالآخر .

كما وصل هذا التأثير بطريق غير مباشر، وذلك عن طريق الفرس الذين كانوا قد تأثروا بالهنود قبل الفتح الاسلامي وأخذوا من ثقافتهم ، فاندمجت الثقافتان الهندية والفارسية ، فكان النقل عن الثقافة الفارسية هو في الحقيقة نقلاً لجزء من الثقافة الهندية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما مظاهر التأثر بالثقافة الهندية فقد تمثل في الألفاظ حيث عُرّبت الكثير من الألفاظ الهندية التي كان يحملها تجار العرب في تجارتهم مع الهند فكانوا يجلبون سلعاً هندية تحمل أسماء هندية .

كما تمثل في القصص الهندي فالهنود مولعون بعالم القصص والخيال،حتى إن فلسفتهم استندت إلى الخيال فيما تعرضه من أمثلة أكثر من اعتمادها على المنطق ، ومن ذلك قصة كليلة ودمنة ذات الأصل الهندي.

وتمثل هذا التأثر أيضاً في الحكم، فقد عرفت الهند بالحكم التي تشبه إلى حد كبير الأمثال العربية فهي عبارة عن جمل قصيرة تحمل معاني غزيرة، و تنم عن تجارب كثيرة ، ومن الحكم ما كان (يتضمن نصحاً للملوك والولاة بالعدل في الرعية مع ضرب الأمثال)[١].

أما الثقافة اليونانية فقد برز تأثيرها في عصر التدوين في الوقت الذي نشطت فيه حركة الترجمة عن النبط واليونان والسريان ، وقد ظهر تأثير الثقافة اليونانية في الثقافة الاسلامية بما ترجم من كتب المنطق حيث صبغت العلوم العربية بالمنطق اليوناني ، ووضعت على منهاجه ، وهذا يظهر عند المتكلمين (الذين برعوا في الجدل والبحث والتعبير والتدليل ،متأثرين في ذلك كله بالمنطق اليوناني كما يظهر في ترتيب المؤلفات وتبويبها وتقسيمها تقسيماً منطقياً كما هو الحال في كتاب سيبويه مثلا، ويظهر أيضاً في تطبيق القياس المنطقي في الفقه والنحو واللغة والفلسفة)[٢].

أما تأثير الثقافة اليونانية في الأدب العربي فقد كان ضيقاً إلى حدٍ ما، وهذا يعود وفق رأي أحمد أمين إلى قلة معلومات العرب المسلمين عن الحياة الأدبية اليونانية ذلك أن التاريخ اليوناني يبدأ بالاسكندر الأكبر أو قبله بقليل كما أن هذا التاريخ يحفل بالأساطير الخرافية.

كما أن تعصب العرب خاصة في العصر الأموي الشديد للعرب وتعصبهم للقديم

١- أحمد أمين -ضحى الاسلام ، ج ١ ، ط ٩ ،النهضة المصرية - القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٢٤٦-٢٤٩/ ص ٢٣٣.
أحمد كمال زكي - الحياة الأدبية في البصرة الى نهاية القرن الثاني الهجري . ط١ ، دار الفكر دمشق ،، ١٩٦١-ص ١٢٩.
٢- أحمد أمين ضحى الإسلام ،ص ٢٧٥-٢٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عامة حال دون تأثرهم بالثقافات الأخرى. ولا ننسى أن الفرس كانوا أقرب إلى العرب ، فكان العرب يعرفون الكثير عن حياة الفرس الاجتماعية ونظمهم السياسية في حين كانت حياة اليونان الاجتماعية ونظمهم السياسية غير مألوفة للعرب فلم يتأثروا بها (١).

ولكن هذا لا يحجب بعض التأثيرات اليونانية في الأدب العربي والتي تمثلت في تعريب بعض الألفاظ اليونانية ، وترجمة القصص والأسماء اليونانية إلى العربية والأهم من ذلك ترجمة الحكم التي نسبت لفيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو (٢) .

أما الثقافة الأكثر تأثيراً في المجتمع الإسلامي فقد كانت الفارسية ، وقد اجتمعت دوافع عدّة وعوامل متنوعة شجعت حركة الترجمة عن الفرس كان منها خدمة العلم والأدب والرغبة في الاطلاع على الحكم والوصايا والنصائح الفارسية ، وطبيعة الحياة السياسية والاجتماعية في العصر العباسي ، ثم الاستجابة لمطالب العصر الفكرية والفنية ، وقد ساعد الوزراء الفرس في ذلك . كما كان لضرورة تثقف الكتّاب بالثقافتين العربية والفارسية أثر أيضاً في ذلك . هذا إضافة إلى ميل العرب إلى هذا النوع من الحكم والوصايا ذلك النوع الذي يعنى بالسياسة والحكم- ولا ننسى النزعة الشعوبية عند مثقفي الفرس ورغبتهم في إحياء الحضارة الفارسية وبعث التراث القومي لأجدادهم، وبالطبع ساهم تشجيع الخلفاء والوزراء كثيراً في إحياء الترجمة وتنشيطها والفرس كما يصفهم ابن عبد البر (كانوا أهل رياسة وسياسة وحسن مملكة ، وتدبير للحروب ، ووضع الأشياء مواضعها ولهم الترسل والخطابة والنظافة وتأليف الطعام والطيب واللباس . ومن كتبهم استملى الناس رسوم الملك)(٣) .. لهذا فإن انتقال عاصمة الخلافة من الشام الى العراق وتقلّد الفرس المناصب العليا في الدولة خاصة منصب الوزير ، واشتراط البلاغة والقدرة على الكتابة لهذا الوزير - وهذا ما توافر للفرس دون غيرهم - والامتزاج بين العرب والفرس في الجنس واللغة والثقافة والحياة الاجتماعية بما ساد فيها من لهو وعبث ومجون ، وزيادة في عدد الجواري والغلمان ، وعناية فائقة بالطعام واللباس والتنافس في البناء والرياش ... كل ذلك ساهم وأكدّ انتشار

١- أحمد أمين فجر الاسلام ، ج١ ، ط٢ ، مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر ،ص ١٦٠ -١٦٢،

٢- أحمد أمين ضحى الاسلام ، ص ٢٨١-٢٨٢.

(٣) أبو عمر يوسف عبد الله بن عبد البر - القصد والأم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم تحقيق ابراهيم الأنباري ، ط١ ، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٥ ، ص٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثقافة الفارسية في المجتمع العباسي.

ولا شك أن الطبيعة التي غدا عليها المجتمع العباسي أثرت في الأدب العربي، فبحكم اختلاط العرب بالفرس الذين تنوعت حياتهم التي شاع فيها الترف وأدوات الزينة ، وكثرت عندهم دواوين الحكومة ، أخذوا الكثير من المعاني الفارسية، كما أدخلوا عدداً من الألفاظ الفارسية إلى العربية ، كما نقلوا عن الفرس حكم الملوك ،ووصايا العظماء والقصص والحكايات الخلقية السياسية ، والأمثال وهذا كله جعل الأدب العربي متنوعاً ولیناً وسهلاً قريباً إلى النفوس، خاصة إذا أشرنا هنا إلى تأثير الفرس في الغناء العربي ، حين لحن الشعر العربي على النغمات الفارسية ولمجاراة الألحان والغناء جرى ترقيق الشعر في مجالس غُنيّ فيها الشعر وأبدع فيها الشعراء كلٌ يحاول التفوق على قرينه في ألفاظه ومعانيه وأوزانه وقوافيه، فتتحول مجالس الغناء والطرب لتغدو حلبة تنافس أدبية كلٌ يحاول فيها جني الظفر والإعجاب(١). وهذا التنافس لم يتم فقط على مسرح الأدب،بل جرت المساجلات والمناظرات الفكرية والأدبية بين الفرق الدينية كالمعتزلة وفرقها ، والشيعة وفرقها والخوارج وفرقهم .

صحيح أن الفرس أثروا في الأدب العربي إلا أن العرب أيضاً أثّروا في الفرس ، فالفرس عندما اعتنقوا الدين الاسلامي، وتعلموا اللغة العربية، وتركوا الخط الفارسي ، وأخذت لغتهم الكثير من الألفاظ العربية ، أصبحت تصنيفاتهم التي يرفدون بها الآداب العربية مطبوعة بطابع عربي إسلامي ، وإن كان تأثير العقلية الفارسية – فيما يتعلق بطرق التفكير والفهم والحس والخيال الذي أدى إلى تطور الأدب العربي بوجه عام – لا يزال ظاهراً (٢) .

أما أبرز الموضوعات الفارسية التي تأثر بها الأدب العربي ،فقد تعلّقت بالسلطان وما يتصل به من بقاء سلطانه واستمراره ، والحث على تجنب ظلم الرعية ، والتسليم بأن ملكه صائر إلى الزوال لا محالة ، والحث على ضرورة اتصافه بالصفات الحسنة ،وتجنبه للصفات

١- محمد غنيمي هلال الأدب المقارن ، ط٥ ،دار العودة ، دار الثقافة بيروت ، ص ٣٦٩.

٢- خليل مردم بك ، ابن المقفع ، مكتبة عرفة دمشق، ١٩٣٠ ،ص٦٠٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القبيحة ، وبيان واجباته تجاه الرعية ... كما ركّزت هذه الأفكار الفارسية على علاقات الانسان بالآخرين لذلك فإنها تحث على الصداقة والإخاء ، وعلى مشاورة ذوي العلم والتجربة ، وعلى ضرورة شكر كل من أسدى فضلاً ، كما تظهر في هذه الموضوعات صورة المرأة فتبدو إما صالحة أو سيئة .

كذلك نجد الدعوة إلى الاتصاف بمكارم الأخلاق والإقبال على الفضائل كالعقل والعلم ، والحكم الفارسية تعلي كثيراً من شأن العقل كما تعنى بالحث على الأخلاق الفاضلة كالحِلْم ، والقناعة ، والتواضع ، والبر والحزم ، والشجاعة، والصبر، والحياء ،والسخاء، والوفاء ، والزهد، والتقوى، والنية الصالحة ، والأعمال الخيرة ، والكلام الحسن، والكياسة ، والدهاء، والمروءة .

كما حثت هذه الحكم على تجنب رذائل الأخلاق ، كالحسد ، واتباع الهوى ، والرياء والتصنع، والعُجب، والجهل ، والاتصاف بصفات الجُهّال، والشره ،والبخل ، والحرص ، والشح والغضب.

كذلك نجد اهتماماً بالموضوعات الدينية فيحثون على التفقه في الدين والايمان بالخالق العادل ... كما نجد اهتماماً ، بالقضاء والعمل ، وإيثار الآخرة على الدنيا، والدعوة إلى الهدى، والتقوى ، والعبادة .

كما نجد موضوعات أخرى متنوعة كالحث على السعي والعمل لتحقيق الرغائب، والحث على الاطلاع على الكتب، وبحث المسائل الاقتصادية المتعلقة بالمال ،والتحذير من صروف الدهر وتقلبات الحياة .

وهذه الموضوعات تجتمع كلها فيما نقله ابن المقفع من حكم فارسية ، ودوّنها في الأدب الصغير، والأدب الكبير، ورسالة الصحابة ، وغيرها مما ترجم أو ألّف .

فابن المقفع يعد حقاً ممثلاً للثقافة الفارسية ولهذا نجده يكثر من النقل والترجمة من هذه الثقافة لاسيما أنه قد خبر لغة الفرس وثقافتهم ، كما اتصل أيضاً بالفكر اليوناني والهندي والسرياني ، وتوّج ذلك بثقافة عربية واسعة وإتقان للغة العربية ودربة على أساليب البلاغة .

وقد استطاع بما ترجمة من كتب أن ينقل للعرب في الأمصار الاسلامية أشخاص

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أساطير البطولة الإيرانية وتاريخ الساسانين ، وأن يصورّ طبيعة الروح الفارسية وطبيعة حياتها قبل الإسلام ، وبعد أن أسلم ، نقل فيما ألفه من رسائل (حكمة الشرق العملية المستخلصة من تجارب الحياة التي لا تعترف بمبادئ مرسومة للعادات والتقاليد ، ولا يخدعها الوهم والخيال عن حقائق الناس، والتي تعلّم في برود وواقعية جافة. دون اكتراث لما جاء في الأديان السماوية من مبادئ وفروض خلقية وأدبية، كيف يسلك المرء إذا أراد أن يعيش في العالم بعيداً عن المضار محظياً بالسعادة)[١].

ولهذا حاول ابن المقفع دائماً أن يصلح المجتمع صادراً في ذلك عن عقله الزاخر بالنظم الفارسية ، والتاريخ الفارسي ، والثقافة الفارسية، إضافة إلى غيرها من النظم والثقافات والتواريخ ، ولم يكن ابن المقفع يكتفي بنقل ما جاء في هذا التراث المتنوع الذي أحسن استيعابه بل كان يعمد إلى التغيير والتبديل ليلائم بين ما جاء في الثقافات المتنوعة التي يكتب عنها وما جاء في الثقافة الاسلامية التي يكتب لها .

وقد دعا ابن المقفع إلى الإصلاح معتمداً على الرمز أحياناً ، وهذا يظهر في كليلة ودمنة – وهذه خارجة عن إطار بحثنا هذا – أو معتمداً على الصراحة أحياناً أخرى ، وتمثل هذا في الأدب الصغير، والأدب الكبير ، والأدب الوجيز للولد الصغير ، ورسالة الصحابة التي تعد ثورة على أوضاع المجتمع القائم، وثورة للوصول بالمجتمع إلى ما ينبغي أن يكون عليه ، وفي كل رسائله الباقية .

١- يوهان فك – العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب مع تعليقات المستشرق الألماني شبيتالر – ترجمة رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي مصر ، ١٩٨٠ ، ص٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

البعد الاجتماعي لرسائل ابن المقفع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

البعد الاجتماعي لرسائل ابن المقفع

حاول ابن المقفع دائماً كما أسلفت أن يصلح المجتمع ،وقد تحدث في سبيل هذا الإصلاح عن الأمراض الاجتماعية التي تصيب كل فئة في المجتمع،بادئاً بالسلطان منتهياً إلى عامة الشعب ، معالجاً قضايا القضاء ، والبلاط، والجند ، والعمال، ورجال المال ، والمرأة .. واصفاً العلاج المناسب لكل مرض من هذه الأمراض.

وسأحاول في هذا الفصل تلمس الأبعاد الاجتماعية التي ظهرت واضحة في رسائل ابن المقفع، مبرزة القضايا الاجتماعية التي أثارت اهتمامه فتناولها بالنقد النابع من تجارب حياتيه خاصة لا من درس وتحليل للنفس والخلق.

وقد ركّز ابن المقفع في إصلاحه الاجتماعي على السلطان والصديق ، لما لهما من تقدير خاص عنده ، أما تركيزه على السلطان فذلك لاتصاله بملوك الفرس الذين تخصص ابن المقفع بمعرفة أحوالهم، ودراسة شؤونهم ، بما ترجمه من تراث قومه ،ولهذا أرجأنا الحديث عن السلطان لارتباطه بأبعاد سياسية وعرقيه – كذلك فإن ظروف حياة ابن المقفع وأحداث عصره جعلته دائم البحث عن صديق حميم يضع فيه ثقته و يفضي إليه بدخائل نفسه (١).

وبما أنه قد ركّز على الصديق فقد أفاض أيضاً في الحديث عن العدو، وكيفية التعامل معه ، منتقلاً للحديث عن أحوال المجتمع عامة، وكيفية تعامل فئاته المختلفة فيما بينهم ، كما تحدث عن أهمية السعي والعمل لجني ثمار الأعمال، وتحدث عن أهمية تقسيم الوقت ليحظى الإنسان بالسعادة في الدنيا والآخرة ،وتحدث عن المرأة، وعن الفقر، وعن المال ،

١- محمد عبد الغني الشيخ – النثر الفني في العصر العباسي الأول اتجاهاته وتطوره، الدار العربية للكتاب ١٩٨٨ ، ص ٢٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعن غير ذلك مما سنقف عليه في هذا الفصل بالتفصيل.

المجتمع وأحواله .

يصور ابن المقفع في رسائله حالة المجتمع السيئة، وما آل إليه من فسادفالناس كلهم قد أصابتهم الأمراض الاجتماعية ، فهم إذا تحدثوا ظلموا وبغوا ، وإذا سمعوا عابوا على الآخرين ما قالوا وإذا وجه إليهم الوعظ والإرشاد قابلوا ذلك بالاستهزاء والاستخفاف، وإذا طلبوا المشورة من شخص ما لا ينفذون ما يشار عليهم بل إنهم إنما يحاولون السؤال والاستفهام عن الأمور لا بغرض الإلمام وتحصيل المعرفة وإنما لإظهار عجز المسؤول الذي يتكلف بدوره الإجابة دون علم أو فهم أو دراية ، حتى الوّعاظ منهم فهم قوم أقوال لا أفعال حيث نجد التناقض الكبير بين سلوكهم، وما يدعون الناس إليه في أقوالهم بل إنهم لا يدافعون عن الدين إذا فرّط فيه ويميلون حيث مالت الريح .

فحال المجتمع حال من يبني ويهدم في آن معاً كلٌ يتربص الدوائر بالآخر ويحسده ويخذله .

هذه الصورة التي عرضها ابن المقفع للمجتمع صورة قاتمة تجعل السواد الأعظم من المجتمع مفكك الأوصال مثقلاً بالعلل والأدواء ..ولعل ابن المقفع أراد أن يظهر فساد المجتمع الإسلامي لاسيما وأنه ركّز على الوعّاظ الذين نسوا واجباتهم الدينية فابن المقفع هنا لا يرمي إلى الإصلاح بل إلى إظهار العيوب ... ولعل المبالغة التي نلمحها في وصفه لفساد المجتمع – وفي أكثر من رسالة – يعود إلى إحساسه الدائم أن المجتمع الفارسي هو المجتمع المثالي الزاخر بالفضائل ، الذي لايسمح بأي تهاون في أمر الدين وينزل أقصى العقوبات بكل من تسول له نفسه انتهاك حرمة الدين ، أما وعّاظهم فهم حكماء تنطق ألسنتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وخير مثال على ذلك رجل الدين تنسر الذي ترجم ابن المقفع آراءه ومواعظه .

أما الصورة التي عرضها ابن المقفع للمجتمع فقد تمثلت في قوله :(الناس –إلا قليلاً ممن عصم الله– مدخولون في أمورهم فقائلهم باغ، وسامعهم عيّاب ، وسائلهم متعنت ومجيبهم متكلف ، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل ، وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف ، والأمين منهم غير متحفظ من إتيان الخيانة ، والصدوق غير محترس من حديث الكذبة ، وذو الدين غير متورع عن تفريط الفجرة ، والحازم منهم غير تارك لتوقع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدوائر ، يتناقضون البناء ، ويتراقبون الدول ، ويتعايبون بالهمز مولعون في الرخاء بالتحاسد ، وفي الشدة بالتخاذل)[١].

ويكرر هذا القول في الرسالة اليتيمة حين يقول : (وقد أصبح الناس – إلا قليلاً ممن عصم الله – مدخولين منقوصين فقائلهم باغٍ وسامعهم عيّاب وسائلهم متعنت ومجيبهم متكلّف وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل . وموعوظهم غير سليم الهزء والاستخاف ، ومستشيرهم غير موطّنٍ نفسه على إنفاذ ما يُشار به عليه ، ومُصْطَبر للحق مما يسمع ومستشارهم غيرُ مأمونٍ على الغش والحسد، وأن يكون مهتاكاً للسّتْر مشيعاً للفاحشة ، مؤثراً للهوى ، والأمين منهم غير متحفظ من إئتمان الخونة ، والصدوق غير محترس من حديث الكذبة ، وذو الدين غير متورّع عن تفريط الفجرة ، يتقارضون الثناء ويترقبون الدول، ويعيبون بالهمز يكاد أحزمهم رأياً يلفته عن رأيه أدنى الرضا وأدنى السخط ويكاد أمتنهم عوداً أن تسحره الكلمة ، وتسكره اللحظة)[٢] .

وبما أن المجتمع قائم على هذه الأحوال السيئة والعلاقات المضطربة بين الناس فان ابن المقفع يدعونا إلى عدم الاطمئنان للآخرين، فعلى المرء ألا يمنح ثقته للناس إلا بعد تقليبهم و تفحصهم ومحاولة استنباط طبائعهم ،وذلك لأن الانسان كما يراه ابن المقفع – جبل على لؤم الطباع يقول : (إذا أقبل إليك مقبل بودّه فسرّك ألا يدبر عنك فلا تنعم الإقبال عليه والتفتح له ، فإن الإنسان طبع على ضرائب لؤم ، فمن شأنه أن يرحل عمن لصق به، ويلصق بمن رحل عنه إلا من حفظ بالأدب نفسه وكابر طبعه فتحفظ من هذا فيك وفي غيرك)[٣].

وأرى أن ابن المقفع بعيد عن الصواب فيما ذهب إليه هنا فالإنسان إذا أراد أن يقيم علاقات اجتماعية بالآخرين لا يبحث عمن يدبر عنه ويصده ،بل يتودد ويبدي الترحيب بكل من يقبل عليه ويبادله الود ... صحيح أن الإنسان يتوخى الحذر في بداية كل علاقة جديدة تربطه بمن حوله، ولكنه يجد نفسه دون أي تردد يقبل على كل من وجد فيه

١- عبد الله ابن المقفع ، الأدب الصغير ، شرح ودراسة مفيد قميحة ، ط١، دار الشواف للطباعة والنشر ، الرياض، السعودية ١٩٨٩ ، ص ٦٣.

٢- أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة ، ج٣ ، ط١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ، ١٩٣٧ . ص٤٨.

٣- عبد الله ابن المقفع ، الأدب الكبير شرح ودراسة مفيد قميحة ، ط١ ، دار الشواف للطباعة والنشر ، الرياض– السعودية ، ١٩٨٩، ص١٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بوادر الخير.

وابن المقفع نفسه في موضع آخر يوضح أن هذا الضرب من العلاقات لا يكون إلا عند أشرار الناس ، أما خيارهم فإنهم يثقون في من حولهم ، لذلك قد يمنحون ودهم لمن عرفوه في لقاء واحد . في حين يدفع لئام الناس الطمع أو الخوف لمنح ودهم ، هذا الود الذي سرعان ما ينقطع في أول فرصة مناسبة يقول :(المودة بين الأخيار سريع اتصالها بطيء انقطاعها، ومثل ذلك مثل كوب الذهب الذي هو بطيء الانكسار هين الاصلاح. والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها كالكوز من الفخار يكسره أدنى عبث ثم لا وصل له أبداً . والكريم يمنح الرجل مودته عن لقية واحدة أو معرفة يوم ، واللئيم لا يصل أحداً إلا عن رغبة أو رهبة)[١]. ٤٥٨١٧٥

فكيف يعامل الناس بعضهم بعضاً إذاً في ظل هذه الظروف التي وصفها لنا ابن المقفع ؟

الحل في رأي ابن المقفع يكمن في تحديد طريقة التعامل مع الآخرين ليحمي الانسان نفسه من الأشرار واللئام فيحذر الحذر كله ، ويحرص الحرص كله من عامة الناس ولهذا يبدي لهم الانقباض والتشدد في حين يظهر اللطف والمودة للخاصة من ذوي الفضل في الرأي والثقة يقول: (على العاقل أن يجعل الناس طبقتين متباينتين ، ويلبس لهم لباسين مختلفين ، فطبقة العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحفظ في كل كلمة وخطوة ، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد، ويلبس لباس الانسة واللطفة والبذلة والمفاوضة . ولا يدخل في هذه الطبقة إلا واحد من الألف ، وكلهم ذو فضل في الرأي وثقة في المودة وأمانة في السر ووفاء بالإخاء)[٢].

وأرى أن حل ابن المقفع هذا مستوحى من الثقافة الفارسية ، ومن نظم المجتمع الفارسي القائم على نظام الطبقات. والطبقيه ليست إصلاحاً للمجتمع بل إنها تذكي الفساد فيه وذلك لما تثيره من أحقاد بين الطبقات المختلفة،و لا يجد ابن المقفع صعوبة في حمل

١- الأدب الصغير ، ص ٨٧

٢- المرجع السابق ، ص ٥٦،٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شخصية مركّبة : شخصية منقبضة ومنحجزة ومتحفظة مع العامة وشخصية لطيفة أنيسة مع الخاصة ؟!

بل يراه سهلاً فما هو إلا استبدال ثياب بأخرى (ألبس للناس لباسين ليس للعاقل بدٌّ منهما، ولا عيش ولا مروءة إلابهما لباس انقباض واحتجاز من الناس تلبسه للعامة فلا يلقونك الا متحفظاً متشدداً متحرزاً مستعداً ، ولباس انبساط واستئناس تلبسه للخاصة الثقات من أصدقائك فتلقاهم بذات صدرك، وتفضي إليهم بمصون حديثك وتضع عنك مؤونة الحذر والتحفظ في ما بينك وبينهم)[١].

ولكن هل كان ابن المقفع يخلص الود لخاصته ؟ لقد تحدث الجاحظ في رسالته (ذم أخلاق الكتّاب) عن سوء أخلاق الكتاب، فوصفهم بسوء الطبع ونذالته ، والسفه والجهل والطيش ، وعاب عليهم عداوتهم لبعضهم بعضاً ، هذه العداوة التي تعكس لؤم طباعهم ويدلل على ذلك قائلاً: (كتب لبني العباس عبد الله بن المقفع فأغرى بهم عبد الله بن علي فُفطن له وقُتل وهدُم البيت على صاحبه)[٢]. يشيرهنا إلى عهد الأمان الذي تشدد ابن المقفع في كتابته لعبد الله فأدى ذلك إلى قتل عبد الله فإن قيل أن الجاحظ يحقد على ابن المقفع لشهرته – أو لأنه كان ينسب الكتاب له ليقبل الناس عليه – نجد ابراهيم بن المدبر في رسالته العذراء يورد خبراً عن ابن المقفع وعلاقته بأبي مسلم موحياً أن ابن المقفع هو الذي أوقع بأبي مسلم وسّهل على المنصور قتله فيقول:(وقد وقعت البلاغة من العلم علو القدر، وباذخ العز كأبي مسلم صاحب الدولة فرّقت شمله، وبدّدت جمعه ، ونقضت بَرْمه وأفسدت صلاحه ، وضعضعت بنيانه ، مع ذكائه وتفطنه ، ومكايده ودهائه وأصالة رأيه وشدّة شكيمته ، وامتناعه على أبي جعفر ، ونفاره عنه ، كيف استفزه ابن المقفع وصالح بن عبد القدوس وجبل بن يزيد واستمالوه بسحر ألفاظهم وبلاغة أقلامهم ، حتى نزل عن باذخ عزه، وجاء مبادراً حتى وقع في الشَّرَك المنصوب له ، فتفرق جمعه ، وانطفأ نوره ، وصار خبراً سائراً ورسماً داثراً)[٣].

١- الأدب الكبير ،ص ١٣٨، ١٣٩

٢- أوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، كتاب ذم أخلاق الكتّاب ، ج٢ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي القاهرة ص (١٩٤، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢)

٣- إبراهيم بن المدبر ، الرسالة العذراء ، د. زكي مبارك ، ط١ ، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ، ١٩٣١ ، ص ٤٢-٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن الخبرين السابقين يدلان على لؤم طباع ابن المقفع . في الروايتين غدر بمن كان مقرباً إليه ويجمعه الود معه وكأن العلاقة التي جمعت بين ابن المقفع وعبد الله بن علي ، وبينه وبين أبي مسلم الخراساني علاقة بين أشرار، فاتصلت سريعة وانقطعت سريعة أيضاً.

أما تعامل ابن المقفع مع الآخرين فقد تطابق مع أقواله فهو منحجز ومنقبض مع العامة ولطيفٌ خدومٌ للخاصة ، أما انقباضه وانحجازه فيظهران في تلك الإجابات المقتضبه التي أجابها لرجل من العامة أراد أن يفيد من علمه ومعرفته «جاء رجل فاستأذن على ابن المقفع فخرجت إليه جاريته فقالت إنه شرب الدواء فقال: إني من أصحابه ، فقالت : لو كنت من أصحابه لقعدت عنده كما قعد أصحابه. قال : فإني رجل له حاجة ، فقال ابن المقفع : أدخليه وقولي له فليوجز : فدخل فقال : ما حيلة من لاحيلة له ؟ قال : الصبر . قال : فما خير ما يصحب المرء؟ قال : العقل . قال : فإن حُرم ذلك ؟ قال : فصمتٌ طويل إذا جالس الناس . قال : فإن حُرم ذلك قال : فليمت إذا شاء »(١).

أما لطفه وانفتاحه على الخاصة فهذا يظهر من موقفه مع جاره الذي أراد بيع داره لدين ركبه فقد « بلغ ابن المقفع أن جاراً له يبيع داراً له لدين ركبه، وكان يجلس في ظل داره ، فقال : ما قمت إذاً بحرمة ظل داره إن باعها مُعدِماً ، وبتٌ واجداً فحمل إليه ثمن الدار وقال : لا تبع »(٢).

ولعل ابن المقفع في محاولته هذه لتحديد طريقة التعامل مع الآخرين قد اهتدى بما ورد في رسالة تنسر وفي عهد أردشير فقد ورد في رسالة تنسر إشارة إلى الطريقة التي ينبغي أن يعامل الملك رعيته وفقها وذلك بتصنيف الناس ضمن ثلاث طبقات (اعلموا أنا وجدنا الناس ثلاثة أصناف وارتضينا لهم ثلاث سياسات : الصنف الأول وهو قلة هم الخاصة وأهل الخير وسياستهم المودة الخالصة . والصنف الثاني هم أهل السوء والأشرار، وأهل الفتنه، وسياستهم المخافة الصرفة – والصنف الثالث وهو كثرة هم العامة من كل جنس وسياستهم

١– أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري ، المصون في الأدب، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دائرة المطبوعات والنشر ، الكويت ، ١٩٦٠، ص ١٤١

٢– أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه الدينوري، عيون الاخبار ، المؤسسة المصرية العامة ، للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ج١،ص٣٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجمع بين الرغبة والرهبة فلا أمن يرغبهم ولا رعب يفزعهم)[١].

وقد ورد ما يشبه هذا التقسيم في عهد أردشير أيضاً عندما تحدث أردشير عن السياسة الواجب اتباعها مع الناس فقال (واعلموا أنه لا سبيل إلى أن يُعظم الوالي إلا بالإصابة في السياسة ورأس إصابة السياسة أن يفتح الوالي لمن قبله من الرعية بابين أحدهما باب رقّة ورحمة ورأفه وتضرّع وبذل و تحنّن وإلطاف ومواساة ومؤانسة وبشر وتهلل وعفو وانبساط وانشراح ، والآخر باب غلظة وخشية وتغيّب وتسدّد وإمساك ومباعدة وإقصاء ومخالفة ومنع وقطوب وانقباض وتضييق وعقوبة ومحقرة إلى أن يبلغ القتل)[٢].

ولكن ابن المقفع ينقض دعواته الطبقية هذه حين يؤكد على أن قيمة المرء بأخلاقه الكريمة ، وآرائه السديدة لا بمنزلته الاجتماعية أو غناه أو فقره ، وذلك حين يبيح للناس أن يفيدوا من صاحب الخلق الكريم والرأي السديد حتى لو كان قليل الشأن قال : (لايمنعك صغر شأن امرئ من اجتناء ما رأيت من رأيه صواباً، والاصطفاء لما رأيت من أخلاقه كريماً، فإن اللؤلؤة الفائقة لاتهان لهوان غائصها الذي استخرجها) [٣].

ولكن يحذر ابن المقفع من المبالغة في حمد هذا الذي حازت آراؤه على إعجابنا أو حتى المبالغة في إطراء من لنا حاجة ببابه قبل التثبت من أخلاق هذا الشخص و أحواله لأن لوماً كبيراً سيقع على عاتقنا إذا خالف التوقعات يقول : (إذا كنت ذا ميل إلى أحد ولك إلى بابه التفات ، ووثقت به عن طريق حسن الظن فإياك أن تبالغ في حمده، والثناء عليه ومدحه وإطرائه قبل اختباره ، واعتبار أحواله، وعاداته ، وامتحان سرائره ، وطبائعه، وإمعان النظر دون غرض في أموره وأخلاقه ، لأنك إذا كنت قد أفرطت في مدحه دون إنصاف وبصيرة تحتم بعد الامتحان والتجربة العدول إلى خلاف ذلك المذهب تكون أولى بالملامة والمذمة من ذلك الملوم)[٤].

ويريح ابن المقفع نفسه أخيراً حين يدعو إلى عدم المبالاة والاهتمام بأحوال المجتمع، وأن يضع الإنسان مصلحته الشخصية نصب عينيه . فينعم بالخير الذي يأتيه من المجتمع في

١- ابن المقفع -رسالة تنسر -ترجمة د. يحيي الخشاب ، القاهرة ، ص ٣٩

٢- أبو علي مسكويه الرازي ، تجارب الأمم تحقيق ، أبو القاسم إمامي ج١ ، دار سروش للطباعة والنشر طهران ،١٩٨٧م ، ص٦٠

٣- الأدب الصغير ، ص٦٩

٤- عبد الله ابن المقفع ، الادب الوجيز للولد الصغير ، ط١ ، تعريب محمد عفراني الخراساني ، مطبعة ونشر عالم الكتب ، القاهرة ، ص ٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حين إذا أصاب المجتمع أو أحد أفراده شرٌّ ما، عليه ألا يكترث لذلك ما دام هذا الشر بعيداً عنه يقول: (وأنفع العقل ان تحسن المعيشة فيما أوتيت من خير، وأن لا تكترث من الشر بما لم يصبك)[١].

فأين تعاون أفراد المجتمع وتكافلهم لحماية مجتمعهم و أبناء مجتمعهم من أي خطر؟ وأين ابن المقفع من حديث رسولنا الكريم : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٢]!؟

أليست هذه دعوة لخذلان المجتمع؟ وعدم الاسهام في بنائه، وفي العمل للوصول به إلى الافضل ؟؟أليست عداوة ابن المقفع للمجتمع الذي عاش فيه هي التي جعلته ينطق بين الحين والآخر بما يجول في نفسه من مشاعر وأحاسيس تجاه هذا المجتمع ... أعتقد أن النزعة الشعوبية التي حملها ابن المقفع تجاه العرب وتجاه المجتمع العربي الاسلامي هي المحرك الأول لكل آرائه وأفكاره .

ويتضح ذلك بوضوح حين يدعو أفراد المجتمع إلى عدم التصريح بآرائهم ، إذا لم يجدوا من يوافقهم عليها قال: (وعلى العاقل أن يجبن عن المضي في الرأي الذي لا يجد عليه موافقاً وإن ظن أنه على اليقين)[٣].

إن ابن المقفع في هذا الرأي يلغي عقل الإنسان ، ويطمس شخصيته بل إنه يعارض مبادئنا الإسلامية التي حثنا رسولنا الكريم على تطبيقها حين عدّ قول الحق جهاداً في سبيل الله فقال عليه الصلاة والسلام (إن من أعظم الجهاد كلمة عدْل عند سلطان جائر)[٤] . أولا يعلم ابن المقفع بحكمته ورجاحة عقله أن الساكت عن الحق شيطان أخرس!؟

وبعد ..فإن نطرة ابن المقفع الى النفس البشرية ونزعاتها وإلى الاجتماع البشري كما يقول حنا الفاخوري (ذات نزعة مثالية وذات نزعة تشاؤمية) والدليل على التشاؤم الصورة التي صوّر بها المجتمع .[٥].

١- الأدب الصغير ، ص ٧٣

٢- صحيح مسلم شرح النووي ، ج١٦ ، باب ١٧ ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ص١٤٠

٣- الادب الصغير ص ٥٧

٤- رواه ابو دواد والترمذي وقال حديث حسن (رياض الصالحين النووي ،ص ٨١.

٥- حنا الفاخوري .، ابن المقفع ، دار المعارف ، مصر ، ص ٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصديق:

من الموضوعات التي ركّز عليها ابن المقفع في كل رسائله الحديث عن الصداقة والصديق ،متأثراً في ذلك بوصايا فلاسفة اليونان التي ملئت بالحث على حسن العلاقة بين الناس والتأدب في معاملة الأصدقاء(١). وقد اهتم ابن المقفع بالتوجيه إلى كيفية اختيار الصديق فالصديق الذي يريده ابن المقفع هو المثل الأعلى للصديق ، الصديق الذي يرتفع الى مستوى المثل الانسانية الكريمة التي تعمل لأجلها الشرائع والمصلحون(٢).

ويؤكد ابن المقفع على أهمية الأصدقاء في هذه الحياة فهم عماد الحياة لديه ومرآة النفوس ، وحدهم الخليقون بسره ومودته ، ودخيلة نفسه يخلص معهم من الحذر، بخلاف بقية الناس الذين لا يدانيهم إلا على تحفظ ولهذا يوجهنا إلى اختيار صديق من أهل الفضل والعفه والمروءة والدين يقول (وعلى العاقل أن لا يخادن ولا يصاحب ولا يجاور من الناس ما استطاع الا ذا فضل في العلم والدين والأخلاق فيأخذ عنه أو موافقاً له على إصلاح ذلك فيؤيد ما عنده وإن لم يكن عليه فضل) (٣) ويقول (وينبغي أن يكون أصدقاؤك و أصحابك وأقرانك وجلساؤك الذين تستعين بهم في الأمور، وتسلك معهم طريق المخالطة والمخالصة وتتخذ معهم قاعدة المصادقة والموافقة ،أهل عفاف ومروءة وسداد وفتوة)(٤).

وليحافظ المرء على ود أهل الفضل والعلم عليه أن يقبل المعروف منهم ، وأن يصبر على ما يمنعونه منه ، بل عليه ، ألا يعاتبهم أو حتى ينبههم الى تأخرهم في أداء المعروف إليه ، أو يطلب الزيادة فيه ...لأن ذلك قد يبطل الودبينه وبينهم فما على المرء إذن إلا التسامح والعفو فهو بهذا الخلق سيحصل على ما يريد دون أن يطلب شيئاً . يقول : (انظر من صاحبت من الناس من ذي فضل عليك بسلطان أو منزلة أو مَنْ دون ذلك من الأكفاء والخلطاء والإخوان ، فَوَطِّن نفسك في صحبته على أن تقبل منه العفو وتسخو نفسه عما اعتاص عليك مما قبله

١- طه حسين من حديث الشعر والنثر المجموعة الكاملة ج٥ ، الادب والنقد ، دار الكتاب اللبناني ، ص ٦٠٠.

٢- عبد اللطيف حمزة - ابن المقفع ، ط٣ ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٥ ، ص١٠٦

٣- الادب الصغير ، ص ٥٤

٤- الادب الوجيز، ص ٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غير معاتب ولا مستبطئ ولا مستزيد، فإن المعاتبة مقطعة للود ، وإن الاستزادة من الجشع ، وان الرضا بالعفو والمسامحة في الخلق تقرب لك كل ما تتوق اليه نفسك مع بقاء العِرْض والمودة والمروءة) (١).

وكيف لا يحافظ المرء على ود أصدقائه واخوانه من أهل الخير وهم من يعينونه على مصائبه إذا كشّر الدهر عن أنيابه له ، ويقيلون عثراته يقول ابن المقفع (إن أولى الناس بفضل السرور وكرم العيش وحسن الثناء، من لا يبرح رحله من إخوانه وأصدقائه من الصالحين موطوءاً ،لا يزال عنده منهم زحام ويسرهم ويسرونه ويكون من وراء حاجاتهم وأمورهم ، فإن الكريم إذا عثر لم يستقل إلا بالكرام كالفيل إذا وَحل لم يستخرجه إلا الفيلة)(٢).

وكيف لا يحرص ابن المقفع على أصدقائه وهو الذي لا يجد سروراً إلا بصحبتهم فيقول: (اعلم أن أخوان الصدق خير مكاسب الدنيا ، وهم زينة في الرخاء وعدة في الشدة ومعونة على خير المعاش والمعاد)(٣).

وأي إخوان يحسن بنامؤاتاتهم وفق رأي ابن المقفع؟ إنهم من الفقهاء في الدين الذين لا يراؤون في أمور الدين أحداً ، ومن الصادقين الأخيار ذوي السيرة النقية الطاهرة يقول

(على المرء أن يختار من إخوان الدين من كان فقيهاً ليس بمراء ولا حريص ، ومن إخوان الدنيا من ليس بجاهل ولا كذاب ولا شرير ولا مشنوع).(٤) وينهى ابن المقفع عن مصادقة الكذاب فيقول : (وإنما سمي الصديق من الصدق ، وقد يتهم صدق القلب وإن صدق اللسان ، فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان)(٥).

وطبيعي أن ينهى ابن المقفع عن مصادقة الكذاب ، بل إنه ينهى عن مصادقة أشرار الناس والجهلاء والحمقى منهم ، فصديق السوء يجلب الضرر والأذى بدليل قوله (إن الشرير يكسبك العدو ، ولاحاجة لك في صداقة تجلب العداوة ، وإن المشنوع شانع صاحبه

١- الأدب الكبير ، ص ١٥٤، ١٥٥

٢- الأدب الصغير ، ص ٩١

٣- الأدب الكبير ، ص ١٤٠، ١٤١

٤- المرجع السابق ، ص ١٣٧

٥- المرجع السابق، ص ١٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

.. وسوء الأصدقاء أضرّ من بغض الأعداء، فإنك إن واصلت صديق السوء أعيتك جرائره)[١] . وبما أن المرء يُعْرَف من قرينه فإن ابن المقفع يقول (واجتنب الأشرار والسفهاء حتى لا تعرف ولا توصف بفعلهم وطريقتهم ، لأن صحبتهم غرور وجهالة ومقارنتهم ومقاربتهم مكروهة ومحذورة، والناس يعرفون كل امرئ من أبناء جنس قرنائه وجلسائه)[٢].

ويقول (قللّ من مجالسة أهل السوء لأن صحبة السيء تدنسك وإن كنت طاهراً)[٣].

وليحظى المرء بصداقة الجميع ، وينال محبة أهل الخير والشر ، وينال الحظوة لدى أصدقائه وخلاّنه ، عليه بالتحلي بحميد الأخلاق ، فيقول في أدبه الكبير (احترس من سورة الغضب، وسورة الحّمية، وسورة الحقد، وسورة الجهل)[٤].

ويقول في أدبه الوجيز (أي بني : ينبغي أن لا تكون عاطلاً عن التحلي بالخلق الحسن وحلية الكلام العذب ، وزينة الرفق، وحسن المعاشرة، فإن كل من يتحلى بحلية محاسن الأخلاق يكون من أرباب السداد والخير، ويكون محبوباً كذلك عند أهل الفسق وأصحاب الشر والفجور، وتستحكم وترسخ مودته في ضمائر عموم الناس وخواطرهم، وتستقر محبته في قلوب الطوائف، ويثنون عليه ويحمدونه في جميع الأفعال، ويذكرونه بالخير في رسائلهم، ويكسب الاصدقاء، والخلاّن، ويحصل على الأحباب والإخوان، ويجعلهم شاكرين ومستفيدين ومنتفعين بمعاشرته و مصاحبته ، كما أنهم يتسامحون معه ويواسونه في احتمال المشقات ،والتكفل بعوارض المهمات،ويشاطرونه غمّه ويعينونه ويتحملون ما يصدر عنه)[٥].

ويحث ابن المقفع على استشارة العقلاء والأخيار ومجالسة الثقات من الناس، لأنهم يخلصون النصيحة فيحمي الإنسان نفسه من السقوط في الزلل ، ويعاضد نفسه لبلوغ الخيرات وتحصيل الغايات وإدراك المنافع والفوائد، يقول (أي بني : يجب أن يكون

١- الأدب الكبير ، ص ١٣٨

٢- الأدب الوجيز ، ص٦٩/٧٠

٣-المرجع السابق ، ص ٤٢ .

٤- الأدب الكبير ، ص ١٤٢

٥-الأدب الوجيز، ص ٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حرصك وولعك مقصوراً على مخالطة ومجالسة الثقات ومن يعوّل عليهم الذين تكون قد اخترتهم من بين أمثالك وأقرانك ورغبت في صداقتهم وألفتهم ، وأن الجد والسعي في اكتساب الآداب ، فإن منفعتها لك شاملة وثمرة اقتنائها هانئة، وأن تعاشر وتجاور الإخوان الصالحين والأصدقاء الناصحين حتى تتحلى بمجالستهم ومؤانستهم)[١].

ويقول: (أي بني : يجب أن تلتزم استشارة أرباب الرأي والكياسة وأصحاب الفطنة والحصافة في ممارسة ومزاولة الأمر الذي يسنح ويعرض لك، أو في مغالبة العدو الذي تريدأن تظفربه بمقتضى الحزم وتستحوذ على عدّة الاستظهار والاستشهاد التي تكون فطنة لغلبتك وقوتك ، فإن كل من يأخذ بمشاورة العقلاء ويعتصم بنصيحة النصحاء في الأمور التي أراد إمضاءها وإتمامها ووضع قدم الإقدام في موضع الاهتمام بها يكون قد فرّ من السقط والغلط، ولجأ إلى حصن حصين وآوى الى ركن ركين)[٢].

وقد نستشير أصدقاءنا في أمر ما فيظهر خطأ آرائهم فيما بعد، وعلينا هنا ألا نتوجه إليهم باللوم والتقريع على ذلك، لأنهم إنما قدموا رأياً ولنا أن نتبعه أونتركه .. وهذا ينطبق علينا نحن أيضا إذا كنا نحن أصحاب النصيحة، ونصحنا برأي ما فلم يعمل الصديق به، لأنه تبين ضرره مثلاً، فيجب علينا ألاّ نلومه على عدم اتباع رأينا وهذا من الآداب الواجب الالتزام بها للحفاظ على ودّ الأصدقاء (اعلم أن المستشار ليس بكفيل ، وأن الرأي ليس بمضمون .. فإذا أشار عليك صاحبك برأي ثم لم تجد عاقبته على ما كنت تأمل فلا تجعل ذلك عليه ذنباً ، ولا تلزمه لوماً وعذلاً بأن تقول أنت فعلت هذابي ، وأنت أمرتني، ولولا أنت لم أفعل، ولا جرم لا أطيعك في شيء بعدها، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة . فإن كنت أنت المشير فعمل برأيك أو تركه ، فبدا صوابك فلا تمنن به ولا تكثرنّ ذكره إن كان فيه نجاح، ولا تلمه عليه إن كان قد استبان في تركه ضرر بأن تقول : ألم أقل لك افعل هذا ، فإن هذا مجانب لأدب الحكماء)[٣] .

وخير النصائح ما دفع عن المرء شراً يترقبه .. من هنا وجب قبول نصائح الأصدقاء والصبر على مخالفتها لما نهوى أحياناً لأن هذه النصيحة قد تعود علينا بالنفع والخير .

١- الأدب الوجيز ، ص ٨٧

٢- المرجع السابق ، ص٦٣

٣- الأدب الكبير ، ص١٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويحذر ابن المقفع أوّل ما يحذر منه مخالفة الأقران وعدم تقبل نصائحهم تكبّراً وعناداً، وذلك لأن هؤلاء سيجتمعون على مخالفة المرء وتتبع أقواله وعيوبه ومساوئه والطعن بها، ولهذا حتى يدرأ الإنسان نفسه من الوقوع في مثل هذا الموقف عليه أن يتحفظ فيما يصدر عنه من آراء وأقوال أمام أقرانه، وألا يعرّض نفسه للومهم ضجراً مما يلقونه عليه من نصائح يقول:(تحفظ في مجلسك وكلامك من التطاول على الأصحاب ، وطب نفساً عن كثير مما يعرض لك فيه صواب القول والرأي مداراة ، لئلا يظن أصحابك أن دأبك التطاول عليهم)(١).

ويقول (اتبع ملازمة الجماعة ولا تخالفهم ولا تعنهم ولا تحرّضهم على قصدك بأن تختار المجانبة وتعرض عنهم ، وتنقبض وتنفرد وتستبد بالقيام بأمر ما لأنك إذا سرت على هذا النمط تكون قد أقررت بعداوة الجماعة ، وإذا ظنّ بك الأقران العداوة جعلوك هدفاً لقصدهم واجتمعوا على معاندتك، وقاموا بمخالفتك)(٢).

بل إن ابن المقفع يريد منا قبول النصيحة حتى لو جاءت على صورة لوم أو تحذير ولهذا يقول :(اعتبر ملامة الناصحين لك غنيمة، وعدّ تحذيرهم إياك مما هو مخالف للحق ومباين للصواب خطأ جزيلاً ووعظاً مفيداً، ولا تستهن به ولا تدع للضجر وضيق الصدر والقلق والملل طريقاً إلى نفسك ، فادفع عن نفسك بمكروه حقير تحتمله اليوم مضرّة عظمى تحذرها وتتوقعها غداً)(٣).

وأرى أن دعوة ابن المقفع هذه تخفي وراءها محاولة لتحويل الإنسان إلى جبان لا يمتلك القدرة على البوح بآرائه وأفكاره ، لا لشيء سوى خوفه من مخالفة الجماعة له .

ويحارب ابن المقفع الحسد ويعد أصدقاء الخير خير معين ليدفع الإنسان الحسد عن نفسه، (فإن الحسد خلق لئيم ، ومن لؤمه أنّه موكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء والمعارف والخلطاء والإخوان)(٤) ويرشدنا ابن المقفع إلى نوع من الأصدقاء كفيل بحفظنا من الحسد فيقول (فليكن ما تعامل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين تكون مع من هو خير منك وأن غنماً حسناً لك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك في العلم فتقتبس من

١- الأدب الكبير ، ص ١٣٣، ١٣٤.

٣- الادب الوجيز ، ص٦٧ /٦٨

٣-المرجع السابق ،ص ٦٧

٤- الادب الكبير ، ص ١٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علمه وأفضل منك في القوة فيدفع عنك بقوته ، وأفضل منك في المال فتفيد من ماله ، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجاهه ،وأفضل منك في الدين فتزداد صلاحاً بصلاحه) (١) .

وأرى أن مصادقة من يفضلنا في المال والجاه والقوة والعلم بهدف حماية أنفسنا من الحسد هو النفاق بعينه، فلا مانع من مصادقة واسع العلم المتبحر في الدين للإفادة من علمه ودينه .. ولكن أن نضع نصب أعيننا عند التقرب لذوي المال والعلم والجاه ذلك الهدف ، فهذا يعني أن المرء لا يفكر في نوعية الأصدقاء ليعلم الأفضل منهم ، فجلّ تفكيره في تقديم منفعته ومصلحته الشخصية، ولهذا فإنه سيحاول التفكير بكل طريق مشروعة أو غير مشروعة للتقرب الى ذوي المال والعلم والجاه يقول ابن المقفع:(إذا أصاب أخاك فضل فإنه ليس في دنوك منه وابتغائك مودته ، وتواضعك له مذلة، فاغتنم ذلك واعمل به)(٢).

ومن الآداب الاجتماعية التي يدعو ابن المقفع إليها مشاركة الاصدقاء في المسرات والوقوف إلى جانبهم في المصائب ، ولكنه يعد مصيبة الصديق ابتلاء لصديقه، وذلك من جانبين فإذا شارك المرء صديقه بالحزن والعزاء فقد ابتلي معه بهذا الحزن ... وإذا لم يشاركه في ذلك لحقه الخزي والعار، قال ابن المقفع في الأدب الكبير (إذا نابت أخاك إحدى النوائب من زوال نعمة أو نزول بلية ، فاعلم أنك قد ابتليت معه إما بالمؤاساة فتشاركه في البلية، وإما بالخذلان فتحتمل العار)(٣).

وليست مشاركة الأصدقاء في الأفراح والأتراح كافية عند ابن المقفع للدلالة على فضل الصديق ، فالصديق الذي يعتدّ به وتلزمنا صداقته هو من يقيل عثرات الكرام إذا جار عليهم الدهر وخانتهم الأيام يقول(إعلم أن إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا ، هم زينة في الرخاء وعدة في الشدة ، ومعونة على خير المعاش والمعاد، فلا تفرّطن في اكتسابهم وابتغاء الوصلات والأسباب إليهم ، واعلم أنك واجد رغبتك من الإخاء عند أقوام قد حالت بينك وبينهم بعض الأبهة التي قد تعتري بعض أهل المروءات ، فتحجز عنهم كثيراً ممن يرغب في أمثالهم فإذا رأيت أحداً من أولئك قد عثر به الدهر فأقله)(٤).

١-الأدب الكبير ص ١٤٥

٢- المرجع السابق ، ص ١٤٠

٣- المرجع السابق ، ص ١٤٠

٤-المرجع السابق ، ص ١٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشهد التاريخ لابن المقفع إقالته عثرات الكرام وخير دليل على ذلك الرواية التي ذكرها ابن الجوزي في المنتظم حيث قال :(لما ولي ابن شبرمة القضاء كتب إليه اسماعيل ابن مسلم المكي :أنه قد أصابتني حاجة فكتب إليه : الحق بنانواسك ،فخرج اسماعيل، فلما قدم تلقاه ابن المقفع فقال : ما جاء بك بعد هذا السن ؟ قال: أصابتني حاجة فكتبت إلى ابن شبرمة، فكتب إليّ: الحق بنانواسك . قال : استخف والله بك لأنك من العجم ، ولو كنت من العرب لبعث إليك في مصرك ، تملك على نفسك ثلاثة أيام لا تأتيه ، قال: فانطلق بي إلى منزله ، فلما كان في اليوم الثالث أتاني بسبعة آلاف درهم تنقص دريهمات، وأتممها بخلخال ، وقال: خذها الآن إن شئت ، فأقم عندي ،وإن شئت فأته ، وإن شئت فارجع إلى مصرك ، قلت : لا والله لا آتيه ولا أقيم عندك ، ورجعت إلى بلدي) [١].

ويحث ابن المقفع على الاحتفاظ بالأصدقاء والأعوان، ويحذر من قطيعتهم ، فهم المعينون على المصائب ، والحافظون للأسرار والجالبون للسعادة والسرور ، حتى إن ابن المقفع يعدهم خير ما يرث الابن عن والده فيقول (أفضل ما يورث الآباء الأبناء الثناء الحسن، والأدب النافع، والإخوان الصالحون)[٢].

ويقول (ولا تعتدّ من الحياة ما كان من فراق الأحبة .... إذا فرق بين الأليف وأليفه فقد سلب قراره وحرم سروره)[٣].

ويقول (ليس من الدنيا سرور يعدل صحبة الإخوان، ولا فيها غمّ يعدل غمّ فقدهم)[٤] ولهذا فقد كان ابن المقفع دائم الرعاية لأصدقائه حتى إنه كان يجري على جماعة من أصدقائه ما بين الخمس مئة إلى الألفين في كل شهر[٥] ولكن لنعد قليلاً الى الوراء ، فابن المقفع يحثنا على عدم الاطمئنان السريع للآخرين لأن الإنسان فطر على

١- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، راجعه وصححه نعيم زرزور /ج٨ ، ط١ ،دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ١٩٩٢، ص ٥٤،٥٥.

٢- الأدب الصغير ، ص ٦٨

٣- المرجع السابق ، ص ٩١

٤- المرجع السابق ، ص ٨٩

٥- أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري ، الوزراء والكتاب تقديم حسن الزين ، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر بيروت لبنان ، ١٩٨٨، ص ٧٢/٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللؤم ، كما دعانا إلى ترك مصادقة الجاهل والسفيه والخائن ، وهنا يطالبنا أن نضع مبدأ (لا سبيل إلى قطيعة أخيك) نصب أعيننا مهما كانت خلال هذا الأخ ... لِمَ؟ حتى لا يلحقنا العار من قطيعتهم يقول ابن المقفع في أدبه الكبير (اجعل غاية تشبثك في مؤاخاة من تؤاخي ومواصلة من تواصل ، توطين نفسك على أنه لا سبيل لك إلى قطيعة أخيك ، وإن ظهر لك منه ما تكره فإنه ليس كالملوك تعتقه متى شئت، أو كالمرأة التي تطلقها إذا شئت ، ولكنه عرضك ومروءتك ، فإنما مروءة الرجل إخوانه وأخدانه، فإن عثر الناس على أنك قطعت رجلاً من إخوانك وإن كنت معذراً نزل ذلك عند أكثرهم بمنزلة الخيانة للإخاء والملال فيه، وإن أنت مع ذلك تصبّرت على مُقارّته على غير الرضى ، عاد ذلك إلى العيب والنقيصة فالاتئاد الاتئاد والتثبت التثبت)[١] .

ويصر ابن المقفع على الاحتفاظ بالأصدقاء كيف لا، وقد توخى الحيطة والحذرفي اختيارهم ولكن إذا شاءت الأقدار وكان هؤلاء أصدقاء سوء ،فينبغي الاحتفاظ بهم وعدم التخلي عنهم، وذلك لأن قطيعة هؤلاء مجلبة للضرر والعيب، ويعترف ابن المقفع بضرر أصدقاء السوء ، ولكنه يجد أن الاعتذار للقطيعة بسوء الأصدقاء يشين الإنسان في أعين الآخرين ، فيقول: (واعلم أن انقباضك عن الناس يكسبك العداوة، وأن انبساطك إليهم يكسبك صديق السوء ، وسوء الأصدقاء أضر من بغض الأعداء فإنك إن واصلت صديق السوء أعيتك جرائره، وإن قطعته شانك اسم القطيعة ، وألزمك ذلك من يرفع عيبك ، ولا ينشر عذرك فإن المعايب تنمي والمعاذير لا تنمي)[٢].

ولكن بمقارنة فكر ابن المقفع وسلوكه نجد تناقضاً كبيراً ففي حين يتحدث عن الصديق الصالح ، ويحث على ترك مصاحبة الشرير والمشنوع ، لأن القرين يوصف بقرينه نجد أصدقاءه متهمين في أخلاقهم وعقيدتهم، فالأصفهاني يورد ابن المقفع في أغانيه ضمن المتهمين في دينهم فيقول (كان مطيع بن إياس، ويحيى بن زياد الحارثي ، وابن المقفع، ووالبة بن الحباب يتنادمون ولا يفترقون،ولا يستأثر أحدهم على صاحبه بمال ولا ملك وكانوا جميعاً يرُمون بالزندقة)[٣] . ولكن لإنصاف ابن المقفع ينبغي الإشارة إلى احتمال أن يكون هؤلاء الذين ذكر ابن المقفع معهم ممن يجالسهم ابن المقفع ، ويشرب معهم

١- الأدب الكبير ، ص ١٣٧

٢- المرجع السابق ، ص١٣٨

٣- أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج١٣ ، ط١ مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠ ، ص٢٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتحدث إليهم ، ولكنه لا يتخذهم أصدقاء بمعنى الصداقة التي فصّل في الحديث عنها في رسائله.

لكن هذا التناقض لا يظهر بين قول ابن المقفع في أدبه الكبير(ابذل لصديقك دمك ومالك) [١] وبين سلوكه، فقد أجمعت المصادر على تمتع ابن المقفع بمكارم ا لأخلاق فعرف بجوده ، وتعففه ، ووفائه ، لأصدقائه ، وبذل دمه لهم ، وخير دليل على وفائه لأصدقائه فداؤه لعبد الحميد الكاتب عندما جاء العباسيون لأخذه وقتله،حيث كان ابن المقفع بصحبته ولّما سئل عن عبد الحميد قال كل منهما أنا،خوفاً على صاحبه[٢]. وان كانت هذه الرواية مشكوكاً في صحتها وذلك لسذاجة الحبكة الروائية فيها سيما حين انقسم الجنود المطالبون بعبد الحميد إلى قسمين قسم بقي لحراسة عبد الحميد وابن المقفع، وقسم ذهب ليتعرف علامات عبد الحميد !؟ ولأن عبد الحميد عرف أنه قتل في مصر وقيل في بوصير من بلادمصر مع مروان بن محمد لافي العراق [٣] .

اما وفاء ابن المقفع لأصدقائه مالياً فإن المصادر تجمع أيضاً على أنه أصاب ما لاً عندماكان يكتب لعمربن هبيرة في كرمان ، وأنه كان يُجْري على جماعة من أهل البصرة والكوفة ما بين الخمس مئة إلى الألفين في كل شهر، كما يرون قيامه بابتياع ضيعة مجاورة لضيعة صديقه عمارة بن حمزة الكاتب للحفاظ على ضيعة صديقه بثلاثين ألف درهم ، ولما شكا عمارة لابن المقفع حاله بعث إليه ثلاثين ألف أخرى[٤].

ويلخص ابن المقفع لنا كل الآداب التي دعانا إليها في حسن اختيار الصديق في تلك الرسالة التي يطلب فيها مؤاخاة يحيى بن زياد الحارثي ،حيث تُظْهِر هذه الرسالة مدى حرص ابن المقفع على اختيار أصدقائه وإخوانه، فهو كما أكّد لنا –في رسالته التي استعرضنا بعض ما جاء فيها عن الأصدقاء يحث على ضرورة تحري الدقة في اختيار الصديق صاحب مكارم الأخلاق، وابن المقفع وجد في يحيى بن زياد صفات تؤهله لأن

٤– الأدب الكبير ، ص١٣١

٢– جمال الدين بن نباته المصري ، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ،بيروت ١٩٨٦، ص ٢٣٩.

٣– أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس .ج٣ دار صادر بيروت ص ٢٢٩

٤– الجهشياري – الوزراء والكتاب ، ص ٧٢/٧١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يكون صديقاً وفياً، فهومن أهل الفضل والود وكرم الأخلاق ، بل إن ابن المقفع درس علاقة يحيى بأصدقائه فوجده أحسن معاملتهم حتى حرص الجميع على وده (وقد لزمت من الوفاء والكرم فيما بينك وبين الناس طريقة محمودة نسبت إلى مزيتها في الفضل ، وجمل بها ثناؤك في الذكر وشهد لك لسان الصدق ، فعرفت بمناقبها ووسمت بمحاسنها ، فأسرع إليك الإخوان برغبتهم مستبقين يبتدرون ودك ويصلون حبلك ابتدار أهل التنافس في حظ رغيب نصبت لهم غاية يجري إليها الطالبون ويفوز بها السابقون)[١]. ويتحدث ابن المقفع عن حسن أخلاق يحيى فهو لا يطلب وداً مقابلاً لهذا الود الذي يبذله للناس، وهذا يزيد من محبة الناس له ويزيدهم حرصاً على مؤاخاته (فلو كنت لا تؤاخي من الإخوان إلا من كافأ بودك ، وبلغ من الغايات حدك ما آخيت أحداً ولصرت من الإخوان صفراً ، ولكن إخوانك يقرون لك بالفضل ، وتقبل أنت ميسورهم من الود، ولا تجشمهم كلف مكافأتك ولا بلوغ فضلك فيما بينك وبينهم)[٢].

ولهذه الصفات يطلب ابن المقفع صراحة مؤاخاة يحيى فيقول : (وقد رأيت إذ كنت في الفضل والوفاء على ما وصفت منك، أن آخذ بنصيبي من ودك وأصل وثيقة حبلي بحبلك، فيجري بيننا من الإخاء أواصر الأسباب التي بها يستحكم الود ويدوم العهد ، وعلمت أن تركي ذلك غبن ، وإضاعتي إياه جهل ، لأن التارك للحظ داخل في الغبن والعائد عن الرشد مرجف إلى الغي ،فارغب من ودي فيما رغبت فيه من ودك ، فإني لم أدع شيئاً أستتلي به منك الرغبة وأجتر به منك المودة، إلا وقد امتدت إليك ذريعته وأعملت نحوك مطيته لترى حرصي على مودتك ورغبتي في مؤاخاتك)[٣] .

العدو:

يضع لنا ابن المقفع في رسائله أسس التعامل مع الأعداء ، وذلك ليكون الإنسان قادراً على حماية حقوقه، والحفاظ على نفسه سالماً من الأذى والعدوان، فمن الجيّد مثلاً أن يظهر الإنسان بمظهر القوة والجرأة وحسن التدبير أمام الناس كافة على وجه العموم، وأمام العدو خاصة حتى لاتتخذ نقاط ضعفه مدخلاً للجرأة عليه والطعن به، على أن لا

١- رسالة ابن المقفع إلى يحيى بن زياد في المؤاخاة ، رسائل البلغاء ، محمد كردعلي ، ط٣ ،ص١٤١.

٢- المرجع السابق ، ص ١٤٢

٣- المرجع السابق ، ص ١٤٢/ ١٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحمّل الانسان نفسه مالا تطيق قال ابن المقفع في أدبه الكبير (وإن أردت السلامة فأشعر قلبك الهيبة للأمور ومن غير أن تظهر منك الهيبة فتفطن الناس بنفسك، وتجرّئهم عليك ، وتدعو إليك منهم كل الذي تهاب ، فاشعب لمداراة ذلك من كتمان الهيبة وإظهار الجرأة والتهاون طائفة من رأيك . وإن ابتليت بمحاربة عدوك فخالف هذه الطريقة التي وصفت لك من استشعار الهيبة ، وإظهار الجرأة والتهاون ، وعليك بالحذر والجد في أمرك والجرأة في قلبك حتى تملأ قلبك جراءة، ويستفرغ عملك الحذر)[١].

وللظفربالعدو وتحقيق الفوز عليه على حين غرّة، يحثنا ابن المقفع على إضمار العداوة ليس للعدو فحسب بل للحاسد أيضاً ، وذلك حتى لا يتمكن العدو من إعداد عدّته وتدبر أمره .. وأعتقد أن دعوة ابن المقفع هذه تخبيء في طياتها دعوة للغدر والخداع فإضمار العداوة في القلب وإظهار الود لأي شخص سواء كان عدواً أو حاسداً نفاق ولؤم ، ولا يمت بصلة لما يحثنا عليه ديننا القويم من العفو عند المقدرة والتسامح مع الآخرين .قال ابن المقفع (ليكن مما تنظر فيه من أمر عدوك وحاسدك أن تعلم أنه لا ينفعك أن تخبر عدوك وحاسدك أنك له عدو فتنذره بنفسك، وتؤذنه بحربك قبل الإعداد والفرصة فتحمله على التسلّح لك وتوقد ناره عليك ، واعلم أنه أعظم لخطرك أن يرى عدوك أنك لا تتخذه عدواً فإن ذلك غرة له وسبيل لك إلى القدرة عليه فإن أنت قدرت واستطعت اغتفار العداوة عن أن تكافئ بها فهنالك استكملت عظيم الخطر)[٢].

ويكرر هذا القول في أدبه الوجيز حين يقول :(وراع مع عدوك في الخديعة والمكيدة القدر الذي تقتضيه الكياسة واجعل التفرغ والتواضع له عدّة للعداوة وسلاحاً للعناد ، والزم إظهار الرضا عنه ، واسلك طريق المجاملة وانتهز الفرصة فإذا ما وجدت الفرصة ووثقت من التمكن و الغلبة عليه فأعلن عندئذ المخاصمة وافش المكاشفة للظفربه،وتكون هناك فطنه للقدرة والبصيرة)[٣].

ويرى ابن المقفع ضرورةإضمار العداوة للأعداء بل والتقرب إليهم أيضاً وتحري أخبارهم ، وذلك لينال المرء حاجته منهم على أن يكون حذراً في ذلك لئلا يقوده هذا

١- الأدب الكبير ، ص١٤٧

٢- المرجع السابق، ص ١٤٥

٣- الأدب الوجيز ، ص ٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاقتراب إلى اجتراء عدوه عليه، وإذلاله وفقدانه لأنصاره وأعوانه ، الذين يعتبرونه مسانداً للأعداء فقال (قارب عدوك بعض المقاربة تنل حاجتك، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئ عليك عدوك، وتذلّ نفسك ويرغب عنك ناصرك ، ومثل ذلك مثل العود المنصوب في الشمس إن أملته قليلاً زاد ظلّه وإن جاوزته الحد في إمالته نقص الظل)[١].

وابن المقفع كتب للأمويين رغم حقده عليهم، وتقرّب إلى ولاة الدولة العباسية، وكتب لهم رغم بغضه للعباسيين ولدولتهم، التي حلت محل الدولة العلوية الأحق بالخلافة في نظره، ولكنه أخطأ حين زاد تقربه منهم، فابتعد عن الغاية المرجوة من تقربه هذا، وهو تحقيق مطامعه الشخصية في الوصول إلى الوزارة فما كان منه، وفي أول فرصة سنحت له إلاأن عبرّ عن مكنون قلبه ، فتشدد في كتابة عهد الأمان لعبد الله بن علي عم المنصور فكانت النتيجة قتله على يد سفيان بن معاوية والي البصرة.

ويسمح ابن المقفع للأصدقاء الثقات التقرب للعدو، ومجالسته لاكتشاف مواطن ضعفه من ناحية، ولستر مواطن ضعف صديقهم من ناحية ثانية فيقول:(إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يبغضنّك ذلك فإنما هو أحد رجلين :إن كان رجلاً من إخوان الثقة فأنفع مواطنه لك أقربها من عدوك لشرّ يكفه عنك ، أو لعورة يسترها منك أو غائبة يطّلع عليها لك . فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذوثقتك . وإن كان رجلاً من غير خاصة إخوانك فبأي حق تقطعه عن الناس وتكلفه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى[٢].

وأرى أن ابن المقفع يفترض هناسذاجة هذا العدو الذي سينخدع بنا أولاً وينتظرنا حتى نتحين فرصة الإيقاع به حين نرسل له الأصدقاء لحمل إخباره إلينا ..

بل إن ابن المقفع يريد التفريق بين العدو وأصدقائه، فما السبيل إلى ذلك ؟ بالتأكيد لن يتم هذا إلا بالكذب والنفاق والخديعة تلك الصفات التي ينهى ابن المقفع عن الاتصاف بها –وهل من سبيل آخر لبث أسباب الخصام بين العدو وأصحابه!؟؟

أنسي ابن المقفع كلامه عن حسن اختيار الأصدقاء والإخوان ؟ أم أنه يفترض في العدو وأصدقائه عدم القدرة على الاختيار الحسن للأصدقاء؟ وبالتالي فهم جهلة لا يدركون

١- الأدب الصغير ، ص٨٤

٢- الأدب الكبير ، ص ١٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما يجري حولهم من أمور. ثم لِمَ لا يفترض ابن المقفع تفكير العدو بما نفكر به نحن؟ أليس من الممكن أن يفكر العدو في بذر بذور الفرقة بينا وبين أصدقائنا ؟ أو يرسل إلينا أعوانه ليتتبعوا أخبارنا، وليرتدوا أما منا لباس الصداقة والود!؟

قال ابن المقفع (ومن الحيلة في أمرك مع عدوك أن تصادق أصدقاءه، وتؤاخي إخوانه فتدخل بينه وبينهم في سبيل الشقاق والتلاحي والتجافي ، حتى ينتهي ذلك بهم إلى القطيعة والعداوة له)[١].

ومن أفضل الطرق للتعامل مع العدو والظفر به إحصاء عيوبه وأخطائه وهفواته والإفضاء بها في الوقت المناسب لتكون سلاحاً قاتلاً للعدو، ومن غير المستحب إظهار هذه المثالب في أي وقت، لأن العدو قد يحاول تجنبها والابتعاد عنها حتى لو في الظاهر. لذلك فإن الأناة والتدبر والتفكير وتقليب الأمور في التعامل مع العدو خير من التسرع والعناد ، ويصور ابن المقفع من لا يحسن اختيار الوقت المناسب للإفضاء بمثالب عدوه كمن يجرّبَ نبله في الهواء قبل أن يحدد له الهدف ويصوب ناحيته ، يقول (لا تدع مع السكوت عن شتم عدوك إحصاء مثالبه ومعايبه واتباع عوراته حتى لا يشذ عنك من ذلك صغير ولا كبير من غير أن تشيع ذلك عليه فيتقيك به ويستعد له أو تذكره في غير موضعه فتكون كمستعرض الهواء بنبله قبل إمكان الرمي)[٢].

ويقول (صرعة اللين أشد استئصالاً من صرعة المكابرة)[٣] . وأكثر الأعداء خطراً على المرء أقاربه وأصحابه وذلك لأن ما يقوله الأصحاب كما يرى ابن المقفع أقرب إلى التصديق والقبول مما يقوله شخص آخر لقربهم واطلاعهم على أسراره يقول (عداوة الأقارب أضر من عداوة الأجانب ومضرتها أكثر، ونكاية عداوة الأحباب والأقارب ومعاداتهم أشدّ أثراً من عداوة غيرهم، وقول أصدقائك في حقك مصدق ومقبول إذ يراهم الناس واقفين ومطلعين على أسرارك وأفكارك ، وظاهر وخفي أعمالك وأحوالك ، وخير وشر مصالحك ومهما تك ، وبعيدين عن الغرض في شأنك ، فاعتبر عداوة الصديق

١- الأدب الكبير ، ص ١٤٦

٢- المرجع السابق ص ١٤٦

٣- لادب الصغير ، ص ٨٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأهل بحكم هذه القضية كسطوة السبع الضارى)[١].

ويأتي ابن المقفع بأمثلة تدعم قوله أرى أنها إن كانت من أقواله – دعوة لبث بذور الفرقة والخلاف بين الناس خاصة بين من تربطهم الأواصر والصلات ، وهذا بالطبع يتنافى مع ماحث عليه ديننا الحنيف من حرص على الأخوة ،وصلة الرحم، وتصافي القلوب وتراحمها، فيقول مثلاً(ومن مشهور الأقوال والأمثال : الاب ربّ ، والعم غمّ، والخال وبال ، والأخ فخ ، والولد كمد ، والأقارب عقارب ، وأقرب الأقارب أخبث العقارب)[٢].

١-الادب الوجيز ، ص ٥٣

٢- المرجع السابق، ص ٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العلم والعمل :

يخاطب ابن المقفع الناس من حيث يستجيبون له، وأعتقد أنه نجح في ذلك ، وهذا يظهر في حديثه عن حاجات الناس وغاياتهم ، فمن الطبيعي كما يرى ابن المقفع أن يكون للإنسان حاجة وهدف يسعى إليه ويقصده ، ولا بد أن يسلك لتحقيق هذا الهدف طرقاً وسبلاً عدّة . تهّيء له الوصول اليه ، والله وحده هو الذي يحدد الميقات الملائم لقضاء هذه الحاجات والأهداف.

ويحاول ابن المقفع أن يرشد الناس إلى السبيل الذي يحقق الغاية الكبرى والمطمح الأعظم في نفس كل إنسان ،ألا وهو صلاح دنياه وآخرته ... وبالتالي تحقيق كل غاياته وأمانيه ، وهذا السبيل هو العقل الذي يعد القادر الوحيد على اكتساب العلوم والمعارف التي تسهّل تحقيق الغايات . فيقول في مقدمة أدبه الصغير (أمابعد، فإن لكل مخلوق حاجة ولكل حاجة غاية ، ولكل غاية سبيلا ، والله وقّت الأمور أقدارها ، وهيّأ إلى الغايات سبلها وسبب الحاجات ببلاغها . فغاية الناس وحاجتهم صلاح المعاش والمعاد ، والسبيل الى دركها العقل الصحيح ، وأمارة صحة العقل اختيار الأمور بالبصر وتنفيذ البصر بالعزم)[١].

إذاً إن الإقبال على اكتساب العلوم والمعارف هو طريق الوصول إلى الغايات (فالعلم زين لصاحبه في الرخاء ، ومنجاة له في الشدة)[٢] . ولهذا نجد ابن المقفع يحث على طلب العلم ويعده مصدراً للتميّز والظهور من ناحية ، ومصدراً للعيش واكتساب الرزق من ناحية ثانية. كما أن طلب العلم يرقى بالإنسان وينزله منزلة التكريم والإعجاب من الناس ، يقول ابن المقفع:(اطلبوا العلم فإن كنتم ملوكاً برزتم وإن كنتم سوقة عشتم ، وقال أيضا:(إذا أكرمك الناس بمال أو سلطان فلا يعجبك ذلك فإن زوال الكرامة بزوالها ، ولكن ليعجبك إذا أكرموك لعلم أو لدين)[٣] .

بل إنه يحثّ على طلب الآداب واكتسابها منذ الصغر . وبذل المجهود اللازم لذلك

١- الأدب الصغير ، ص٤٣

٢- الأدب الصغير ،ص٦٩

٣- أبو عمر يوسف بن عبد ألبر النمري القرطبي، جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله ، باب جامع في فضل العلم ، تقديم عبد الكريم الخطيب ط٢، دار الكتب الاسلامية القاهرة . ١٩٨٢ ، ص١٠٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتحمل كل عناء حتى تصبح للمرء شخصية مهيبة ومأمولة بين الناس والأقران . فيقول (أي بني : إذا أوجبت على نفسك في صغر السن وعنفوان الصبا كسب الآداب ، وقمت بتعلمها فإنك عندما تكبر تصل إليك نتيجتها المحبوبة وثمرتها المطلوبة وتنتفع بها ، وكل من تأخذ بأذياله فكرة اكتساب الآداب ، فلا بد من أن يبذل العناية في طلبها ويحتمل العناء .. فاغتنم الأدب واعتبر الحرص على اكتسابه حظاً وافراً ونصيباً كاملاً من سعادة البخت ومساعدة الأيام .. حتى تكون في الخوف والرجاء مهيباً ومأمولاً بين الأقران فيحسبون حسابك ويتوقع الخوَّل والتُّبع نفعك ويؤملون في أيامك)[١].

ولا يكتفي ابن المقفع بالحث على طلب العلم بل إنه يعتبر الإنسان بلا علم كأرض خصبة مهملة يقول (فكما أن الحبة المدفونة في الأرض لا تقدر أن تخلع يبسها وتظهر وتطلع فوق الأرض بزهرتها وريعها ونضرتها ونمائها إلا بمعونة الماء الذي يغور إليها في مستودعها فيذهب عنها أذى اليبس والموت، ويحدث لها بإذن الله القوة والحياة فكذلك سليقة العقل مكنونة في مغرزها من القلب : لا قوة لها ولاحياة بها ولا منفعة عندها حتى يعتملها الأدب الذي هو ثمارها وحياتها ولقاحها)[٢].

وفي حث ابن المقفع على طلب العلم يشيد بالعلم والعلماء ويدعو المتعلم لتقبل كل مايتعلمه حتى لا يذهب جهده وعمله هباء منثوراً فيقول (من أبواب التوفق والتوفيق في التعلم أن يكون وجه الرجل الذي يتوجّه فيه من العلم والأدب فيما يوافق طاعة ،ويكون له عنده محمل وقبول ، فلا يذهب عناؤه في غير غناء ولا تفنى أيامه في غير درك، ولا يستفرغ نصيبه فيما لا ينجع فيه ، ولا يكون كرجل أراد أن يعمر أرضاً تُهْمة فغرسها جوزاً ولوزاً،وأرضاً جُلّساً فغرسها نخلاً وموزاً)[٣].

وعلى العالم أن يُحسن التعامل مع من حوله فيفيد الناس مما يعلم دون أن يزهو بنفسه عليهم، ويورث علمه لأهله ومعارفه لينال الأجر بعد موته (أفضل ما يعلم به علم ذي العلم وصلاح ذي الصلاح أن يستصلح بما أوتي من ذلك ما استطاع من الناس ويرغبهم فيما رغب فيه لنفسه من حب الله وحب حكمته والعمل بطاعته)[٤] وعليه أن يطلع ذوي الألباب

١- الأدب الوجيز ، ص ٤٠/٤١

٢- الأدب الصغير ، ص ٤٣/ ٤٤

٣-المرجع السابق ، ص٦٩

٤- المرجع السابق ، ص ٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على آرائه ، و يتحرى موافقتهم على الصائب منها، و هذا لايكون إلا إذاكان العالم بصيراً بزمانه، وبالناس الذين يعيشون فيه، وعندها يستطيع الحكم بين الناس بالعدل وإرشاد من يطلب المساعدة ، واستكمال علمه بالأشياء (لا ينبغي للمرء أن يعتد بعلمه ورأيه مالم يذاكره ذوو الألباب ، ولم يجامعوه عليه ، فإنه لا يستكمل علم الأشياء بالعقل المفرد)[١] وعندها فقط يستطيع العالم الإقرار بعدم علمه مالايعلم (ومن العلم أن تعلم أنك لا تعلم بما لاتعلم)[٢].

ولكن يحذر ابن المقفع صاحب الخبرة والعلم والتجربة من إطلاع جميع الناس على علمه ومعرفته، وذلك حتى يبقى مطلوباً من الناس، ومتبوعاً على الدوام يقول (أي بني: إذا كان لك ذخيرة من رأي، وحيلة من علم طلبتهما بذات نفسك عن طريق التجارب والمكايدة، واشتهرت واتصفت بهاتين الفضيلتين ، فينبغي أن لا تطلع عليهما كل إنسان، وتحتفظ بخاصة نفسك وتدّخرها بالقدر الذي إذا مابعدت ذات يوم عن الأعوان والأقران والأكفاء والنظراء في ملمات الحوادث، ومهمات المصالح ، ومستحدث الأيام ،واحتجت إليه، كان لك ذخيرة ورأس مال فيتسنى لامرئ أن يرغب فيك، للإفادة منه وتكون بذلك بين الناس مطلوباً ومتبوعاً على الدوام ،وهذه سيرة أرباب العقول ، وعادة أهل الأدب)[٣] .

وكالعادة نجد تناقضاً في بعض آراء ابن المقفع فمثلاً نجده يحث على العلم والسعي لطلب العلم في بعض المواضع كقوله (اغتنم من الخير ما تعجّلت، ومن الأهواء ما سوّفت ، ومن النّصب ما عاد عليك ، ولا تفرح بالبطالة، ولا تجبن عن العمل)[٤] ونجده في مواضع أخرى يدعو إلى الخنوع والتخاذل والكسل حين يرى أن السعي والعمل والطموح يورث الإنسان المشقة والنصب فيقول (اقتصار السعي إبقاء للجمام ، وفي بعد الهمة يكون النصب)[٥] هل هذه هي النتيجة التي وصل إليها ابن المقفع بعد النصب الذي لحق به لقاء فشله في تحقيق طموحه بالحصول على الوزارة !؟

بل إن هذا التضاد في آرائه يظهر أكثر حين أكدّ على ضرورة الاهتمام بكل صغير

١- الأدب الصغير . ص ٧٣

٢- المرجع السابق ، ص٧٣

٣- الأدب الوجيز . ص ٥١

٤- الأدب الصغير . ص٧٩

٥-المرجع السابق ، ص ٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتافه من الأعمال مما يساعد في تحقيق آمالنا لأن إغفال الأمور الصغيرة والأخطاء اليسيرة في الرأي والعلم قد يجعلها إذا اجتمعت تغدو كبيرة ، وإذا بها تودي بنا إلى العجز والضياع (فعلى العاقل أن لا يستصغر شيئاً من الخطأ في الرأي، والزلل في العلم ، والإغفال في الأمور، فإنه من استصغر الصغير، أوشك أن يجمع إليهاصغيراً وصغيراً ، فإذا الصغير كبير، وإنما هي ثلم يثلمها العجز والتضييع ، فإذا لم تسدّ أوشكت أن تتفجر بما لا يطاق ، ولم نر شيئاً قط إلا أتى من قبل الصغير المتهاون به ، قد رأينا الملك تؤتى من العدو المحتقر به، ورأينا الصحة تؤتى من الداء الذي لايحُفل به ، ورأينا الأنهار ، تنبثق من الجدول الذي يستخف به)[1].

ولكننا نجده في موضع آخر يدعو الإنسان إلى نسيان ما فاته من الأمور حتى وإن بذل جهداً عظيماً محاولاً الوصول إليها، فعليه إقناع نفسه أنه لم يفكر بهذا الأمر أصلاً ، وأن ينسى كل النصب والمشقة التي بذلها لتحقيق ما حلم به ، بل وأن يقبل على الدينا بوجه متفائل لا يترك حظاً له من أي سرور (على العاقل أن لا يحزن على شيء فاته من الدنيا أو تولّى)[2]ويقول (أي بني: لا تتحسر على ما يفوتك ولا تدع للغم والأسى طريقاً إلى نفسك ، فتحرم من نظر الثواب وتقصر يد إدراكك عن أذيال المطلوب والمقصود)[3]

وأرى أن في هذا القول دعوة للتقاعس والتخاذل ، فالإنسان عليه أن يسعى دائماً في حياته، وأن تشكل الأهداف التي لم ينجح في تحقيقها دافعاً قوياً لتحقيق الأفضل ، لا أن ينسى أهدافه، و يقبل على الحياة ، وكأن شيئاً لم يكن .

فكيف يريد ابن المقفع أن يحقق إصلاحاً للمجتمع، وهو يدعو أفراده إلى نسيان ما فاتهم من الأمور؟ حتى أنه لا يعوّل في علاجه لهذه القضية على الدين شيئاً، فلا يعتبر حرمان الإنسان مثلاً من النعمة التي أصاب قضاء وقدراً أوامتحاناً من الله . كما أنه لا يقيم وزناً للجوء إلى الله إذا ما أصابت الإنسانَ مصيبةٌ ... فقط عليه أن ينسى ويقبل على السرور.

ثم يقدم لنا ابن المقفع خير وسيلة لإنجاز الأعمال، والوصول إلى الحاجات والغايات .

١- الأدب الصغير ، ص ٥٧

٢- المرجع السابق ، ص٥٥.

٣- الأدب الوجيز ، ص ٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حين يرشدنا إلى تقسيم أوقاتنا واستغلال الفرص المتاحة حتى لو تعددت المنافع العائدة منها، المهم ألا نخسر شيئاً منها فإن لم يستطع المرء الحفاظ عليها جميعاً عليه الاختيار والتشبث بالأفضل يقول ابن المقفع (ومن أحسن ذوي العقول عقلاً من أحسن تقدير أمر معاشه ومعاده تقديراً لا يفسد عليه واحداً منهما نفاذ الآخر ، فإن أعياه ذلك رفض الأذى وآثر عليه الأعظم)[١] .ويريد ابن المقفع تقسيم المرء لأوقاته حتى يفي بكل ما تتطلبه حياته من واجبات دينية، وأخرى دنيوية، وحاجات نفسية ، فإذا ما قسّم وقته بين هذه الأمور أنجز جميع أعماله في أوقاتها دون إبطاء أو تأجيل، ووصل إلى غاياته التي يسعى إليها .

وعن مضار تأجيل الأعمال وعدم أدائها في وقتها قال ابن المقفع (إذا تراكمت عليك الأعمال فلا تلتمس الروّح في مدافعتها بالروغان منها ، فإنه لاراحة لك إلا في إصدارها ، وإن الصبر عليها هو الذي يخففها عنك والضجر هو الذي يراكمها عليك .... فإذا ورد عليك مثل ذلك فليكن معك رأيك وعقلك اللذان بهما تختار الأمور ، ثم اختر أولى الأمرين بشغلك فاشتغل به حتى تفرغ منه، ولا يعظمن عليك فوت ما فات وتأخير ما تأخر إذا أعملت الرأي معمله وجعلت شغلك في حقه ، واجعل لنفسك في كل شغل غاية ترجو القوة والتمام عليها)[٢].

ولضمان راحة المرء وقيامه بكل الأعباء الموكولة إليه دنيوية ودينية، عليه أن يحدد لك أمر وقته، ويرشدنا ابن المقفع إلى ذلك حين قال (وعلى العاقل مالم يكن مغلوباً على نفسه أن لا يشغله شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه في أمره ، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل ، فإن هذه الساعة عون على الساعات الأخر، وإن استجمام القلوب وتوديعها زيادة قوة لها و فضل بُلغة)[٣] ، وحين قال في أدبه الوجيزأيضاً (أي بني : عين من أوقات عمرك أوقاتاً موقوتة وساعات لإحراز ذخيرة الآخرة وإكثار رأس مال السعادة ، وإصلاح ما يكون مقصدك ومقصودك ،وميعادك وموعودك، من أمر المعاد الذي لا بد لأمثالك من بلوغه، ولا معدى عن وصوله حتى تحصل حظك ونصيبك

١- الأدب الصغير ، ص ٧٤

٢- الأدب الكبير ، ص ١٥٢/١٥٣

٣- الأدب الصغير ، ص ٥٥/٥٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من زاد المعاد وسعادة الآخرة،وتبلغ من ذلك حاجتك فتصل بذلك إلى الحاجات والمصالح الدنيوية وإصلاح أمور المعاش وتداركها كما هو نص الكتاب المنزل « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك »)[١].

ويلاحظ هنا تأثر ابن المقفع بتراثه الفارسي في حديثه عن استغلال الوقت، والإقبال على العمل فقد ورد في عهد أردشير:- (واعلموا أنّ بدء ذهاب الدول من قبل إهمال الرعيّة بغير أشغال معروفة، ولا أعمال معلومة، فإذا فشى الفراغ في الناس تولّد فيه النظر في الأمور، والفكر في الأصول)[٢].

كما ورد في رسالة تنسر التي ترجمها ابن المقفع نفس المعنى حين قال (وذلك حتى يعمل أهل المملكة جميعاً كلٌ في عمله ، فإن الحكماء الأقدمين قالوا :« القلب الفارغ يبحث عن السوء ،واليد الفارغة تنزع إلى الإثم ») [٣] .

وكذلك في حديثه عن تقسيم الوقت للوفاء بالمهام المطلوبة ورد في عهد أردشير أيضاً (واعلموا أن الملك منكم ستعرض له شهوات في غير ساعاتها ، والملك إذا قدّر ساعة العمل ، وساعة الفراغ ، وساعة المطعم ،وساعة المشرب ، وساعة الفضيلة ، وساعة اللهو ،كان جديراً ألا يعرف منه الاستقدام بالأمور ولا الاستيخار عن ساعاتها، فإن اختلاف ذلك يورث مضرّتين : إحداهما السخف وهي أشدُّ الأمرين، والأخرى نقص الجسد بنقص أقواته وحركاته)[٤].

إصلاح النفس:

ينيرلنا ابن المقفع درب إصلاح النفس ، والترفع بها عن العيوب والمثالب . وذلك حين يحاسب الإنسان نفسه على كل عمل يقوم به وأن يقوم بتهذيب نفسه ، ومخاصمتها والحكم عليها (فعلى العاقل مخاصمة نفسه ومحاسبتها والقضاء عليها ، والإنابة والتنكيل بها)[٥] كما قال ابن المقفع بل إن هذه المحاسبة ينبغي أن تكون مستمرة لا تتوقف أبداً حتى لا يفرط الإنسان في حق نفسه عليه (فيتنبه لهذه المحاسبة عند الحول إذا حال ، والشهر إذا

١- الأدب الوجيز ، ص ٤٤

٢- عهد أردشير - تجارب الأمم ، ص ٦١

٣- رسالة تنسر ، ص ٣٧

٤- عهد أردشير - تجارب الأمم ، ص ٦٧

٥- الأدب الصغير ، ص ٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انقضى ، واليوم إذا ولّى فينظر فيما أفنى من ذلك وماكسب لنفسه وما اكتسب في أمر الدين وأمر الدنيا فيجمع ذلك في كتاب فيه إحصاء وجدّ وتذكير للأمور وتبكيت للنفس وتذليل لها حتى تعترف وتذعن)[١] . وعلى الانسان أن يحصى مساوئه ومعايبه تمهيداً لإصلاحها ليكون علاج العلة ناجعاً يقول ابن المقفع : (وعلى العاقل أن يحصي على نفسه مساويها في الدين ، وفي الأخلاق، وفي الآداب فيجمع ذلك كله في صدره أوفي كتاب ثم يكثر عرضه على نفسه ويكلفها إصلاحه،وتوظف ذلك عليها توظيفاً من إصلاح الخَلّةوالخلّتين والخلال في اليوم أو الجمعة أو الشهر ، فكلّما أصلح شيئاً محاه، وكلما نظر إلى محو استبشر وكلما نظر إلى ثابت اكتأب [٢] بل إن ابن المقفع يجعل من إحصاء المساوئ وإصلاحها وسيلة للحماية من العدو والانتصار عليه يقول (ومن أقوى القوة لك على عدوك، وأعز أنصارك في الغلبة له، أن تحصي على نفسك العيوب والعورات كما تحصيها على عدوك. وتنظر عند كل عيب تراه أوتسمعه لأحد من الناس: هل قارفت ذلك العيب أو ما شاكله أو سلمت منه، فإن كنت قارفت شيئاً منه جعلته مما تحصي على نفسك حتى إذا أحصيت ذلك كله، فكاثر عدوك بإصلاح نفسك وعثراتك وتحصين عوراتك وإحراز مقاتلك، وخذ نفسك بذلك ممسياً ومصبحاً) [٣] .

ويبالغ ابن المقفع في التأكيد على إدراك العيوب والعورات حتى إنه يحذر من التعرض لمن يمتلك العيوب ذاتها، لأن في التعرض لهم تنبيهاً إلى عيوب المرء وعوراته، بل إنه يحذر من الدفاع عن عيوب الآخرين فيظن الناس أنك تمتلك هذه العيوب يقول (اعرف عوراتك وإياك أن تعرّض بأحد في ماضارعها. وإذا ذُكِرَت من أحد خليقة، فلا تناضل عنه مناضلة المدافع عن نفسه المصغر لما يعيب الناس منه فتتهم بمثلها ، ولا تلحّ كل الإلحاح وليكن ما كان منك في غير اختلاط ، فإن الاختلاط من محققات الرّيب)[٤].

ولإصلاح النفس علينا النظر في محاسن الآخرين والاقتداء بها لنصلح عيب أنفسنا

١- الأدب الصغير : ص ٥٢

٢- المرجع السابق ، ص ٥٤

٣- الأدب الكبير ص ١٤٧/١٤٨/

٤-المرجع السابق ص ١٦١/١٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونقلع عن مثالبنا (فعلى العاقل أن يتخذ مرآتين فينظر من إحداهما في مساوئ نفسه فيتصاغر بها ويصلح ما استطاع منها ، وينظر في الأخرى في محاسن الناس فيحليهم بها ويأخذما استطاع منها) (١). بل إن (من أشد عيوب الإنسان خفاء عيوبه عليه فإن من خفي عليه عيبه خفيت عليه محاسن غيره ومن خفي عليه عيب نفسه ومحاسن غيره، فلن يقلع عن عيبه الذي لا يعرف ، ولن ينال محاسن غيره التي لا يبصر أبداً)(٢).

وقدبين لنا ابن المقفع سابقاً ضرورة مؤاخاة ومصاحبة أهل العلم والدين والأخلاق، وتعهّد محاسنهم والاقتداء بهم .... فإن لم يكونوا من أهل العلم والدين والأخلاق فليكونوا على أقل تقدير من المؤيدين والموافقين لخصال البر ، لأن في تأييد خصال الخير والصلاح والصدق تثبيتاً لها في نفس كل إنسان .

وإذا ما قدّر الإنسان حق نفسه، وحاسبها ، وعرف عيوبها ، وعرف محاسن الآخرين فإنه سيقيس الناس بنفسه ، ولن يحرّم عليهم ما يحلله لنفسه فعليك كما يقول ابن المقفع: (أن تقيس الناس بنفسك فلا تأتي إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك)(٣).

الرأي والهوى:

يكثر ابن المقفع في رسائله من الحديث عن الرأي والهوى ، ويضعهما في ميزان محاولاً دائماً ترجيح كفة الرأي على الهوى، لأن اتباع الهوى يوقع الإنسان بمزالق يحميه منها رأيه إذا غلبه ويعود عليه بالخير والنفع . فيقول (إذا بدهك أمران لا تدري أيهماصواب فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه ، فإن أكثر الصواب في خلاف الهوى)(٤) ويقول (وعلى العاقل أن يعرف أن الرأي والهوى متعاديان وأن من شأن الناس تسويف الرأي وإسعاف الهوى، فيخالف ذلك ويلتمس أن لا يزال هواه مسوَّفاً ورأيه مسعفاً ، وعلى العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدر في أيهما الصواب ان ينظر أهواهما عنده فيحذره)(٥).

ويحث ابن المقفع على الإسراع في عمل الخير وأدائه قبل أن يقود الهوى إلى التردد

١- الأدب الصغير ، ص ٧٦.

٢- المرجع السابق ، ص ٨٢

٣- المرجع السابق ، ص ٧٣

٤- الأدب الكبير ، ص ١٥٨

٥- الادب الصغير ، ص ٥٧/٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتأخير ، حتى وإن كان ما يقدم عليه المرء شر، عليه ألا يتبع ما يمليه عليه هواه، وليتخذ من تأجيل الأمر وتأخيره وسيلة لإبعاد هواه عن تفكيره علّه يحقق غنماً من ذلك يقول ابن المقفع (إذا هممت بخير فبادر هواك لا يغلبك ، وإذا هممت بشرٍّ فسوّف هواك لعلك تظفر ، فإن ما مضى من الأيام والساعات على ذلك هو الغُنْم)(١).

ويقول :(وإذا شرعت في خير وعزمت عليه استبقه، وعجل به، وعدّ إتمامه غنيمة، وبادر هواك لكيلا يمنعك ويردعك عن ذلك الخير، وإذا ما أقدمت على شرّ بداعي الضرورة فالتزم في ذلك التأني والتثبت قدر الإمكان ، واحتل على هوى نفسك وغالبه، واجتهد في تسكين فورتها وكسر سورتها)(٢). ويقول (اغتنم من الخير ما تعجّلت، ومن الأهواء ما سوّفت)(٣) ولعل ابن المقفع في حديثه عن الرأي والهوى تأثر بما جاء في عهد أردشير حيث ورد فيه (أسعدوا الرأي على الهوى فإن ذلك تمليك للرأي، واعلموا أن من شأن الرأي الاستحذاء للهوى إذا جرى الهوى على عادته . وقد عرفنا رجالاً كان الرجل منهم يؤنس من قوة طباعه ونبالة رأيه ما تُريه نفسه أنه على إزاحة الهوى عنه وإن جرى على عادته ومعاودته الرأي ، وإن طال به عهده قادرٌ لثقة يجدها بقوة الرأي ، فإذا تمكن الهوى منه فسخ عزم رأيه حتى يسميه كثير من الناس ناقصاً في العقل، فأما البصراء فيستبينون من عقله عند غلبه الهوى عليه ما يستبان من الأرض الطيبة الموات)(٤).

المال :

يرسم لنا ابن المقفع في رسائله فلسفة ماليّة يدعو فيها إلى حسن تصريف الأموال ، وإنفاقها بوعي دون إسراف أو تقتير ، كما ينبه إلى ترك التكبر والاختيال بالمال لأن (الدنيا متقلبة الأحوال، فقد يفيق كثير الأموال من نومه فإذا به مقتر معدم . كما يبين لنا ابن المقفع رأيه في المال وفي الفقر ، وينبه ابن المقفع أول ما ينبه إليه إلى ضرورة إشراك الآخرين في أموالنا فيقول (لا تعد غنياً من لم يشارك في ماله)(٥) ثم يوصي بالأصدقاء فهم الأولى بأن يكونوا أول المنتفعين بأموال المرء ولهذا يقول ابن المقفع:(إن كان لك مال ومدت لك أسباب

١- الأدب الصغير ،ص ٦٨/٦٩

٢- الأدب الوجيز ، ص ٨٧.

٣- الأدب الصغير ، ص ٧٩.

٤- عهد أردشير تجارب الامم ، ص ٦٦

٥- الادب الصغير ، ص ٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدنيا يدها فينبغي أن تفضل وتنعم على أصدقائك ومخلصيك وتسلك طريق العطاء والسخاء وتحسن وتبرّلمن يتوسلون ويتصلون بك)[١] وكما نعلم وكما ورد سابقاً طبّق ابن المقفع هذا مع أصدقائه عندما تمثل سياسة بذل الدم والمال للصديق.

ويرشد ابن المقفع الناس إلى عدم التكبر والجبروت والاستطالة إذا حظي الواحد منهم بالمال أو الجاه لما تجلبه هذه الأخلاق من العداوة والذم من الأصدقاء وغيرهم (إن حظيت بمحصول أسباب المسرات الدنيوية كالجاه والمال وأمثال تلك الأحوال والآمال، وبلغت في ذلك إلى مرتبة تصبح متبوعاً ومقدماً ورائداً لجماعة، ونيط وتعلق رجاء المحتاجين ، وأمل المنتجعين بمنافعك، ومآثرك ، فالتزم الاحتراز من التكبر والنخوة والجبروت والاستطالة ، فإن طراوة عملك تأخذ في التراجع بسبب العجب والتكبر والتطاول وينقص شأنك وتصبح مذموماً عند الأصدقاء وممقوتاً منهم . وألزم نفسك سلوك طريق الرأفة والشفقة مع مرؤوسيك ومحكوميك، وامنن عليهم ببذل المجاملة والمعدلة، وطلب السلامة والاستقامة)[٢].

ولِمَ يتكبر الإنسان ويتجبر بالمال وهو يعلم أن الدنيا دول، وأن هذا الغنى ويسر الحال قد لا يدوم له (الدنيا دول فما كان لك منها أتاك على ضعفك، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك)[٣] ، ولهذا على الانسان أن لا يفرح إذا مدحه المنافقون لماله الذي يملك ، وعليه أن يتنبه أن المرء حقيق به أنه يكرم لدين أو لمروءة لأن الدين والمروءة لا يزولان بزوال الدنيا بل يحفظهما الله للإنسان في الآخرة. أما المال والسلطان وغيرهما من الأمور الدنيوية فإنها زائلة بزوال الدنيا لذلك (لا يعجبنك إكرام من يكرمك لمنزلة أو لسلطان فإن السلطان أوشك أمور الدنيا زوالاً، ولا يعجبنك إكرام من يكرمك للمال، فإنه هو الذي يتلو السلطان في سرعة الزوال، ولا يعجبنك إكرامهم إياك للنسب ، فإن الأنساب أقل مناقب الخير غناءً عن أهلها في الدين والدنيا ، ولكن إذا أكرمت على دين أو مروءة ، فذلك

١- الادب الوجيز ، ص ٤٦

٢- المرجع السابق . ٦٠

٣- الأدب الصغير ، ص ٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فليعجبك فإن المروءة لا تزايلك في الدنيا وإن الدين لا يزايلك في الآخرة)[١] ولا بد أن تعي (أن أعظم الناس في الدنيا خطراً أحوجهم إلى التقدير)[٢] ولهذا (لا تدع للبطر والعجب طريقاً إلى نفسك، ولا تنافر الأقران والأكفاء بالمال واليسار، الذي يصل إليك في عاجل الحال ولا تستطع لأمد طويل أن تأمن زواله وانتقاله وفناءه وانقضاءه ، ولا يجوز الاعتداء والاعتماد على بقائه وعونه، ولا يمكن الوثوق بدوامه)[٣].

فما المال إلاوسيلة لطلب الخيرات ورفع الحاجات ، فعلى الإنسان أن يحسن تصريفه بما يعود عليه بالفائدة والخير لذلك (ينبغي أن لا تبالغ في الإمساك، وأن لا تصل إلى حد البخل وتحاش الإسراف كذلك في العطاء، وعلى الجملة يجب أن تحترز من التقتير والتبذير في كلا الطرفين، حتى لا تبقى محروماً من ثمرة ثواب الدنيا ، ولا يبطل عملك ولا يضيع سعيك . والتزم في كل الأحوال طلب المزيد من الخيرات والمبرّات بأداء الشكر على كل ما ينالك وإذا ما تطرق إلى نفسك نخوة أو كبر، واستولى عليك شيطان الغرور ، وسلطان العجب فأوجب على نفسك رفع النخوة وإصلاح النفس بتذكر حالك في العالم وزواله، وانقلاب أحواله ، وقلّة وخسّة مقدار ما أصابك ، وقسم لك من الدنيا الفانية)[٤].

ويحدد لنا ابن المقفع رأيه الشخصي في المال، ويظهر من هذا الرأي حبّ ابن المقفع وولعه بالمال ، هذا الولع الذي لا تحده حدود يقول (ثلاث لا يشبع منهن: العافية، والحياة ، والمال)[٥] بل إن المال عنده مقدم على الإخوان والأولاد، وعلى العقل أيضاً ولعل المواقف التي أظهرت ابن المقفع يبذخ بأمواله، وينفقها هنا وهناك كانت مقصودة، فإنما أراد منها أن يحظى بالذكر الحسن بين الناس ، وينال مودتهم التي لا تنال وفق رأيه إلا بالمال حيث يقول: (ما التبع والأعوان والصديق والحشم إلا بالمال ولا يظهر المروءة إلا المال، ولا الرأي ولا القوة إلا بالمال ، ومن لا إخوان له فلا أهل له ، ومن لا أولاد له فلا ذكر له، ومن لا عقل له فلا دنيا ولا آخرة، ومن لا مال له فلا شيء له)[٦].

ولعل الخبر الذي أورده ابن قتيبه في عيون أخباره عن ابن المقفع حين كان محبوساً

١- الأدب الصغير ، ص ٨٠

٢- الأدب الكبير ، ص ١٥٦

٣- الأدب الوجيز ، ص ٧٦

٤- المرجع السابق ، ص٦١

٥- يتيمة السلطان ، رسائل البلغاء ، ص ١٤٨

٦- الأدب الصغير ، ص ٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في خراج كان عليه تدل على قناعة ابن المقفع بأهمية المال وبقدرة مالكه على السيطرة على الآخرين حتى ولوكان على خطأ ، قال ابن قتيبة : (كان ابن المقفع محبوساً في خراج كان عليه وكان يعذّب ، فلما طال ذلك وخشي على نفسه تعين من صاحب العذاب مئة ألف درهم فكان بعد ذلك يرفق به إبقاء على ماله)[١] [أم هو كما قال د. عمر فروخ (أستعذب مال الدولة كما استعذبه أبوه من قبل)[٢].

ولكن لنسأل أنفسنا هل كان حبس ابن المقفع لعدم دفعه الخراج لأنه عجز عن الدفع أم لعدم قناعته بالدفع ؟ فإن كان عاجزاً عن الدفع فكيف يأخذ من الرجل سلفة ربا بمئة ألف درهم ؟ وكيف تتفق هذه الرواية مع الروايات التي تروي إغداقه الأموال ليس على الأصدقاء فقط بل على جيرانه أيضاً فقد (بلغ ابن المقفع أن جاراً له يبيع داراً له لدين ركبه وكان يجلس في ظل داره فقال : ماقمت إذاً بحرمة ظل داره إن باعها معدماً، وبثّ واجداً فحمل إليه ثمن الدار وقال : لا تبع)[٣] بل إن ابن المقفع يناقض نفسه حين يرى أن (الرجل ذو المروءة قد يكرم على غير مال كالأسد الذي يهاب وإن كان عقيراً)[٤] فالمال إذن لا يظهر المروءة ، لأن المروءة تتحدث عن نفسها دون مال بدليل قوله هو أيضاً(الرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كثر ماله، كالكلب الذي يهون على الناس وإن هو طُوّق وخلخل)[٥]. ويظهر نضج آراء ابن المقفع فيما يتعلق بالمال في أدبه الوجيزحين يرى المال هبة من الله قد يستردها أنى يشاء قال(واعلم بأن كل مافي يدك عارية ، والعارية مستردة «وما المال الا عاريات ودائع» وإن الله قد يسترد منك هبة يكون قد أعطاكها ليجرب بذلك صبرك)[٦].

أما الفقر فهو عدو ابن المقفع اللدود لأن الناس لا يقدّرون الفقراء ولا يحترمونهم ، ويجعلون الفقير محلاً لسوء الظن دائماً ، ولا يتقبلون أفعاله ، ويكتفون بتتبع عيوبه غيرآبهين بمحاسنه، وينسبون إليه كل خطأ أو تهمة تعرض هنا أوهناك .

١- ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، المجلد الأول ، ص ٢٠١

٢- عمر فروخ ، عبد الله بن المقفع ، وكتاب كليلة ودمنة ط٢ ، منشورات مكتبة منيمنة ، بيروت ١٩٤٩ ، ص ٤

٣- ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج١، ص ٣٣٩

٤- الأدب الصغير ، ص ٨٩

٥- المرجع السابق ، ص ٩٠

٦- الأدب الوجيز للولد الصغير ، ص٤٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهم ينظرون إلى الفقراء بعين تختلف عن العين التي ينظرون بها إلى الأغنياء ويوضح لنا ابن المقفع ذلك حين يقول في الأدب الصغير (الفقر داعية إلى صاحبه مقت الناس، وهو مسلبة للعقل والمروءة ، ومذهبة للعلم والأدب ومعدن للتهمة ، ومجمعة للبلايا)(١).

ويفصّل القول في الفقر في يتيمة السلطان ففقر الإنسان يمنعه من بلوغ غاياته وأهدافه يقول (المروءة لا يظهرها إلا المال لأن الفقير إذا أراد أن يتناول الأمر قعد به الفقر عما تسمو إليه هّمته فانقطع عن بلوغ غايته)(٢) بل إن الفقر أساس كل البلايا التي تصيب الإنسان يقول ابن المقفع (لا شيء أشدّ من الفقر وهو رأس كل بلاء)(٣) ثم يصور لنا ابن المقفع في أدبه الصغير انقلاب المعايير،وتعثر الأحكام ضد الفقير فقال (فإذا افتقر الرجل اتهمه من كان له مؤتمناً، وأساء به الظن من كان يظن به حسناً ، فإذا أذنب غيره ظنوه وكان للتهمة وسوء الظن موضعاً،وليس من خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير عيب، فإن كان شجاعاً سمي أهوجاً، وإن كان جواداً سمي مفسداً، وإن كان حليماً سمي ضعيفاً ، وإن كان وقوراً سمي بليداً، وإن كان لسناً سمي مهذاراً ، وإن كان صموتاً سمي عيياً)(٤) وانقلاب المعايير عند الحكم على الفقراء بحيث يظهر الأبيض أسود مع الفقير، ويظهر الأسود أبيض مع الغني يؤكده ابن المقفع في ما قاله في أدبه الوجيز فقال (اعلم أن الفقير يتهمه الناصحون ، ويسوء به ظن الأصدقاء ولا يسترون ولا يخفون إثمه وجريمته، لأن الفقير محل التهمة وسوء الظن، والناس يسمون شجاعة الفقير حمقاً، ويحملون سخاوته على الإسراف ويخالون حلمه ضعفاً ، ويعدّون وقاره وثباته بلادة، ويدعون فصاحته وذلاقته هذراً وهذياناً، ويعتبرون قلة كلامه وصمته بكماً وعياً)(٥) ولذلك يدعو ابن المقفع الفقير إلى الصبر والتجلد ، وعدم إظهار حالة الضنك التي يعيشها أمام الناس، ليحمي نفسه من مذلة السؤال والتضرع والضعف والانكسار فليقنع بما كتبه الله له من رزق ، ويحمي شرفه وعرضه من العار (فعار الفقر أهون من عار الغنى ، والحاجة مع المحبة خير من الغنى مع

١- الأدب الصغير ، ص ٨٧-٨٨

٢- يتيمة اللسلطان ، رسائل البلغاء ، ص ١٥٩

٣- المرجع السابق ، ص ١٥٩

٤- الأدب الصغير ، ص ٨٨

٥- الأدب الوجيز ، ص ٩٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البغضة) [١] ولهذا (تجلد كذلك في الفقر وحالة الضنك بأن تلتزم صيانة نفسك من الخساسة والدناءة، وتنزه عرضك عن ذل السؤال واستماحة الأرذال ، واقنع بما قد رزقك الله تعالى لأن عيش السخط و اختيار مذلة التضرع والتخشع، وإظهار الضعف والانكسار في الفقر والفاقة تسقط شرف المرء وتذهب به، وتعود بخصوص الذكر وتوجب العجب والعار)[٢].

المرأة:

يقف ابن المقفع من المرأة موقفاً عدائياً فهو لا يثق بها ، ولا يراها تؤتمن على سر أو رأي، وهي عاشقة خائنة لاثبات لها ولا بقاء قال في الأدب الصغير عنها (وقيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء : ظل الغمام ، وخلة الأشرار ، وعشق النساء)[٣].

ويشن ابن المقفع حربه ضد النساء حين يعلن مضار الوقوع بغرام النساء فمن أراد الحفاظ على عقله ودينه وجسده ووقاره عليه الابتعاد عن الغرام بالنساء (إعلم أن من أوقع الأمور في الدين وأنهكها للجسد وأتلفها للمال وأقبلها للعقل ، وأزراها للمروءة ، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار ، الغرام بالنساء)[٤] فالمرأة إذن في نظر ابن المقفع شيطان مدمر لا يجلب سوى الخراب والدمار، وهمها الوحيد هو إشباع غرائزها ، لذلك على من يتزوجها كما يقول ابن المقفع في يتيمة السلطان (أن يتسع خلقه لمداراة الجهل) [٥] فالمرأة مغرمة بخداع الرجل، ولذلك يضعها ابن المقفع بمنزلة الأفاعي ، فيقول في يتيمة السلطان (منزلة النساء بمنزلة الأفاعي لا يؤمن شرها)[٦] . وكيف يؤمن شرها وهي لا تتوانى عن خداع الرجل فتتزين أمامه لتظهر غاية في الحسن والجمال ، فإذا ما انتزعت الوجوه المستعارة بدت قبيحة أشد القبح (وما يتزين في العيون والقلوب من فضل مجهولا تهن على معروفا تهن

١- الادب الصغير ، ص ٦٠

٢- الأدب الوجيز ، ص ٧٧

٣- الادب الصغير ، ص ٩٠

٤- الأدب الكبير ، ص ١٤٩

٥- يتيمة السلطان ، رسائل البلغاء ، ص ١٤٦

٦- المرجع السابق ، ص ١٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

باطل وخدعة ، بل كثير مما يرغب عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق إليه نفسه منهن)[١].

ولم يخدع الرجل بالمرأة أو يحاول التعرف إلى امرأة أخرى غير التي يعرف وهن متشابهات (ومن البلاء على المغرم بهن أنه لا ينفك يأجم ما عنده وتطمح عيناه إلى ماليس عنده منهن وأنما النساء أشباه) [٢] فلا يظن الرجل الذي رغب عن زوجته أنه سيجد امرأة أفضل منها، بل من الحمق أن يعتقد الرجل أن النساء متفاوتات تفضل إحداهن الأخريات. ويمعن ابن المقفع في إهانة المرأة عندما يصورها كالطعام فكما أن صنوف الأطعمة متشابهة فكذلك النساء لا تفاضل ولا تفاوت بينهن (وإنما المرتغب عما في رحله منهن الى مافي رحال الناس كالمرتغب عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناس، بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام وما في رحال الناس من الأطعمه أشدتفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم من النساء.

.....ومن العجب أن الرجل الذي لا بأس بلبّه ورأيه يرى المرأة من بعيد متلففة في ثيابها فيصور لها في قلبه الحسن والجمال حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر ، ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأدمّ الدمامة، فلا يعطه ذلك ولا يقطعه عن أمثالها و لا يزال مشغوفاً بما لم يذق حتى لو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأناً غير شأن ما ذاق. وهذا هو الحمق والشقاء والسفه)[٣] .

ويصور لنا ابن المقفع نوعاً آخر من النساء هو الأفضل في نظره، ويتمثل في المرأة المتزوجة أماً كانت أم زوجة، كما يضم إلى هذا النوع الأخوات والعمّات والخالات يظهر هذا في تهنئة لصديق له ولدت له ابنة فقال : (بارك الله لكم في الابنة المستفادة، وجعلها لكم زيناً وأجرى لكم بها خيراً فلا تكرهها فإنهن الأمهات والأخوات والعمّات والخالات ومنهن الباقيات الصالحات وربّ غلامٍ ساء أهله بعد مسرتهم ، وربّ جارية فرّحت أهلها بعد مساءتهم)[٤].

ويميز ابن المقفع المرأة المتزوجة الصالحة الطائعة لزوجها ويعتبرها عوناً على أمور الدنيا

١- الأدب الكبير ، ص ١٥٠

٢- المرجع السابق ، ص ١٤٩

٣- المرجع السابق ، ص ١٥٠

٤-رسالة لابن المقفع ، رسائل البلغاء ، ص١٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والآخرة بل إنها تعدل الدنيا وما فيها فقد قال في يتيمة السلطان (ستة أشياء تعدل الدنيا : الطعام المريء ، والسيد الرؤوف ، والولد البر ، والزوجة الموافقة ، والكلام المحكم ، وكمال العقل)[١].

العمل للآخرة :

يدعو ابن المقفع الإنسان إلى الاهتمام بالعمل للآخرة، لأن هذه الدنيا فانية زائلة ولينظر الإنسان إلى الأمم السابقة التي ملكت الجاه والسلطان وليعتبر، فمالهم وجاههم وسلطانهم انتقل إلى غيرهم ، ولم يبق لهم سوى أعمالهم ، فلتعلم أيها الإنسان أنك مهما تعش في هذه الدنيا، ومهما تمتلك من سلطانها ، فإن الموت آتٍ ، وفناء الدنيا واقع لا محالة ، ولاشك أن ذكر الموت يبعد الإنسان عن الطمع واتباع الأهواء والشهوات ،ويعصمه عن التكبر والتبطر، ويؤمن لنفسه الهدوء والاستقرار وبذلك يكون أقدر على التعامل مع من حوله من الناس ... فهو عندئذ يعمل الخير لأنه خير، لا لأنه يميل إليه، و يبتعد عن الشر، لأنه شر لا لأنه يكرهه ولذلك مهما ثقل الخير على نفسه فإنه يقبل عليه، لأنه ينظر إلى الثواب الأعظم في الآخرة ولا يغريه هوان الشر باتباعه، ولهذا يقول ابن المقفع في أدبه الصغير (ينبغي لك في حب ما تحب من الخير التحامل على ما يستثقل منه ، وينبغي لك في كراهة ما تكره من الشر التجنب لما تحب منه)[٢] ويقول (إن العاقل ينظر فيما يؤذيه وفيما يسره فيعلم أن أحق ذلك الطلب إن كان مما يحب ، وأحقه بالاتقاء إن كان مما يكره ، أطوله وأدومه وأبقاه ، فإذا هو قد أبصر فضل الآخرة على الدنيا ، وفضل سرور المروءة على لذة الهوى، وفضل الرأي الجامع الذي تصلح به الأنفس والأعقاب على حاضر الرأي الذي يستمتع به قليلاً ثم يضمحل وفضل الأكلات على الأكلة ، والساعات على الساعة)[٣] ويلاحظ هنا أن ابن المقفع لا يدعوإلى تفضيل العمل للآخرة على عمل الدنيا وحسب بل يريد التمييز بين أنواع اللذائذ عقلية كانت أم روحية .

وعلى الإنسان ألاّ ييأس إذا انتزعت الدنيا منه بعدما استمكن منها وصاحب العقل الراجح يحسن النظر في الأمور ويقلبها ويعرف ما وراءها من لواحق الشر فلا يشغل نفسه

١- يتيمة السلطان ، رسائل البلغاء ، ص ١٤٩

٢- الأدب الصغير ، ص ٦٤

٣- المرجع السابق ، ص ٥١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بزخرف الدنيا الزائل ، ويتقبل مرّ الدينا ليحظى بحلو الآخرة الذي يبقى ويدوم، ويقول ابن المقفع في زخرف الدنيا الزائل : (الدنيا زخرف يغلب الجوارح ما لم تغلبه الألباب، والحكيم من يغضي عنه ولم يشغل به قلبه . اطلعّ من أدناه فيما وراءه وذكر لواحق شره، فأكل مرّه وشرب كدره ليحلو له ويصفو في طولٍ من إقامة العيش الذي يبقى ويدوم غير عائف للرشد إن لم يلقه برضاه ، ولم يأته عن طريق هواه) (١) .

ويتحدث ابن المقفع عن الزهد في هذه الدنيا الزائلة، وينبه على أن الزهد الحقيقي لا يكون إذا ما ضاقت حال الإنسان في الدنيا بل عندما يشعر الإنسان أنه يملك الدينا ثم يرفضها زهداً فمن زهد لضيق الدنيا دفعه إلى الزهد غضبه وضجره من حاله، أما من رفضها وهو يملكها فقد دفعه إلى الزهد إيمانه أن هذه الدنيا زخرف زائل ولهذا . (إن رأيت نفسك تصاغرت إليها الدنيا أو دعتك إلى الزهادة فيها على حال تعذر من الدنيا عليك ، فلا يغرنك ذلك من نفسك على تلك الحال، فإنها ليست بزهادة . ولكنها ضجر واستخذاء وتغيّر نفس عندما أعجزك من الدنيا وغضب منك عليها مما التوى عليك منها ، ولكن إذا دعتك نفسك إلى رفض الدنيا وهي مقبلة عليك فأسرع إلى إجابتها)(٢) .

ويتحدث ابن المقفع عن الإيمان بالقضاء والقدر ويدعو إلى الإيمان بما كتبه الله لنا فهذا الإيمان سيدفع الإنسان إلى العمل للآخرة مهما لحق به من غبن الدنيا ويقول ابن المقفع (أي بني : إذا غلبت مرة في الأمور الدنيوية فينبغي ألا تغبن ولا تغلب بأي حال في أمر الآخرة، واعلم أن ما يكون من رزقك لا يستطيع أن يحوله عنك أحد، والمقدور سيصل إليهك بحكم الأزل لا يمكن لأي مخلوق دفعه عنك)(٣).

ويتابع ابن المقفع تركيزه على الدين حين يؤكد على تفاهة العلم إذا ابتعد عن الدين وإذا لم يظلله رضوان الله تعالى فيقول في الأدب الصغير (فضل العلم في غير الدين مهلكة ، وكثرة الأدب في غير رضوان الله ،ومنفعة الأخيار ، قائد إلى النار)(٤).

ويحذر ابن المقفع أيضاً من العبث بالإتقياء لأن التقليل من شأنهم تقليل من شأن

١- الأدب الصغير، ص٦٥

٢- الأدب الكبير ، ص ١٦١

٣- الأدب الوجيز ، ص ٤٣

٤- الأدب الصغير ، ص ٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدين ولهذا يقول في أدبه الصغير (لا يستخف ذو العقل بأحد: وأحق من لم يستخف به ثلاثة: الأتقياء والولاة والإخوان ، فانه من استخف بالأتقياء أهلك دينه ، ومن استخف بالولاة أهلك دنياه ، ومن استخف بالإخوان أفسد مروءته)[١] .

ونثر ابن المقفع حكمه حول الدنيا والآخرة في رسالة الأدب فصور الدنيا الذاهبة كالحلم وقال (سرور الدنيا كأحلام النائم) وقال (الدنيا نوم نائم) .

ورفع من شأن من يعمل لآخرته تاركاً دنياه المسافرة وقال (طوبي لمن ترك دنياه لآخرته) وقال : (المغبون من طلب ثواب الآخرة في الدنيا) وقال (المغبون من طلب الدنيا بعمل الآخرة)[٢]. كما تحدث عن الدنيا والآخرة في يتيمة السلطان فقال (الدنيا دار عمل والآخرة دار ثواب) [٣] .

وحديث ابن المقفع عن الدين لا يحدد لنا معتقد ابن المقفع ، خاصة وأنه يقرر في عدة مواضع من مؤلفاته أنه لا يتبع معتقداً معيناً بدليل أنه هو الذي أدّب نفسه ، فعمل الخير لأنه خير ، وابتعد عن الشر لأنه شر ، وتمسك بالفضيلة لأنها فضيلة، نبراسه في هذا عقله الذي استطاع أن يجمع هذه المبادئ، والتي هي في مجموعها تشكل جوهر الأديان .

ولعل تخبّط ابن المقفع هذا يعود إلى محاولته الجمع بين تراث أمته على الرغم مما يحويه من أمور تتناقض والعقيدة الإسلامية، وبين دين الدولة التي يحيا في ظلها[٤].

القضاء:

يشير ابن المقفع إلى الاضطراب الذي وقع فيه الناس في تطبيق الدين في الحياة الاجتماعية والفكرية ويرد هذا الاضطراب إلى الفقهاء أنفسهم الذين أخذوا يطلقون الأحكام المتناقضة نتيجة اعتمادهم على الاجتهاد والأخذ بالرأي والقياس وقد ظهر هذا التعارض بين الفقهاء في حديث ابن المقفع عن القضاء في رسالة الصحابة حين قال: (ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحي اختلاف

١- الادب الصغير، ص٧٩

٢- رسالة الأدب ، رسالة البلغاء ، ص ١١٢-١١٣

٣- يتيمة السلطان ، رسائل البلغاء ، ص ١٤٧

٤- ليلى سعد الدين كليلة ودمنة ، في الادب العربي ، دراسة مقارنة ، دار البشير للنشر والتوزيع عمان - الاردن ، ١٩٨٩ ،ص ٦٧-٦٨، عبد اللطيف حمزة ابن المقفع ص ٥٥،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأحكام المتناقضة التي بلغ اختلافها أمراً عظيماً)[١].

ويضع ابن المقفع الحل بين يدي الخليفة حين دعاه إلى توحيد الأحكام القضائية في بقاع الدولة الإسلامية، وأن تكتب هذه الأحكام في كتاب جامع بعد أن يقرها الخليفة مما يلزم الجميع تطبيقها، ويمنعهم من الحياد عنها يقول ابن المقفع (فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسنن المختلفة فترفع، إليه في كتاب ، ويرفع معها ما يحتُج به كل قوم من سنة أو قياس ، ثم ينظر أمير المؤمنين في ذلك . وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ويعزم له عليه ، وينهى عن القضاء بخلافه وكتب بذلك كتاباً جامعاً، لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً ،ورجونا أن يكون اجتماع السير قربة لإجماع الأمر برأي أمير المؤمنين وعلى لسانه، ثم يكون ذلك من إمام آخَر آخِر الدهر إن شاء الله)[٢] ويرى د. طه حسين أن حديث ابن المقفع عن القضاء واضطراب الأحكام القضائية، وبأن على كل إمام عند توليه الحكم إصدار قانون يلزمه القضاة في جميع أرجاء الدولة، وبذلك لا يضطرب القضاء، يرى أن هذا الرأي شديد الصلة بالثقافة اليونانية فقد كان من عادات الرومان أن يصدر القاضي بعد انتخابه مجموعة القواعد التي ينبغي أن يكون عليها حكم القضاء أثناء ولايته[٣].

ويرى عبد اللطيف حمزة أن هذه الفكرة من تأثير الثقافة الفارسية، غير أن حمزة لا يستبعد أن يكون الفرس أخذوا هذه الفكرة عن الرومان، بحكم صلاتهم بهم عن طريق الحروب [٤] في حين يرى محمد غفراني الخراساني أن ابن المقفع في حديثه عن القضاء لم يكن متأثراً بالقانون الروماني الذي ينشره جوستنايوس ، وإنما هو من بنات أفكاره ، وعلى عادة المصلحين هو تلبية لرغبته في إصلاح مجتمعه ، والدليل الذي يورده الخراساني على ذلك أن ابن المقفع لم يعرف عنه معرفته باللغة اللاتينية ، ولو افترض اطلاعه على القانون عن طريق الثقافات اليونانية أوالسريانية أو العبرية ، فلا بد من التيقن من اتصاله بهذه الثقافات هل كان مباشراً أم غير مباشر، ثم لا بد من العلم أن أول كتاب ترجم عن القانون الروماني

١- رسالة الصحابة ، جمهرة رسائل العرب ، ص ٣٧

٢- المرجع السابق ، ص ٣٨/٣٧

٣- من حديث الشعروالنثر ، طه حسين ، ص ٥٩٨-٦٠٠

٤- عبد اللطيف حمزة ، ابن المقفع ، ص ١٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان إلى السريانية ، وذلك بعد القرن الثامن الميلادي، أي أوائل القرن الثالث الهجري أي بعد وفاة ابن المقفع(١).

آداب الطعام :

لم يترك ابن المقفع قضية اجتماعية تهم الناس إلا وأدلى بدلوه فيها،فها هو هنا يدعو إلى الاقتصاد والتخفيف من المأكل والمشرب مبتغياً في ذلك الحفاظ على كل ما ينفع الجسد والابتعاد عن كل ما يضره فيقول (أصل الأمر في صلاح الجسد ألا تحمل عليه من المأكل والمشارب والباه إلا خفافاً ثم إن قدرت على أن تعلم جميع منافع الجسد ومضاره ، والانتفاع بذلك كله فهو الأفضل)(٢).

ويمضي ابن المقفع في توجيهاته. وينبه إلى كف النظر عن المكان الذي يجلب منه الطعام إذا دعي المرء إلى وليمة ما ،وعدم البدء بمد اليد إلى الطعام قبل الآخرين، وذلك حتى لايتصف بالشراهة ويقول (أي بني : إذا حضرت مائدة فلا تلقي بنظرك على الموضع الذي يأتون منه بالطعام ، ولا تلتفت إلى تلك الناحية ، وأمسك بعنان التماسك في ذلك المقام وتمالك نفسك، ولا تكن أول من يمد يده الى الطعام والخوان، فيحكم كل الناس بشره نفسك وغلبة حرصك ، وتُعرف وتُوصف بصورة الشهوة)(٣).

وقد ركز ابن المقفع على آداب الطعام فيما ترجمه أيضاً فنبّه إلى آداب المائدة وما ينبغي أن يقوم به المرء أثناء تناوله الطعام كإغلاق فمه على ما يأكله ، والتقليل من الحركة ، وعدم استخدام السكين للأكل . ويورد ابن قتيبة بعضاً مما قرأه في الآيين (٤) الذي ترجمه ابن المقفع عن الفارسية فيقول(وقرأت في الآيين : أن رجلاً من خدم دار المملكة أوصى ابنه فقال : إذا أكلت فضم شفتيك ، ولا تتلفتن يميناً وشمالاً ، ولا تتخذنّ خلالك قَصَبا ، ولا تَلْقَمنّ بسكين أبداً، وإذا كان في يدك سكين ، وأردت التقاماً فضعها على مائدتك ثم التقم ، ولا تجلس فوق من هو أسن منك ، وأرفع منزلة)(٥).

١- محمد غفراني الخراساني ، عبد الله بن المقفع ، ص ٤٥٨

٢- الأدب الكبير، ص ٩٧

٣- الادب الوجيز ، ص ٧٤

٤- الإيين هو كتاب آيين نامة أو كتاب الرسوم وقد اهتم هذا الكتاب بذكر تفاصيل عن نظم الدولة الساسانية والجماعة فيها كما تناول اصول الحكم ومميزاته إضافة إلى معلومات عن أنواع الرياضة المختلفة التي كان يمارسها النبلاء كرمي السهام ولعب الكرة كما يتضمن الطرق المختلفة لزجر الطير (آرثر كريستنسن – إيران في عهد الساسانيين ص ٤٩ طبعة دار النهضة بيروت .

٥- ابن قتيبة الدينوري ، عيون الاخبار ، المجلد الثالث ، ص ٢٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما يورد ابن قتيبة خبراً آخر من الآيين ينبه إلى الابتعاد عن تناول الأطعمة التي تورث رائحة كريهةللفم فيقول (وقرأت في الآيين أن رئيس الخدم أمر جواري الملك ألا يأكلن الثوم والبصل والكرّات واللّفاح والحِمّص الرَّطب والمشمس فإنه يورث البخر)[1].

إخوانيات ابن المقفع

ظهرت الرسائل الإخوانية في العصر العباسي معبرة عن أغراض إجتماعية صرفة ، حيث كان الأصدقاء والإخوان يتبادلونها فيما بينهم لتقديم التهاني أو التعازي ، أو لتقديم الشكر على قضاء حاجة ما ،أو لطلب الود من الأصدقاء ، ويبث الكاتب في هذه الرسائل مشاعره تجاه الآخرين بكل صدق وموضوعية ، مكتفياً بالغرض الذي كتبت من أجله الرسالة دون تقديم أو حشو أو إطالة ويلاحظ ارتباط هذه الرسائل بالعادات الاجتماعية

فمثلاً نجد ابن المقفع قد أرسل رسالة إلى أحد أصدقائه يهنئه بولادة بنت له فيقول (بارك الله لكم في الابنة المستفادة وجعلها لكم زيناً وأجرى لكم بها خيراً، فلا تكرهها فإنهن الأمهات والأخوات والعمات والخالات وفيهن الباقيات الصالحات ، ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم ، ورب جارية فرّحت أهلها بعد مساءتهم)[2] . فيلاحظ هنا إشارة ابن المقفع لكراهية المجتمع عامة ولادة البنات بدليل قوله (فلا تكرهها) ، كما يحاول إثارة العاطفة الدينية عند المرسل إليه بقوله (الباقيات الصالحات) ، ولم ينس ابن المقفع تحكيم العقل في هذه القضية حين أثار التفكير المنطقي عند المرسل إليه بالمقارنة بين ولد فرح به أهله عند ولادته، ولكنه سبّب الأذى والإساءة لهم عندما كبر . وبنت استاء أهلها لولادتها ولكنها شرّفتهم وجلبت الفخر لهم .

ولنقف أمام رسالة ابن المقفع في التعزية عندما يقول (أما بعد فإن أمر الآخرة والدنيا بيد الله هو يديرهما ويقضي فيهما ما يشاء لارادّ لقضائه ولا معقّب لحكمه، فإن الله خلق الخلق بقدرته ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة لئلا يطمع أحد من خلقه في خلد الدنيا ، ووقّت لكل شيء ميقات أجل لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، فليس أحد من خلقه

١- ابن قتيبة الدينوري ، عيون الاخبار ،ص ٢٧٨

٢- محمد كرد علي - رسائل البلغاء ، ص ١٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

البعد الأخلاقي في رسائل ابن المقفع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو مستيقن بالموت لا يرجو بأن يخلصه من ذلك أحد، نسأل الله خير المنقلب ، وبلغني وفاة فلان فكانت وفاته من المصائب العظام التي يحتسب ثوابها من ربنا الذي إليه منقلبنا ومعادنا، وعليه ثوابنا فعليك بتقوى الله والصبر وحسن الظن بالله، فإنه جعل لأهل الصبر صلوات منه ورحمة وجعلهم من المهتدين)[1].

فنحن نحس ونحن تقرأ هذه الرسالة أننا أمام لون جديد من أدب الكتابة أو بعبارة أخرى أمام طراز جديد من الكتّاب جرت منهم البلاغة مجرى الدم في العروق فهو يتحدث عن الحياة والموت حديث الواعظ وينتقل من هذا إلى نتيجة يسلّم بها كل إنسان وهي أنه لا خلود في هذه الدنيا ليهوّن الفجيعة على أصحابها ، وإن كان معترفاً بأن المصاب فادح ، وأن الخطب عظيم ، إلا أن الصبر أولى بالعاقل وأجدر بالمسلم (وبمثل هذا الأسلوب يبلغ الكاتب الذروة ويصل إلى القمة ولو لا أن ابن المقفع نهل من ثقافتين وشرب من مائين وجمع إلى بلاغة العرب فلسفة الفرس لقلنا ماهذه اللباقة التي تجاوزت حدود الذوق والأدب ولكنها لذلك الإنسان الذي تربع على عرش البيان واللسان)[2].

١- محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص ١٣٧-١٣٨

٢- د. ابراهيم علي أبو الخشب ، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ص ٢٠٦/٢٠٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

البعد الأخلاقي في رسائل ابن المقفع

تعد رسائل ابن المقفع مزيجاً من الدروس الاجتماعية الأدبية والعلمية والمواعظ الدينية ، وتشتمل هذه الرسائل على حكم في الأخلاق نابعة من تجارب حياتية خاصة ، استقاها ابن المقفع من مصادر متعددة ، وحكم فيها عقله ، ولهذا كان يفعل الخير ويحث عليه لأنه خير ، ويتجنب الرذيلة وينهى عنها لأنها رذيلة ولكنه رمى دائماً في توجيهاته إلى بلوغ المثالية في كل شيء.

وقد اعتمد ابن المقفع في دعواته الإصلاحية للارتقاء إلى المثل الأعلى في أخلاقيات المجتمع على الثقافات الأجنبية سيما الفارسية إلى جانب الثقافة اليونانية والثقافة الهندية والثقافة العربية الإسلامية أيضاً والشجاعة والحمية والأنفة والكرم والايثار ، وحب الخير وتعظيم أمر الدين والمساواة والتقوى والاهتمام بأمور الآخرة ، وما سوى ذلك كالرضى والقناعة وسعة الصدر والأخذ بالحزم والتدبير في شؤون الفرد والجماعة وعبادة الجمال كل هذه الأخلاق تُعدُّ خلاصة لثقافاته المختلفة التي ثقفها واستوعبها جيداً[١].

ولا يطلب ابن المقفع من الناس تطبيق المثل الأعلى في كل ما يصدر عنهم من أفعال وأقوال ، فهو يعلم أنهم لن يطيقوا ذلك ، فليطبقوا اذن جزءاً من صورة هذا المثل ، فهو مثلاً عندما تحدث عن المثل الأعلى للصديق ، وما يتصف به من أخلاقيات أنهى كلامه بقوله « فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت ، ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع) [٢] . فهو يعلم بثقل ما يطلبه من الناس ولذلك يكتفي بجزء منه .

وابن المقفع نفسه لم يستطع تطبيق المثالية في سلوكه ، فصحيح أنه كان ذكياً ودقيق الملاحظة وواسع المعرفة ، ومتزن الرأي ، وكريم الخلق وفياً [٣] ، لا يفخر بنفسه ولا يتمجد ، ويتحلى بالنبل ويبرأ بنفسه عن المصانعة والمماراة [٤] ، ولكنه أقبل على حياة اللهو والمجون، وروي عنه مجالسته لمتهمين في دينهم وأخلاقهم فصحيح كما أشرت سالفاً إلى احتمال أنه لم يصادقهم الصداقة التي ينادي بها إلا أن مجرد الجلوس إليهم ومشاركتهم الحديث والشراب يثير الشبهات حوله [٥].

---

(١) خليل مردم بك ، ابن المقفع ، ص ٤٧.

(٢) ابن المقفع – الأدب الكبير ، ص ١٦٥.

(٣) عمر فروخ – ابن المقفع وكتاب كليلة ودمنة ، ص ٨.

(٤) محمد كرد علي ، أمراء البيان ج١ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١١٥ .

(٥) الشريف المرتضي علي بن الحسين الموسوي العلوي ، امالي المرتضي غرر الفوائد ودرر القلائد.تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم القسم الأول ط١– دار إحياء الكتب العربية /عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٥٤– ص ١٢٧/١٢٨/١٣١.

• أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ج١٣ ط١ ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ ، ص ٢٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنه يحاول الاصلاح لأن الإصلاح وفق الديانات الفارسية رسالة على الإنسان أن يؤديها تجاه مجتمعه ليرسي مبادئ الأخلاق ويعلي روح الخير (فمن تعاليم زرادشت « يجد الإنسان رسالة عليه أداؤها فإنه بالإيمان الخالص وبالجهاد في سبيل الحقيقة الدينية والأخلاق ، وأخيراً بالجد في الأعمال التي تؤدي إلى غلبة قوى الحياة على قوى الموت ، وبالمساعي المؤدية إلى الحضارة وخاصة زرع الأرض يقف في صف روح الخير، الفكر الطيب، القول الطيب والعمل الطيب ، هي الأسس الثلاثة التي تنطوي عليها مبادئ الأخلاق عند زرادشت)[١].

وابن المقفع كما أسلفت تأثر بالثقافة الفارسية بل إنه استوعبها استيعاباً تاماً ، وما حكمه ومواعظه الأخلاقية التي جاءنا بها إلا تقليد للرسائل الشعبية التي ظهرت في القرن الأخير من الحكم الساساني ، والتي عنيت بإرساء القواعد الأخلاقية، وزخرت بالحكم المنسوبة إلى العظماء التاريخيين أو الخرافيين.[٢].

ومن هنا نرى تمسكه بالفضائل الفردية ومحاربته للقتل والخيانة والسرقة والكذب والبهتان ، ونلمح شعوبيته التي تتسرب أحياناً إلى ما يكتبه بوعي منه مرة ، ودون وعي مرات أخرى.[٣]

أما أبرز الأخلاق التي حث ابن المقفع على التمسك بها أو تجنبها في رسائله المختلفة :

آداب المجالسة:

اتسمت ثقافة ابن المقفع بالاتساع والشمول ومواكبة التيارات الفكرية التي شاعت في عصره ومن هنا انطلق يوجه الأفراد والجماعات للالتزام بالأخلاق التي تيسر تعامل الناس مع بعضهم بعضاً، وبما أن الناس يكثرون من اللقاءات فيما بينهم ويتبادلون الأحاديث المتنوعة فقد مدّ لهم ابن المقفع جسراً من الأخلاقيات الواجب الالتزام بها أثناء أحاديثهم المتداولة في هذه اللقاءات فعلى الإنسان المستمع في المجالس واللقاءات التي تجمعه بالآخرين أن يحسن الاستماع إلى أقوال الآخرين ، وإن كان على علم بما يسمع فعليه التزام الصمت وهذا أحسن الأدب في رأي ابن المقفع فيقول (إذا رأيت رجلاً يحدّث حديثاً قد علمته ، أو يخبر خبراً قد سمعته ، فلا تشاركه فيه ولا تتعقبه عليه حرصاً على أن يعلم الناس أنك قد علمته ، فإن في ذلك خفة وشحاً وسوء أدب وسخفاً). [٤].

ويحذر ابن المقفع المستمع من مسابقة المتكلم إلى حديثه ومشاركته فيه ، فإنه إذا كان

---

١. آرثر كريستنسن ، إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، مراجعة عبد الوهاب عزام ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ص ٢٠-٢١.

٢. المرجع السابق ص٤٤.

٣. أحمد كمال زكي – الحياة الأدبية في البصرة ، ص ٢١٧-٢١٨.

٤. الأدب الكبير ، ص ١٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يهدف إلى إظهار علمه أمام الناس ليشار إليه بالبنان ويقال عالم فإنه إنما يظهر بهذا الخلق جهله ولؤمه . وهذا عند ابن المقفع من أكثر الأخلاق قبحاً وسوءاً فيقول (ومن الأخلاق السيئة على كل حال مغالبة الرجل على كلامه والاعتراض فيه والقطع للحديث).[١]

ومن حسن الاستماع أيضاً النظر إلى وجه المتكلم ، والفهم لما يقول وفي هذا يقول ابن المقفع (تعلّم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ومن حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى ينقضي حديثه ، وقلة التلفت إلى الجواب ، والإقبال بالوجه ، والنظر إلى المتكلم والوعي لما يقول).[٢]

وعلى المستمع أن يحسن الإصغاء ولا يبادر بالإجابة إذا لم يكن مقصوداً بالسؤال ، فإن مبادرته هذه ومسابقته الحاضرين بالإجابة يدفعهم إلى تكذيبه ومعارضته ، وتتبع كلامه والتقاط أخطائه فإذا ما انتظر وسمع الإجابات من جميع الجالسين خرج إليهم برأي جامع مانع ونسبت إليه الحكمة ويقول ابن المقفع في هذا (إذا سأل الوالي غيرك فلا تكونّن أنت المجيب عنه . فإن استلابك الكلام خفة بك ، واستخفاف منك بالمسؤول والسائل... وإذا لم يقصد السائل في المسألة لرجل واحد وعمّ بها جماعة من عنده فلا تبادرنّ بالجواب ولا تسابق الجلساء ، ولا تواثب بالكلام مواثبة . فإن ذلك يجمع مع شين التكلف والخفة أنك إذا سبقت القوم إلى الكلام صاروا لكلامك خصماء فتعقّبوه بالعيب والطعن . وإذا أنت لم تعجّل بالجواب وخلّيته للقوم ، اعترضت أقاويلهم على عينك ثمّ تدبرتها وفكرت في ما عندك ، ثم هيّأت من تفكيرك ، ومحاسن ما سمعت جواباً رضيّاً ثم استدبرت به أقاويلهم حين تصيخ إليك الأسماع ويهدأ عنك الخصوم).[٣]

ويقول في الأدب الوجيز مؤكداً على المعنى ذاته (وإذا سئل غيرك في مجلس وكان المقصود بالسؤال سواك فلا تسبق المسئول في الرد ولا تبادر بالجواب فكما تخال -لشدة الحرص على الكلام وفرط الولوع بالجواب أنك قد ظفرت بتقدير ،وتوصلت إلى نجح مطلوب فتكون في هذه الحال قد حقّرت المسئول ووضعت من شأنه وحثثت السائل وبعثته على معارضتك وتتبعك في أمر كان غيرك الكفيل بجوابه« كالباحث عن حتفه بظلفه).

وألقيت نفسك بالفضول في ورطة وعقبة لا تعرف نهاية تبعتها ولا الخلاص منها .[٤].

وكثيراً ما يسمع الإنسان من جلسائه ما يكره أو ينكر فإذا حدث ذلك فعليه ألا يكذب القائل، ولا يسخّف ما يقول ، لأن ذلك يجعل القائل غاضباً حانقاً فإذا أردت أن تصحح هذا الذي قاله فليكن ذلك في السر ، وخير لك التزام الصمت لتكسب ود الآخرين ، فإذا نطقت

---

(١) الأدب الكبير ، ص ١٦٢.
(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٠.
(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٢/١٢٣.
(٤) الأدب الوجيز ، ص ٧٣/٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فبالحسنى لا غير .(اعلم أنك ستسمع من جلسائك الرأي والحديث تنكره وتستخفيه وتستشنعه من المتحدّث به عن نفسه أو غيره ، فلا يكونّن منك التكذيب ولا التسخيف بشيء مما يأتي به جليسك ، ولا يجرئنّك على ذلك أن تقول : إنما حدّث عن غيره فإن كل مردود عليه سيمتعض من الرد وإن كان في القوم من تكره أن يستقر في قلبه ذلك القول لخطأ تخاف أن يعقد عليه أو مضرّة تخشاها على أحد فإنك قادر على أن تنقض ذلك في ستر فيكون ذلك أيسر للنقض وأبعد للبغضة ثم اعلم أن البغضة خوف وأن المودة أمن فاستكثر من المودة صامتاً فإن الصمت سيدعوها إليك . وإذا ناطقت فناطق بالحسنى فإن المنطق الحسن يزيد في ودّ الصديق ويستلّ سخيمة الوغر).[1]

وللحفاظ أيضاً على ودّ الأصدقاء على المرء أن يكون مهذّباً معهم ولا يتحين الفرص لإظهار أخطائهم ، ولا يترصد الأخطاء في كل كلمة يقولونها .... والسخف كله يظهر في من يأخذ الخطأ ويتعقبه بعد أن يُنسى محاولاً إظهاره وإشعار صديقه بالغلبة عليه بعد أن نعد دليلاً أو حجة لما سيقول ويقول ابن المقفع في هذا (ولا تلتمس غلبة صاحبك والظفر عليه عند كل كلمة ورأي ولا تجترئنّ على تقريعه بظفرك إذا استبان وحجتك عليه إذا وضحت . فإن أقواماً قد يحملهم حب الغلبة وسفه الرأي في ذلك على أن يتعقبوا الكلمة بعدما تنسى فيلتمسوا منه الحجة ثم يستطيلوا بها على الأصحاب ، وذلك ضعف في العقل ولؤم في الأخلاق).[2]

أما إذ كان المتكلم من سفهاء الناس ، فعلى المستمع ألا يعارضهم أو يسير على طريقتهم السفيهة ، وذلك لأن احتذاء طريقتهم في التعامل معهم يعني الرضا بهم ، فإذا رغب المستمع في معارضتهم فهذا يحط به إلى منزلتهم ويجعل نفسه في مرمى ردودهم فالأفضل إذن هو الصمت عنهم ويقول ابن المقفع في ذلك (واعلم أنك ستبلى من أقوام بسفه ، وأن سفه السفيه سيُطلع له منك حقداً . فإن عارضته أو كافأته بالسفه فكأنك قد رضيت ما أتى به فأحببت أن تحتذي على مثاله ، فإن كان ذلك عندك مذموماً فحقق ذمك إياه بترك معارضته فأما أن تذمه وتمتثله فليس في ذلك لك سداد).[3]

أما المتكلم فقد دعاه ابن المقفع إلى الالتزام بآداب جمّة ومنها مخاطبة الآخرين وفق قدراتهم وملكاتهم العقلية والفكرية ، وألا نثقل عليهم بما لا يعرفون ولا يألفون ، فنسبب لهم الغمّ والأذى ، وقد نفقد صحبتهم فينطلقون لتسفيه ما يقال لهم ورده ومنازعته مدافعين بذلك عن جهلهم طاعنين في علم من يحدثهم ، ولهذا يوجهنا ابن المقفع بمجالسة الناس كلٌ وفق طريقته ويقول (لا تجالس امرءاً بغير طريقته ، فإنك إن أردت لقاء الجاهل بالعلم والجافي بالفقه

---

(١) الأدب الكبير ، ص ١٥٩.
(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٦.
(٣) المرجع السابق ، ص ١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

، والعيّ بالبيان لم تزد على أن تضع علمك وتؤذي جليسك بحملك عليه ثقل ما لا يعرف وغمك إياه بمثل ما يغتم به الرجل الفصيح من مخاطبة الأعجمي الذي لا يفقه عنه . واعلم أنه ليس من علم تذكره عند غير أهله إلا عابوه ونصبوا له ونقضوه عليك وحرصوا على أن يجعلوه جهلاً حتى أن كثيراً من اللهو واللعب الذي هو أخف الأشياء على الناس ليحضره من لا يعرفه فيثقل عليه ويغتم به).[1]

وهذا قريب مما قاله في الأدب الوجيز حين قال (لا تجالس الناس ولا تعاشرهم على خلاف طريقتهم وعادتهم ولا تكلفهم ما يبدو فوق طاقتهم ولا يتأتى في استطاعتهم ولا تجز التماس ذلك منهم فينفر منك الجليس دائماً ، وإن حملت شخصاً وكلفته فوق طاقته يصير مرهقاً ومكدوراً بتحمله وتجشّمه فيجتنب صحبتك).[2]

ويرى ابن المقفع أن يبتعد المتكلم عن المبالغة في الحديث عمّا يعرف بغض النظر عن طبيعة المستمعين إليه ، لأن مجرد المبالغة تقوده إلى السخف ويأخذ عليه المستمعون ذلك فيتجنبون مجالسته ولهذا يقول ابن المقفع في أدبه الكبير (واعلم أنه يكاد يكون لكل رجل غالبة حديث لا يزال يحدّث به : إما عن بلد من البلدان أو ضرب من ضروب العلم أو صنف من صنوف الناس ،أو وجه من وجوه الرأي ، وعندما يغرم به الرجل من ذلك يبدو منه السخف، ويعرف منه الهوى ،فاجتنب ذلك في كل موطن ، ثم عند السلطان خاصة) [3].

هذا إذا كان المتكلم يبالغ فيما يعرفه ، فما حال من يدّعي المعرفة والعلم فيما يعرض من الأمور؟.

يرى ابن المقفع أن ادّعاء العلم عن جهل يجلب الفضيحة والعار ، لأن أمر هذا المدّعي منكشف لا محالة ، بل ويعد ابن المقفع مدّعي العلم-بغرض إظهار جهل الآخرين وعجزهم- متجردين من الأدب والحياء ، ويسلك ابن المقفع طريق الإقناع حين يغريهم بإضمار علمهم وعدم الفخر بهذا العلم أمام الناس حفاظاً على أنفسهم من الحسد . ويقول ابن المقفع (لا تكثرن ادّعاء العلم في كل ما يعرض بينك وبين أصحابك فإنك من ذلك بين فضيحتين . إما أن ينازعوك فيما ادّعيت فيهجم منك على الجهالة والصلف ، وإما ألا ينازعوك ويخلوا في يديك ما ادعيت من الأمور ، فينكشف منك التصنّع والمعجزة ، واستحي الحياء كله من أن تخبر صاحبك أنك عالم وأنه جاهل مصرّحاً أو معرضاً وإن آنست من نفسك فضلاً فتحرّج أن تذكره أو تبديه ، واعلم أن ظهوره منك بذلك الوجه يقرر لك في قلوب الناس من العيب أكثر مما يقرر لك من الفضل).[4]

ويوجه ابن المقفع المتكلمين إلى حفظ ماء وجوههم والتزام الصمت والابتعاد عن الثرثرة

---

(١) الأدب الكبير ، ص ١٥٨.
(٢) الأدب الوجيز ، ص ٦٥.
(٣) الأدب الكبير ، ص ١٢٦.
(٤) المرجع السابق ، ص ١٣٤، ١٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والهذر سيما فيما لا يفهمون ولا يعرفون ولهذا يقول ابن المقفع (أي بني : تعوّد الصمت واحترز من اللغو ولا تشرع في الكلام بغير فهم فإن عدم الكلام خير من الثرثرة في أمر يتم بدونها ولا يكون لك في ذلك مصلحة وتيقّن أن قلة الكلام والصمت أليق بحالك وموجب لمزيد كما لك ووقعك عند أترابك وأكفائك ، وأفيد لبقاء دينك ونقاء غرضك).(١)

فكما نلاحظ وجّه ابن المقفع نصيحة عامة تنصب في الدعوة إلى الإقلال من الكلام ، وتراثنا العربي عامة يدعو إلى الابتعاد عن الهذر في الكلام فمن الأقوال المأثورة (من كثر كلامه كثر هذره) و(إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب) وغيرها.

وأجدر ما يكون الصمت في مجالس أرباب العقل والكياسة ذلك أن إطلاق الكلام السخيف في مجالسهم يعرّي المرء ويلحق به الخزي والعار فليحذر من إطلاق الكلام غير المناسب وليتحرى الصمت إن لم يجد ما يناسب مجلسه الذي يجلس (كن على حذر من المزاح والهزل والكلام السخيف في مجالس الأخيار والأبرار وأرباب العقل والكياسة).(٢)

ولإغرائنا بالصمت ينعت ابن المقفع ذوي الكلام اليسير بالحكمة والذكاء فليس المهم كثرة الكلام لندلل على رجاحة عقولنا فإن رجاحة العقل تنطق عن نفسها بالقليل من الكلام بدليل قول ابن المقفع (كلام اللبيب وإن كان نزراً أدب عظيم).(٣)

والأفضل عند ابن المقفع هو الفعل لا القول ففضل الإنسان وأخلاقه لا تظهر من أقواله وحسب بل تظهر باقتران الفعل بالقول ، بل بتقديم الأفعال على الأقوال وذلك لأن (فضل القول على الفعل عار وهجنة ، وفضل الفعل على القول زينة).(٤)

ويحذر ابن المقفع المتكلم من انتحال آراء الآخرين ، ونسبة صدقهم لنفسه فإن هذا يوقع المرء بالخطأ والضلال ، بل إن انتحال آراء الآخرين أمامهم قلة حياء وظلم لهم (فإن بلغ بك ذلك أن تشير برأي الرجل وتتكلم بكلامه وهو يسمع جمعت مع الظلم قلة الحياء).(٥)

أما صاحب الرأي الأول فيدعوه ابن المقفع إلى التحلي بالحلم فيعّرف هذا المنتحل بعلمه انتحال رأيه ، بل ويثني على صدق رأي المنتحل فإن هذا في رأي ابن المقفع يكسبه فضلاً يزيد عمّا جاء به من عمل حسن أو رأي صادق ويقول ابن المقفع في ذلك (من تمام حسن الخلق والأدب في هذا الباب أن تسخو نفسك لأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك وتنسب إليه رأيه وكلامه وتزينه مع ذلك ما استطعت).(٦)

ويقول (تنكّب في ما بينك وبين السلطان وفي ما بينك وبين الإخوان خُلُقاً قد عرفناه

---

(١) الأدب الوجيز ، ص ٤٦.
(٢) الأدب الوجيز ، ص ٦٢/٦١.
(٣) الأدب الصغير ، ص ٦٢.
(٤) الأدب الكبير ، ص ١٣٦.
(٥) المرجع السابق ، ص ١٣١.
(٦) المرجع السابق ، ص١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في بعض الوزراء والأعوان في ادعاء الرجل عندما يظهر من صاحبه حسن أثر أو صواب رأي ، أنه عمل في ذلك وأشار به وإقراره بذلك إذا مدحه به مادح ، بل إن استطعت أن تعرف صاحبك أنك تنحله صواب رأيك فضلاً عن أن تدّعي صوابه وتسند ذلك إليه وتزيّنه به فافعل).[١]

ولا أعلم هنا هل يحتمل أي إنسان أن يرى أمامه من ينتحل آراءه ويصمت عن ذلك بل وينسب آراءه لهم ويثني عليهم إن نسبة الآراء لمن انتحلها بل وإشعاره بأننا نعرف انتحاله هذا لا تكون إلا من باب السخرية والتهكم بهم لا من باب تمام حسن الخلق والأدب كما يرى ابن المقفع !؟.

ومن آداب المجالسة الأخرى التي حثنا عليها ابن المقفع أن يتحرز المرء في كلامه إذا جالس مجموعة من الناس فلا يشتم ، ولا يذم لأنه لا يعلم إن كان من شتمه أو من ذمه يخص أحد الحاضرين أم لا ... فليرق الإنسان بنفسه عن الوقوع في الزلل ويهذّب أقواله . يقول ابن المقفع (إذا كنت في جماعة قوم أبداً فلا تَعمنَّ جيلاً من الناس أو أمة من الأمم بشتم ولا ذم ، فإنك لا تدري لعلك تتناول بعض أعراض جلسائك مخطئاً فلا تأمن مكافأتهم . أو متعمداً فتنسب إلى السفه فكل ذلك يجرح في القلب ، وجرح اللسان أشد من جرح اليد).[٢]

كما نهى ابن المقفع المتكلم عن الحديث عن زوال النعم وعن الفناء أمام من أنعم الله عليه بحجة الوعظ فهذا في نظر ابن المقفع حسد لا وعظ ولهذا يقول : (قد رأينا من سوء المجالسة أن الرجل تثقل عليه النعمة يراها بصاحبه فيكون ما يشتفي بصاحبه ، في تصغير أمره وتكدير النعمة عايه ، أن يذكر الزوال والفناء ، والدّول ، كأنه واعظ وقاصّ . فلا يخفى ذلك على من يُعنى به ولا غيره ، ولا ينزل قوله بمنزلة الموعظة والإبلاغ ، ولكن بمنزلة الضجر من النعمة إذا رآها لغيره ، والاغتمام بها والاستراحة إلى غير روح).[٣]

مكارم الأخلاق : حث ابن المقفع على الالتزام بعدد من الأخلاق الحسنة ونهى من الاتصاف ببعض الأخلاق الذميمة ومن أبرز الصفات الخلقية التي تحدث عنها ابن المقفع:

١. الكرم :

يدعو ابن المقفع إلى سيادة خلق الكرم بين الناس وينبذ البخل ويكرهه فعلى الكريم السخاء بما يملك من أموال وغيره للناس ولا يحول دون الناس وما يملك وأن يحافظ على أموال الآخرين فلا يطمع فيها ولهذا قال ابن المقفع (عوّد نفسك السخاء ، واعلم أنه سخاءان : سخاوة نفس الرجل بما في يديه ، وسخاوته عما في أيدي الناس).[٤]

والكريم حريص ليس فقط على أموال الآخرين بل على تسوية الحقوق وإعطاء كل ذي

(١)الأدب الكبير ، ص ١٢١/١٢٢.
(٢) المرجع السابق، ص ١٦٢.
(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٣.
(٤) المرجع السابق ، ص ٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حق حقه فـ (أصل الأمر في الجود ألا تضنّ بالحقوق على أهلها)[١].

وأفضل الكرم عند ابن المقفع ما كان في عسرة .. فأن تعطي وتكرم وتسخى لأناس ميسوري الحال جيد ولكن يأبى الكرم للمحتاج إلا أن يخرج عنقه ويرفع شأنك أمام الآخرين فالشدائد تبرز الأعمال الخيّرة وتضفي عليها القيم والفضائل (من أفضل البر ثلاث خصال : الصدق في الغضب والجود في العسرة والعفو عند المقدرة).[٢]

وقد عرف ابن المقفع بكرمه وسخائه فقد كان سخياً يطعم الطعام ، ويجري على قوم من أهل البصرة والكوفة راتباً في كل شهر ، ونراه يدفع دين جاره الذي يستظل بظل داره ، وقيل أن مصدر هذه الأموال التي سخا بها ابن المقفع كان مالاًحصّله عندما كان كاتباً لابن هبيرة والي كرمان ، ويظهر من هذه الروايات وغيرها حب ابن المقفع للخير وإيثار الآخرين على نفسه ، كما يظهر أن ابن المقفع لم يبغ من وراء هذه الأموال التي أنفقها شكراً ولا حمداً.[٣]

ويكره ابن المقفع البخل فالبخل حرمان من التمتع بطيبات الرزق فلم يحرم الانسان نفسه من التمتع بما يملك باعتدال ورفق؟

وفي ذلك يقول ابن المقفع (اعلم أن الجبن مقتلة ، وأن الحرص محرمة ، فانظر في ما رأيت أو سمعت : أمن قتل في القتال مقبلاً أكثر أم من قتل مدبراً ؟ وانظر أمن يطلب إليك بالإجمال والتكرم أحق أن تسخو نفسك له بطلبته أم من يطلب إليك بالشره والزيغ؟).[٤]

ويفصل ابن المقفع القول في الجود والكرم حين يبين لنا ضروبه وهي :

الجود والبخل والإسراف والاقتصاد ، فالجواد يسخرّ أعماله كلها بما يعود عليه بالنفع الأخروي ، أما البخيل فهو إما مقصّر في أمر الدنيا أو مقصر في أمر الآخرة ، والمسرف يعمل لدنياه وحسب ، أما المقتصد فهو يعطي الدنيا حقها ويعطي الآخرة أيضاً حقها باقتصاد واعتدال يقول ابن المقفع في ذلك (الرجال أربعة : جواد وبخيل ،ومسرف ، ومقتصد ، فالجواد الذي يوجّه نصيب آخرته ونصيب دنياه جميعاً في أمر آخرته . والبخيل الذي يخطئ واحدة منهما نصيبها ، والمسرف الذي يجمعهما لدنياه،والمقتصد الذي يلحق بكل واحدة منهما نصيبها).[٥]

٢ . الصدق والكذب

حث ابن المقفع على الالتزام بخلق الصدق ودعا إلى أن يدرّب الإنسان نفسه على الصدق وإن تحمل نتيجة صدقه أي تبعات فيقول (أي بني : عود لسانك قول الصدق ، واصبر

---

(١) الأدب الكبير ص ٩٨

(٢) الأدب الصغير ، ص ٧٤.

(٣) محمد كرد علي – أمراء البيان ج١ ، ص ١١٧/١١٩.

(٤) الأدب الكبير ، ص ١٥٦.

(٥) الأدب الصغير ، ص ٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على ذلك واثبت حتى يصير لك ملكة وتطمئن نفسك إليه وتصبح أنت معدن الصدق والسداد، وتعتاد ذلك وتؤثر الصدق وإن كان سيؤدي إلى مضرتك على الكذب الذي يعود بنفعك).[١]

ولكن أين قول ابن المقفع هذا من قوله في رسالة الصحابة :

(ولكن محاسن الأمور ومعروفها وما ألحق الحق بأهله ولو أن شيئاً مستقيماً على الناس ومنقاداً حيث قيد لكان الصدق هو ذلك ولا يُعتبر بالمقاييس فإنه لو أراد أن يقوده الصدق لم ينقد له ، وذلك أن رجلاً لو قال: أتأمرني أن أصدق فلا أكذب كذبة أبداً ، لكان جوابه أن يقول نعم، ثم لو التمس منه قوَد ذلك فقال : أأصدق في كذا وكذا حتى يبلغ به أن يقول : أأصدق في رجل هارب استدلّني عليه طالب ليظلمه فيقتله لكَسر عليه قياده وكان الرأي له أن يترك ذلك وينصرف إلى المجتمع عليه المعروف المستحسن).[٢]

فقد جاء ابن المقفع فيما سبق أضيق الحالات وتخلى عن الصدق .

ويحذر ابن المقفع من اللجوء للأقسام والأيمان للتدليل على الصدق فإن الإكثار من الأقسام والأيمان يضر بدين المرء كما يضر بشخصيته وتفقده الوقار والاحترام بين الناس ، فليستعض عن ذلك بالصدق في أقواله وأفعاله وعندها لن يحتاج لما يدعم أقواله عند الآخرين لذلك (احذر القسم الكثير والأيمان المتواترة ، والتزم الاحتراز فإن كثرة القسم تضر بدينك ودنياك وليس في ترك ذلك مظنّة نقصان وكلما ثابرت على هذه الطريقة ومارست هذه العادة والتزمتها تستقيم أمورك وتنتظم وتصبح عزيزاً وموقّراً في أعين الناس ويزداد قدرك ووقعك وتصير كبير أقرانك وتكن موصوفاً ومعروفاً بصدق القول والخلق الحميد وتغدو ثقة ومؤتمناً فيسمعون كلامك).[٣]

ويرى محمد كرد علي أن صدق ابن المقفع في أقواله وأفعاله وحرصه علي حرية الرأي كانت السبب في قتله فعندما تشدد في كتابة عهد الأمان لعبد الله بن على من المنصور ، غضب عليه المنصور وأمر سفيان بن معاوية عامله على البصرة بقتل ابن المقفع .[٤]

فإذا كان ابن المقفع صادقاً في أقواله وأفعاله وفق رأي محمد كرد علي فهل كان صادقاً عندما أعلن إسلامه أم أنه هدف من إعلان هذا الإسلام وأمام جمع من الناس إلى الوصول إلى مطمحه الأعظم وهو الوزارة .لاسيما وأن ولاة الأمور كانوا يقدرونه ويحبونه ويعجبون به لأدبه (ولكنهم لا يتجاوزون به حدود الكتابة نظراً لمجوسيته) فلعله رأى أن يعتنق الإسلام علّه يعيّن وزيراً أو والياً .[٥]

---

(١) الأدب الوجيز ، ص ٤٥.

(٢) رسالة الصحابة ، جمهرة رسائل العرب ، ص ٣٨/٣٩.

(٣) الأدب الوجيز ، ص ٤٥.

(٤) محمد كرد علي – كنوز الأجداد ، ط٢ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ١٩٨٤ ، ص ٦٤.

(٥) محمد مهدي البصير – في الأدب العباسي / ط٣ مطبعة النعمان النجف الأشرف ١٩٧٠ ، ص ١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بما أن ابن المقفع حث على الصدق فبالتأكيد نهى في رسائله المختلفة عن الكذب ، وقرن الكذب بكثير من الأخلاق الذميمة التي يجدر بالإنسان الابتعادعنها حتى يرقى بنفسه عن الذكر السيء وحتى يجلب لنفسه الخير ومودة الآخرين فقد ذكر ابن المقفع الكذب مع الفجور والتخاذل والكفر وهذا يدل على سوء هذا الجرم فيقول (لا يُذكر الفاجر في العقلاء، ولا الكذوب في الأعفاء ولا الخذول في الكرماء ، ولا الكفور بشيء من الخير).(١)

ويقول في الأدب الوجيز (احترز من أن تصبح مشهوراً ومذكوراً بين الناس بسوء القالة والنميمة والألفاظ المستهجنة والكلمات الموحشة ، ولا تجعل الكذب والاحتيال على الناس وسيلة لحاجتك وواسطة لمطالبك ومقاصدك فتعرف وتوصف بذاك العيب والزور).(٢)

ولحفظ النفس من سوء الذكر وسوء الظن ليس علينا أن نبتعد عن الكذب وحسب ، بل علينا أن نتجنب الرواية عن الكذاب لأن الرواية عن الكذاب تعني الشك في ما ننقله من روايات فإذا ما عرف ذلك بين الناس عرف عنّا الكذب وهذا يفقد المرء ثقة الآخرين به فلا يتقبلون حديثه ولا يستمعون إلى أي قول من أقواله (وابتعد عن الكذب ولا ترو ولا تنقل عن أهل الكذب فتؤول حالك إلى تلك العادة السيئة وتشتهر بالكذب والخيانة ولا يصدقون أي كلام تقوله ، ولا يصغون إلى حديثك ولا يستمعون إليه ولا يبالون ولا يلتفتون إليه ، ولا يمكن تصور خير في حياة على هذا النمط ، ولا تعد حقاً من العيش في شيء).(٣)

ولذلك ليصن المرء لسانه ليس عن الكذب وحده بل عن أي قول خاطئ لأنه بذلك يترفع عن الوقوع في الزلل ، ولا يسمح لعدوه بالتغلب عليه ، ووسيلة صون اللسان هي تحكم العقل فيما يصدر عنا من أقوال . ويقول ابن المقفع في ذلك (اعلم أن لسانك أداة مصلتة يتغالب عليها عقلك وغضبك وهواك وجهلك ، فكل غالب عليه مستمتع به وصارفه في محبته فإذا غلب عليه عقلك فهو لك، وإن غلب عليه شيء من أشباه ما سميت لك فهو لعدوك ، فإن استطعت أن تحتفظ به وتصونه فلا يكون إلا لك ولا يستولي عليه أو يشاركك فيه عدوك فافعل).(٤)

٣. الغضب :

يحذر ابن المقفع من الغضب ويوجه المرء إلى ضرورة كبح جماح نفسه وحمايتها من الغضب ، وتعويدها الحلم والسكينة والوقار. لأن الغضب يعمي الإنسان عن الفضائل ، ويجعله غير واع لما يفعل فيسيء إلى من لا ذنب له لذلك على الإنسان أن يكون متوازناً في حالات غضبه وفي حالات رضاه ويتجنب الإفراط في أي منهما (اعلم أن من الناس ناساً

---

(١) الأدب الصغير ، ص ٧٨.
(٢) الأدب الوجيز ، ص ٨٢.
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٦.
(٤) الأدب الكبير ، ص ١٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب إذا غضب أن يحمله ذلك على الكلوح والقطوب في وجه غير من أغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له ، والعقوبة لمن لم يكن يهم بمعاقبته ، وشدة المعاقبة باللسان واليد لمن لم يكن يريد به إلاّ دون ذلك ثم يبلغ به الرضى إذا رضي أن يتبرع بالأمر ذي الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطي من لم يكن يريد إعطاءه ويكرم من لم يرد إكرامه ولاحق له ولا مودة عنده).(١)

ويحذر ابن المقفع من شدة الغضب هذه ويطلب من الإنسان أن يعدّ العدة المناسبة لحماية نفسه منها فيقول (احترس من سورة الغضب،وسورة الحميّة،وسورة الحقد،وسورة الجهل، وأعدد لكل شيء من ذلك عدة تجاهده بها من الحلم والتفكر والرويّة وذكر العاقبة وطلب الفضيلة).(٢)

بل إنه يعتبر أهل الغضب مقاماً ومثوى للشيطان،وأن الغاضب إنما يؤيد بغضبه الشيطان الذي وسوس للإنسان المبالغة في الغضب فيقول (حياة الشيطان ترك العلم ، وروحه وجسده الجهل ، ومعدنه في أهل الحقد والقساوة ومثواه في أهل الغضب).(٣)

وأجدر من يحمي نفسه من الغضب والإفراط فيه السلطان،وذلك لأنه إذا غضب لا رادّ لغضبه ، فإذا أوقع الظلم بالرعية فلا راد لظلمه لذلك (ليس للملك أن يغضب ، لأن القدرة من وراء حاجته).(٤)

ويقول عن مضارّ الغضب (عوّد نفسك الحلم والسكينة والوقار والثبات واجعلها ملكة لها بحيث لا تصل سورة غضبك وقت السخط إلى أن تصير حجاباً لعقلك ورأيك وتذهب بك من شتى أخلاقك الحميدة إلى خلاف العادات المألوفة واحترز من تبعات الغضب المذمومة ونتائجه غير المرضية ... ولا تجز العقوبة في حالة سورة الغضب وفورته فإنه إذا ما أدت بعد ذلك إلى الحزن والندامة لم يتسن له التمكن والقدرة على تلافيها وتداركها . وكثيراً ما يعاقب في حالة سطوة الغضب من لا يستحق العقاب والعذاب ، ولا يكون من الرأي والحزم النكال والبطش به فيتحتم توقع المضار عقب تلك العقوبة في العاجل وتنفي تبعتها وأثمها في الآجل ، وتسبب أنت بتلك الطبيعة والعادة إلى الخفة والذم بين الناس).(٥)

٤ . التواضع:

يحث ابن المقفع على الالتزام بخلق التواضع ونبذ التكبر والاختيال فحتى لو كان المرء صاحب فضل في آرائه وأفعاله لا يحق له أن يعظّم نفسه.والناس هم من يقدر أفضاله وأفعاله

(١) الأدب الكبير ، ص١٠٥.
(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٢.
(٣) الأدب الصغير ، ص ٧٣.
(٤) الأدب الكبير ، ص ١٠٩.
(٥) الأدب الوجيز ، ص ٨١/٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخيّرة وهم الذين ينزلونه المنزلة التي يستحق . وهذا يظهر قيمته الحقيقية لأن الآخرين أقروا بذلك وهو إن افتخر بنفسه وتكبر على الناس بأقواله وأفعاله سيحظى بذم الناس ولن يقروا بشيء مما قال أو فعل فعليك (إن استطعت أن تضع نفسك دون غايتك في كل مجلس ومقام ومقال ورأي وفعل فافعل ، فإن رفع الناس إياك فوق المنزلة التي تحط إليها نفسك وتقريبهم إياك الى المجلس الذي تباعدت منه وتعظيمهم من أمرك مالم تعظّم وتزيينهم من كلامك ورأيك وفعلك ما لم تزين هو الجمال).[١]

ويجعل ابن المقفع التواضع أكرم الأخلاق ، ويذم التكبر لما يجلبه من سوء الظن وقلة الثناء من الناس، وما يوقع صاحبه به من السفه وفساد العقل فيقول (أكرم الأخلاق التواضع .. التواضع يورث المحبة .. الكبر مقرون به سوء الظن).[٢]

ويقول (لا يطمعن ذو الكبر في حسن الثناء).[٣]

ويقول (العجب آفة العقل واللجاجة قعود الهوى ، والبخل لقاح الحرص والمراء فساد اللسان ، والحميّة سبب الجهل ، والأنف توأم السفه).[٤]

٥ . الحسد :

ينهى ابن المقفع عن الحسد لما يجلبه من ضرر ليس لمن يقع عليه وحسب بل للحاسد أيضاً لأنه بحسده هذا يملأ قلبه بنار الحقد والغضب ، فيسبب الحاسد الأذى للآخرين والعذاب لنفسه يقول إبن المقفع (أي بني احذر الحسد ولا تجزه .. ولا ترضى عن نفسك لئلا يصبح الحسد عادة بك ويستقر الظن السيء في طبيعتك فتتسرب إليك أيضاً مضرة هاتين الخصلتين وتعود عليك تبعة ذلك ، ولا تزول مؤونته وتعبه من نفسك ، وقد جاء في كلام الحكماء « أعدل الداء الحسد فإنه لينتصف من الحاسد للمحسود) .[٥]

ويرتبط الحسد باللؤم بل إنه لا يصدر إلا عمّن جبل على الخداع ولؤم الطباع (فمن علامات اللئيم المخادع أن يكون حسن القول سيء الفعل بعيد الغضب قريب الحسد).[٦]

ولهذا يقول ابن المقفع (ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً فإن الحسد خلق لئيم ، ومن لؤمه أنه موكّل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء والمعارف والخلطاء والإخوان).[٧]

---

(١) الأدب الكبير ، ص ١٥١.
(٢) رسالة الأدب ، رسائل البلغاء محمد كرد علي ، ص ١١٤.
(٣) الأدب الصغير ، ص ٨٥.
(٤) المرجع السابق ، ص ٦٨.
(٥) الأدب الوجيز ، ص ٥٨.
(٦) الأدب الصغير ، ص ٧٥.
(٧) الأدب الكبير ، ص ١٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٠٦ الصبر :

يحث ابن المقفع على الالتزام بخلق الصبر خاصة ذلك الصبر الذي يعين على القيام بالأعمال من ناحية كقول ابن المقفع (إن الأعمال لا يستعان عليها إلا بالصبر).(١) والذي يكبح فيه الإنسان غرائزه وأهواءه وشهواته ، والذي يحمله على التصبر إذا ما وقع في مصيبة ما أو تعمدّ شخص إغضابه من ناحية ثانية ولذلك يقول ابن المقفع (ذللّ نفسك بالصبر على جار السوء وعشير السوء وجليس السوء ، فإن ذلك مما لا يكاد يخطئك ... ولكن الصبر الممدوح أن يكون للنفس غلوباً وللأمور محتملاً وفي الضرّاء متحملا ، ولنفسه عند الرأي والحفاظ مرتبطاً وللحزم مؤثراً ، وللهوى تاركاً ، وللمشقة التي يرجو حسن عاقبتها مستخفاً وعلى مجاهدة الأهواء والشهوات مواظباً ولبصيرته بعزمه منفذاً).(٢)

وخير ما يكون الصبر فيما نعجز عن تغييره فما حيلتنا تجاهه إلا الصبر عليه (أحق ما صبر عليه مالا سبيل إلى تغييره).(٣)

والله عندما يبتلي الإنسان بمصيبة ما فإنه إنما يمتحن صبره وثباته فعلى الإنسان إذن أن يتحلى بالصبر ويظهر احتماله وتجلّده ويشكر الله على كل حال (والله عز وجل يضع عملك في ذلك المكروه على محك الامتحان والاعتبار فاعتصم بالصبر والثبات وتشبث بأذيال التجلد والاحتمال ولا تمل عن منهج الشكر القويم والطريق المستقيم إلى طريق الكفران).(٤)

ويحذر ابن المقفع من الضجر وقلة الصبر لأنهما ينفران الأصدقاء ويتجنب الجميع مخالطة قليل الصبر ومعاشرته فيقول (احذر واجتنب الضجر والبرم وقلة الصبر في الأمور و الأخلاق الذميمة ، فإنك بهذه الخصال والعادات المنبوذة – لا يستقيم لك أي صديق ولا تدوم صداقته وينفر منك جميع الناس ويتجنبون مخالطتك).(٥)

٠٧ الشكر على قضاء الحوائج

من الأخلاقيات التي كتب فيها ابن المقفع الشكر على قضاء الحوائج فإذا طلب المرء إحساناً من الآخرين وأجيب له عليه ألا ينكره بل أن يقابله بالثناء والشكر ويجزل في مدح هذا المحسن على عطائه يقول (إذا أحسن إليك منعم وأصبح حق اصطناعه وتربيته لزاماً في ذمتك فلا تجز الكفران فإنه مخبثة لنفس المنعم ولا تستهن بتلك الصنيعة والنعمة .. ولا تقابل ذلك بقلة الثناء والشكر).(٦)

أما المحسن نفسه فعليه إذا سئل حاجة وكان قادراً على قضائها أن يؤديها لطالبها دون

---

(١) يتيمة السلطان – رسائل البلغاء ، ص ١٥٤.
(٢) الأدب الكبير ، ص ١٤٣.
(٣) الأدب الصغير، ص ٨٩.
(٤) الأدب الوجيز، ص ٤٠.
(٥) المرجع السابق ، ص ٤٧.
(٦) المرجع السابق ، ص ٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تكلف ولا تقصير ولا تهاون ودون مماطلة أو تأجيل ، فإن لم يكن قادراً على قضائها فليصرح بذلك خيراً من أن يعد وعداً لا يقدر على الوفاء به لذلك : (إذا رفع إليك أحد حاجة وكنت منجحاً مسئوله ومأموله ومالكاً لقضائه وقادراً على إنجاحه وإنجازه في سهولة بغير تكلف فلا تجز التقصير والتهاون في إسعافه ، واستعمل كرم الخلق ولطف الشيمة في الجواب والسؤال عند بذل المقصود وهيء ذلك المطلوب بتعجيل قضائه والإسراع في نجح الفرص لصاحبه وطالبه ولا تجعله محتاجاً للتردد والمعاودة في طلبه ولا تدعه في قيد الانتظار ، فإذا كنت على خلاف هذه الوصاية ملّ منك الطالبون وأعرض عنك الراغبون وانقطع منك أمل الناس ، وإذا لم تكن قادراً ومالكاً لإنجاح تلك الحاجة وبذل ذلك الملتمس ففرج عن المحتاج تعب الطلب بتصريح اليأس فإن « اليأس إحدى الراحتين » وبيّن له عذرك في صدق عن طريق الرفق وحسن الخلق ، فقد قيل « إن السراح من السماح » أي تسريح السائل بلا أو نعم بغير وعود المطال ودلال التسويف من السخاوة والسماح).[1]

ولا يظن المحسن أنه بإحسانه هذا محسن لطالب العطاء فقط وينفع السائل وحده ، فإنه بهذا العطاء إنما يقدم الخير لنفسه لا للسائلين وذلك لأن شكر الناس له على عطائه سيرفع قدره بينهم ، وينشر ذكره وسيجازيه الله على إحسانه هذا (فإنه من قضى الحوائج لإخوانه واستوجب بذلك الشكر عليهم ، فلنفسه عمل لا لهم ، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده أو لعقبه من بعده).[2]

ويحذر ابن المقفع المحسن من المنّ على الآخرين بإحسانه هذا لأنه بذلك سيخجل السائل وسيضيع إحسانه هباء منثوراً (وإذا أسديت إلى أحد إحساناً وقلدته إنعاماً فأوصل له تلك الصنيعة ورشح له ذلك الإنعام بأن لا تكثر عليه المنة وتعيد ذكر ذلك كل حين فيدعو هذا إلى خجله واستحيائه).[3]

٨ ـ تقديم الفعل على القول

يؤكد ابن المقفع على أهمية الفعل وتميزّه من القول فمن واجب الإنسان أن يعمل وأن يستغل كل فرصة تعود عليه بالنفع والفائدة لا بالاقتصار على القول بل بتقديم الفعل على القول لأن الاقتصار على الوعود وإطلاق الأقوال المختلفة دون تحويلها إلى أفعال حقيقية يدخل صاحبها في أبواب التقصير والإهمال لقول ابن المقفع في ذلك (وإن استطعت ألا تخبر أخاك عن ذات نفسك بشيء إلا وأنت محتجن عنه بعض ذلك التماساً لفضل الفعل على القول استعداداً لتقصير فعل إن قصّر فافعل . واعلم أن فضل الفعل على القول زينة وفضل القول على الفعل هجنة وأن أحكام هذه الخلة من غرائب الخلال).[4]

---

(١) الأدب الوجيز ، ص ٥٢/٥٣.

(٢) رسالة لابن المقفع (إخوانيات) محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ص ١٤١.

(٣) الأدب الوجيز ، ص ٨٠.

(٤) الأدب الكبير ، ص ١٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يريد ابن المقفع القيام بأي فعل بل يريد التشبث بالأفضل لأن اختيار الأفضل فيه ضمان للمنافع ، فلو تعددت الفرص أمامك لتحقيق خير ما عليك الحفاظ عليها جميعاً ، فإذا خيّرت فلتختر الأفضل دون أن تخسر شيئاً من هذه الفرص (ومن أحسن ذوي العقول عقلاً ، من أحسن تقدير أمر معاشه ومعاده تقديراً لا يفسد عليه واحداً منهما نفاد الآخر ، فإن أعياه ذلك رفض الأذى وآثر عليه الأعظم.)[١]

ويمضي ابن المقفع في دعواته للالتزام بمكارم الأخلاق محاولاً إصلاح الفرد والمجتمع معاً جاعلاً سبيل الإصلاح هذا التمسك بفضائل الأخلاق ناثراً دره هنا وهناك فها هو مثلاً يحث على حسن معاملة الآخرين سيما الأقران والأشباه فنحترم من يعلونا منزلة ونلين مع البسطاء منهم دون أن يعد الاحترام خضوعاً واللين ضعفاً يقول ابن المقفع (وقّر من فوقك ولنْ لمن دونك وأحسن مؤاتاة الإخوان).[٢]

وها هو يحث على الالتزام بخلقي البأس والشجاعة عند الإقبال على قتال العدو فلتكن أول من يهاجم الأعداء وآخر من ينصرف عن قتالهم (وأصل الأمر في البأس والشجاعة ألا تحدث نفسك بالإدبار وأصحابك مقبلون على عدوهم ، ثم إن قدرت على أن تكون أول حامل وآخر منصرف من غير تضييع للحذر فهو أفضل).[٣]

وها هو يدعو إلى حفظ الأمانة وعدم إفشاء أسرار الآخرين لما يعود عليه هذا الخلق بالفائدة لصاحبه حين يحظى بتعاون الأصدقاء وتعاضدهم ويزيد من أواصر الألفة والصداقة بينهم (إذا فتح لك أحد باب خزانة أسراره واعتمد عليك في إخفاء حديث أو أمر وعوّل على سدادك وأمانتك في تلك المصلحة فعليك الجهد في كتمانه وإخفائه واجتنب وتحاشَ إعلان ذلك السر وإفشاءه .. واعلم أن اعتياد هذه العادات والتخلق بهذه السجية وسلوك هذه الطريقة التي ذكرت توجب كثرة تعاون وتعاضد الأصدقاء والإخوان ومظاهرة وموافقة الأتراب والأشباه فيعتمدون عليك وتستقر قلوب الأقران على ألفتك وصداقتك وتتهيأ لك منهم أسباب انتفاعك فليس في الدنيا نعمة قط مثل الصديق المخلص والصاحب غير المرائي).[٤]

ويلخص ابن المقفع مكارم الأخلاق التي حثنا عليها في رسائله المختلفة من صدق ووفاء بالعهد وشكر على النعم وكرم وجود ، ورحمة وحفظ للسان وتواضع وقناعة وصفاء نفس حين يجعلها متمثلة في صديق له هو المثل الأعلى للصديق الملتزم بمكارم الأخلاق كلها .

فيقول في أدبه الكبير :(وإني مخبرك عن صاحب لي كان من أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما أعظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه ، كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يتشهى

(١) الأدب الصغير ، ص ٧٤.
(٢) المرجع السابق ، ص ٧٧.
(٣) الأدب الكبير ، ص ٩٨.
(٤) الأدب الوجيز ، ص ٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مالا يجد ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا يدعو اليه ريبة ولا يستخفّ له رأياً ولا بدناً .

وكان خارجاً من سلطان لسانه فلا يقول مالا يعلم ولا ينازع في ما يعلم ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم أبداً على ثقة بمنفعة ، كان أكثر دهره صامتاً فإذا نطق بذّ الناطقين، كان يُرى متضاعفاً مستضعفاً فإذا جاء الجد فهو الليث عادياً ، وكان لا يدخل في دعوى ولا يشترك في مراء ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضياً عدلاً وشهوداً عدولاً ، وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون الغدر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء ، وكان لا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة ، وكان لا يتبرم ولا يتسخّط ولا يتشهّى ولا يتشكّى، وكان لا ينقم على الولي ولا يغفل عن العدو ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته)[1].

وهذه الصورة التي عرضها ابن المقفع للصديق هي صورة المثل الأعلى لا أي صديق وقد سعى ابن المقفع في كل ما صدر عنه من آراء وأفكار للوصول إلى هذا المثل الأعلى ولهذا فهو يعلم بثقل ما يطلب ، ويعلم أن المرء يعجز عن الجمع بين هذه المكارم جميعاً ولذلك يطلب إلينا تطبيق جزء من هذه الأخلاق فهذا خير من تركها جميعها (فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت ولن تطيق ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع).[2]

وابن المقفع فيما يدعونا إليه من أخلاق يحث ويطلب وينهى ولكنه لا يملك إجبار أحد على الالتزام بما يطلب وذلك لأنه يعلم أن سرائر الناس ونيّاتهم لا يملكها إلا الله وقد أورد لنا ابن قتيبة خبراً من كتاب الآيين يثبت ذلك فيقول (قرأت في كتاب الآيين أن بعض ملوك العجم قال في خطبة له « إني إنما أملك الأجساد لا النيات وأحكم بالعدل لا بالرضا وأمحض عن الأعمال لا عن السرائر»).[3]

---

(١) الأدب الكبير ، ص ١٦٤/١٦٥.

(٢) المرجع السابق ، ص١٦٥.

(٣) ابن قتيبة الدينوري ، عيون الأخبار ، ص ٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

البعد السياسي والعرقي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

البعد السياسي والعرقي

إن أصل ابن المقفع الفارسي وشعوبيته، جعلته يرقى بأمة الفرس، ويصورها القدوة والمثل الأعلى الواجب الاحتذاء به، ولم لا والأوائل من أجداده الفرس هم أصحاب العلم والمعرفة والعقول النيّرة، بل إن فضلهم لم يقتصر على أنفسهم وإنما وصل إلينا بما قدموه لنا من كتب ومعارف فيقول (إنا وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظم أجساماً، وأوفر مع أجسادهم أحلاماً، وأشد قوة، وأحسن بقوتهم للأمور إتقاناً، وأطول أعماراً، وأفضل بأعمارهم للأشياء اختباراً، ... فكان صاحب الدين منهم أبلغ في أمر الدين علماً وعملاً من صاحب الدين منا، وكان صاحب الدنيا على مثل ذلك من البلاغة والفضل . ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل الذي قسم لأنفسهم، حتى أشركونا معهم في ماأدركوا من علم الأولى والآخرة فكتبوا به الكتب الباقية وضربوا الأمثال الشافية وكفونا به مؤونة التجارب والفطن) (١).

وبما أن القدماء أصحاب حكمة وتجارب فينبغي الاقتصار في معارفنا وعلومنا على ما قدمه لنا الأوائل فلا داعي إذن لمحاولات التطوير والتجديد، فما قدموه لنا يكفينا مؤونة الجد والتعب يقول ابن المقفع(فمنتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم ،وغاية إحسان محسننا أن يقتدي بسيرتهم، وأحسن مايصيب من الحديث محدّثنا أن ينظر في كتبهم، فيكون كأنه إياهم يحاور ومنهم يستمع وآثارهم يتبع)(٢)

ولم محاولة البحث واستقصاء المعرفة؛ مادام الأسلاف لم يتركوا شيئاً بحاجة لأن يقال فيه

---

(١) الأدب الكبير–ص٩٥

(٢) المرجع السابق ص٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقال؟ فنحن (لم نجدهم غادروا سيئاً يجد واصف بليغ في صفة له مقالاً لم يسبقوه إليه)، بل (لم يبق في جليل الأمر ولا صغيره لقائل بعدهم مقال)[١] فلا يظن المحدثون إذن أنهم يخترعون أو يبتكرون شيئاً جديداً، فمعرفتهم كلها مقتبسة من علوم السابقين، وماعليهم سوى الاستمرار في الاقتباس وإعادة ترتيب وتنسيق ماقاله الأجداد، يقول ابن المقفع (وجلّ الأدب بالمنطق وجلّ المنطق بالتعلّم، ليس منه حرف من حروف معجمه، و لااسم من أنواع أسمائه إلا وهو مروي متعلم مأخوذ عن إمام سابق من كلام أو كتاب ... فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه أو يستحسن منه فلا يعجبن إعجاب المخترع المبتدع، فإنه إنما اجتناه)[٢]

لاشك أن في دعوة ابن المقفع هذه للاقتصار على علوم الأوائل دعوة للتخاذل والتكاسل، وفي هذا أيضاً تعطيل للنشاط الفكري وتحجيم للطموح الإنساني ولو اتبعنا نصيحة ابن المقفع لما تطورت العلوم ولا قامت الحضارات، لكن همّ ابن المقفع في دعوته هذه كان في الأصل موجهاً للسخرية من العرب الذين في نظره لم يمتلكوا الحضارة، ولا الحكمة، ولا التجارب من ناحية ،وفخراً بتراثه الفارسي محاولاً جعل التاريخ الفارسي ونظم الساسانيين وحكمهم وتجاربهم أساساً يسير عليه المجتمع، وجعل أبناء أمته من الفرس قادة للمجتمع بما يمتلكونه من دراية وخبرة.

ويظهر اعتزاز ابن المقفع بتراثه الفارسي بما أورده من حكم الأوائل المنسوبة إلى قائليها أو غير المنسوبة في كل قضية أو رأي يذهب إليه كأن يقول مثلاً(زعم بعض الأولين أن صحبة بليد نشأ مع العلماء أحب إليهم من صحبة لبيب نشأ مع الجهال)[٣]

وتزخر رسائل ابن المقفع بهذه الحكم. وحرصاً من ابن المقفع على الحفاظ على هذا التراث فإنه ينبه إلى ضرورة توخي الصدق والموضوعية في نقل آراء السابقين وحكمهم ،فيقول (ومن أخذ كلاماً حسناً عن غيره فتكلم به في موضعه وعلى وجهه فلا تريّن عليه في ذلك ضؤولة، فإنه من أعين على حفظ كلام المصيبين وهدي للاقتداء بالصالحين، ووفق للأخذ عن الحكماء، ولا عليه أن لا يزداد، فقد بلغ الغاية)[٤]

ويمضي ابن المقفع في عرض آرائه المستمدة من تراثه الفارسي، وتسطع إضاءاته في مجال

---

(١)الأدب الكبير ص٩٦

(٢) الأدب الصغير ص٤٤، ٤٥

(٣)المرجع السابقص٥٥

٤) المرجع السابق ص٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السياسة كما سطعت في المجالين الإجتماعي والأخلاقي. لكن انتماءه العرقي يظهر في السياسة أكثر من ظهوره في الحديث عن المجتمع والأخلاق ... وإن كان الحث على الالتزام بالأخلاق الفاضلة ، ومحاولة إصلاح المجتمع لينعم أفراده بعلاقات سوية فيما بينهم مما ركزت عليه الحكم الفارسية عامة.

وأكثر ما يعنى به ابن المقفع في السياسة الحديث عن السلطان، فإذا كان ابن المقفع يهدف إلى إصلاح المجتمع فالأولى أن يبدأ أولاً بإصلاح رأس المجتمع وهو السلطان .

السلطان

لعل معرفة ابن المقفع بسير الفرس المتمرسين بسياسة الحكم والحكام، وقربه هو نفسه من الحكام يكتب لهم ويتقرب إليهم ويناصرهم، مكنه من المبادرة دائماً لنصح الحكام وإرشادهم لاتباع سياسة حكيمة في الحكم فيدعوهم إلى(الإكثار من العمل والتعوّذ بالعلماء، وعدم الاستسلام للشهوة والدعة والاعتزاز بالمديح)(١)

ويحث ابن المقفع السلطان أكثر ما يحثه على التمسك بالدين وإعلاء كلمة الله فالملك والدين توأمان لافاصل بينهما، ذلك أن الملك إذا أقام للرعية دينهم سيكسب رضى الله عز وجل، وسيحظى بطاعة الرعّية يقول ابن المقفع (ليعلم الوالي أن الناس على رأيه إلا من لابال له. فليكن للدين والبر والمروءة عنده نفاق فيُكسد بذلك الفجور، والدناءة في آفاق الأرض)(٢)

ويقول (اعلم أن الملك ثلاثة:ملك دين،وملك حزم، وملك هوى، فأما ملك الدين فإنه إذا أقام للرعية دينهم، وكان دينهم هو الذي يعطيهم الذي لهم ويلحق بهم الذي عليهم أرضاهم ذلك وأنزل الساخط منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم .وأما ملك الحزم فإنه يقوم به الأمر ولا يسلم من الطعن والتسخّط ولن يضر طعن الضعيف مع حزم القوي. وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر)(٣)

ونجد صدى لهذه الدعوة التي يدعوها ابن المقفع للملوك في عهد أردشير مما يدلّ على اعتماد ابن المقفع على تراثه الفارسي في كل مايدعو إليه من آراء فقد ورد في عهد أردشير

---

(١) جورج غريب عبد الله بن المقفع دراسة في الأدب والتاريخ دار الثقافة بيروت لبنان ص٤٨

(٢) الأدب الكبير ص ١١٣

(٣) المرجع السابق ص١٠٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(اعلموا أن الملك والدين توأمان لاقوام لأحدهما إلا بصاحبه لأن الدين أسٌّ الملك وعماده. وصار الملك بعد حارس الدين، فلابد للملك من أسِّه، ولابد للدين من حارسه، فإن مالاحارس له ضائع، وإنّ مالا أسَّ له مهدوم) (١)

كما ورد هذا الربط بين الملك والدين وضرورة تمسك السلطان بالدين وحفاظه عليه في رسالة تنسر حيث نجد قولاً شديد الصلة بما ورد في عهد أردشير مفاده (إن الدين والملك توأمان لاينفصلان أبداً ويعتريهما الصلاح والفساد والصحة والسقم)(٢)

ويضع ابن المقفع حداً فاصلاً لطاعة الخليفة أو السلطان وهو حمايته للدين وإعلاء كلمة الله، فإن طاعة السلطان غير واجبة في المعصية في حين هي لازمة واجبة للإمام العادل الذي يقود أمته إلى الغايات المثلى، ويحاول هدايتها إلى سواء السبيل ... قال ابن المقفع في رسالة الصحابة(فأما إثباتنا للإمام الطاعة فيما لا يطاع فيه غيره فإن ذلك في الرأي والتدبير، والأمر الذي جعل الله أزمّته وعراه بأيدي الأئمة، ليس لأحد فيه أمر ولا طاعة من الغزو، والقفول، والجمع، والقسم، والاستعمال، والعزل، والحكم بالرأي، فيما لم يكن فيه أثر، وإمضاء الحدود والأحكام على الكتاب والسنة، ومحاربة العدو ومخادعته والأخذ للمسلمين والإعطاء عليهم)(٣)

بل إن الرعية كلها لا تصلح إلابصلاح راعيها وصلاح إمامها وتفسد بفساده، ولاشك أن هذا الرأي أثر فارسي واضح، وذلك لأن الملك الساساني كان يستمد سلطته من الله وبالتالي فقد (كان كلام الملك مقدساً لا ينقض)(٤) ومن هنا فصلاحه يعني صلاح الرعية كلها، وفساده يعني فساد الرعية كلها. يقول ابن المقفع (وقد علمنا علماً لا يخالطه شك أن عامة قط لم تصلح من قبل أنفسها، ولم يأتها الصلاح إلا من قبل خاصّتها، وأن خاصّة قط لم تصلح من قبل أنفسها، وأنها لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها) (٥)

وقد وصف ابن المقفع الزمان الذي يصلح فيه الراعي، وتصلح فيه الرعية، أنه خير الأزمنة فيؤدي كلٌ من الراعي والرعية واجباته تجاه الآخر لا ينقص منها شيئاً، فيوفر الراعي للرعية الأمن والحماية بقتال أعدائهم، ويولي عليهم صلحاء الناس ، ويعدل بينهم، ويوفر لهم رزقاً طيباً، ويأخذ

(١) عهد أردشير، تجارب الأمم ص٥٨

(٢) رسالة تنسر ص٢٧

(٣)رسالة الصحابة جمهرة رسائل العرب ص٣١

(٤) آرثر كريستنسن، ايران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب ،مراجعة عبد الوهاب عزام ، دار النهضة للطباعة والنشر بيروت ص٢٨٦

(٥)ابن المقفع رسالة الصحابة جمهرة رسائل العرب ،ص٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهم حق الله عليهم بإرساء قواعد الدين والحكم بأمر الله.أما الرعية فإنهم سيقدمون للراعي النصيحة والود والطاعة، بل إنهم سيعينونه على أنفسهم ويضربون على يد كل من يخلّ بحقوقه (غير مؤثرين في ذلك آباءهم ولا أبناءهم ولا لا بسين عليه أحداً)(١)

فإن صلح الراعي وفسدت الرعية، ولم تجدِ محاولات الراعي لإصلاح هذه الرعية الفاسدة المصرة على الخذلان والمخالفة، فقد استحقت هذه الرعية غضب الله عليها (فبالحري أن يؤخذ وا بأعمالهم، وما أخلقهم أن تصيبهم فتنة أوعذاب أليم)(٢)

ولكن ما الحال مع فساد السلطان وصلاح الرعية ؟ إن هذا الحال أشد خطراً من سابقه، وذلك لأن السلطان إذا كان صالحاً يستطيع بما يملك من هيبة وسلطان أن يصلح الناس في حين يعجز الناس عن ذلك لما يمتلكه من جاه وسلطان إذا كان هو الفاسد (وقد عرفنا فيما يعتبر به أن ألف رجل كلهم مفسد وأميرهم مصلح، أقل فساداً من ألف رجل كلهم مصلح وأميرهم مفسد والوالي إلى أن يصلح الله به الرعية أقرب من الرعية إلى أن يصلح بهم الوالي، وذلك لأنهم لا يستطيعون معاتبته وتقويمه مع استطالته بالسلطان والحمية التي تعلوه)(٣)

ويرى ابن المقفع الطامّة الكبرى في اجتماع فساد الراعي وفساد الرعية فهذا الزمان ابتلاء من الله وقد نعته ابن المقفع بأنه شر الأزمنة يقول (وشر الزمان ما اجتمع فيه فساد الوالي والرعية، وتلك كارثة لم يتقادم عهد كونها ولم تعف عنكم آثارها)(٤)

وينثر ابن المقفع إرشاداته ونصائحه حول ضرورة صلاح السلطان ليصلح الزمان والرعية هنا وهناك في شتى رسائله، لأن أمر الرعية كلها معلق برقبة السلطان فيقول (لاصلاح لرعية واليها فاسد)(٥) ويقول (فساد الوالي أضر بالرعية من جدب الزمان)(٦)

ويطلب ابن المقفع من السلطان التحلي بأكرم الأخلاق كالصبر، والصدق، والكرم، وحسن التدبير، والتخلي عن الغضب، والحقد، والتكبر، والخيلاء، لأنه قدوة الجميع، والملك

---

(١) الرسالة اليتيمة – جمهرة رسائل العرب ص٥٠

(٢) المرجع السابق ص٥٠

٣– المرجع السابق ص٥٠–٥١

٤– المرجع السابق ص٥٠

٥– محمد كرد علي رسائل البلغاء رسالة الادب– ط٣ – لجنة التأليف والترجمة والنشر– القاهرة ١٩٤٦ ص١١٣

٦– رسالة الأدب رسائل البلغاء ص١١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القدوة هو من يؤدي أعماله على أكمل وجه فلا يغضب، ولايتسرع في أحكامه، بل يتعقل ويقدم حكمه ورأيه الحكيم على العقاب. وهو الملك الذي لايكذب، وذلك لأن أحداً من الناس لايملك أن يكرهه على الكذب، ولا يكون بخيلاً، فلماذا يخاف على ماله وعلى نفسه من الفقر وهو ملك ... وينبغي ألاّ يكون الملك حقوداً أو يضمر الكراهية في نفسه لأي من الناس فهو القادر على فرض أي شيء يريده على الناس الذين يحاولون دائماً تحري رضاه ومجاراته. وعليه ألاّ يكثر من القسم بالله لأنه ليس بالوضيع ولا الذليل الذي يحتاج لتصديق الناس له ،ولا هو عيّي الكلام الذي يحشو كلامه بالأيمان، ولاهو متهم ينفي التهمة عن نفسه بجهد الأيمان، ولا هو عديم التقدير قليل التفكير فيرسل لسانه بالقسم دون روية أو حسن تدبير .يقول ابن المقفع في هذا (ليس للملك أن يغضب لأن القدرة من وراء حاجته، وليس له أن يكذب لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على غير ما يريد، وليس له أن يبخل لأنه أقل الناس عذراً في تخوف الفقر ، وليس له أن يكون حقوداً لأن خطره قد عظم عن مجاراة كل الناس، وليس له أن يكون حلافاً لأن أحق الناس باتقاء الأيمان الملوك)[1] ويقول (أخوف الأحقاد أحقاد الملوك)[2]

وينهى ابن المقفع السلطان عن الحسد فلم يحسد السلطان من دونه من الناس، وهو يملك كل الذي يملكه من جاه ومال وسلطة وعلو شأن. يقول(لاينبغي للوالي أن يحسد الولاة إلا على حسن التدبير، ولا يحسدن الوالي من دونه، فإنه أقل في ذلك عذراً من السوقة التي إنما تحسد من فوقها وكلٌ لا عذر له)[3]

وعلى السلطان أن يوازن بين واجباته تجاه حكمه ورعيته، وواجباته تجاه أهله وتجاه نفسه فيقول (إنما الرأي له «للسلطان» والحق عليه أن يأخذ لعمله من جميع شغله، فيأخذ له من طعامه، وشرابه، ونومه، وحديثه، ولهوه، ونسائه، وإنما تكون الدعة بعد الفراغ)[4]

وبما أن ابن المقفع ينطلق في آرائه حول السلطان من أرضية فارسية،ويُحكّم قوانين الفرس وأنظمتهم في كل مايذهب إليه. فإن أخلاق الملوك التي وجه ابن المقفع إليها واردة فيما وصلنا

١-الأدب الكبير ص١٠٩

٢- رسالة الادب -رسائل البلغاء ص١١٤

٣- الادب الكبير ص١١٢

٤- المرجع السابق ص١٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الكتب الفارسية التي تصف ملوك فارس وأخلاقها وأنظمتها وسياساتها فقد ورد في عهد أردشير حول أخلاق الملك (ثم اعلموا أنه ليس للملك أن يبخل لأنه لا يخاف الفقر، وليس له أن يكذب لأنه لا يقدر أحد على استكراهه، وليس له أن يغضب لأن الغضب والعداوة لقاح الشر والندامة، وليس له أن يلعب ولا يعبث، لأن العبث واللعب من عمل الفُرّاغ وليس له أن يفرغ لأن الفراغ من أمر السُوَق،وليس له أن يحسد إلا ملوك الأمم على حسن التدبير ، وليس له أن يخاف لأن الخوف من المعور،وليس له أن يتسلط إذ هو معور)[١]

والملوك هم الأحوج لمحاكمة أنفسهم قبل إصدار أي حكم، فعلى الملك أن يقلب الأمور من كافة الوجوه قبل أن يبت فيها، وعليه أن يتجرد في أحكامه، ويتنصل من الهوى، وذلك حتى يحقق العدل في كل أحواله. يقول ابن المقفع (كل أحد حقيق حين ينظر في أمور الناس أن يتهم نظره بعين الريبة، وقلبه بعين المقت، فإنهما يزينان الجور، ويحملان على الباطل ويقبحان الحسن ويحسنان القبيح . وأحق الناس باتهام نظره بعين الريبة وعين المقت السلطان الذي ماوقع في قلبه ربَا مع مايُقيّض له من تزيين القرناء والوزراء. وأحق الناس بإجبار نفسه على العدل في النظر والقول والفعل الوالي ماقال أو فعل كان أمراً نافذاً غير مردود)[٢]وعلى السلطان أن لا يتعجل في إصدار أحكامه سواء كانت ثواباً أم عقاباً، وليتبع الرويّة في ذلك، فإن هذا يجعله حازماً في عين المذنب وعادلاً في عين المظلوم. يقول ابن المقفع (ليعرف الناس في ما يعرفون من أخلاقك أنك لاتعاجل بالثواب ولا بالعقاب فإن ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي)[٣]

بل على السلطان أن يتثبت ويتحقق من قوله وعمله وعطائه، قبل أن يعطي أو يعمل أو يقول فإصلاح الأمر قبل صدوره وشيوعه أمام الناس، خير من إصلاحه بعد معرفتهم به. يقول ابن المقفع (لا يضيّعن الوالي التثبت عندما يقول وعندما يعطي وعندما يعمل . فإن الرجوع عن الصمت، أحسن من الرجوع عن الكلام . وإن العطية بعد المنع أجمل من المنع بعد الإعطاء ،

١- عهد أردشير تجارب الامم ص٦٤

٢- الادب الكبير ص١١٠-١١١

٣- المرجع السابق ص١٠٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإن الإقدام على العمل بعد التأني فيه أحسن من الإمساك عنه بعد الإقدام عليه. وكل الناس محتاج إلى التثبت وأحوجهم إليه ملوكهم الذين ليس لقولهم وفعلهم دافع وليس عليهم مُستَحِث)[1]

ويوصي ابن المقفع السلطان بالحذر من مدح الناس له ،فإذا علم الناس حبه للمدح تجرأوا عليه ، وعدوا ذلك عيباً فيه ومدخلاً للغيبة والضحك منه، وعلى الحاكم أن يتحرى رضى الله أولاً ثم رضى الرؤساء عليه ثم رضا الصالحين ممن يحكم. يقول ابن المقفع (وإياك إذا كنت والياًأن يكون من شأنك حب المدح والتزكية ، وأن يعرف الناس ذلك منك ، فتكون ثلمة من الثلم يقتحمون عليك منها ، وباباً يفتتحونك منه ، وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منك لها واعلم أن قابل المدح كمادح نفسه، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذي يحمله على رده فإن الرّاد له محمود. والقابل له معيب: لتكن حاجتك في الولاية إلى ثلاث خصال: رضى ربك، ورضى سلطان إن كان فوقك،ورضى صالح من تلي عليه)[2]

ويحذر ابن المقفع من التكبر والجهل لما يجلبه من شر للوالي ويعرّضه للتسفيه ومحاولات إبراز جهله للآخرين . ولهذا فإنه يمدح المنصور في رسالة الصحابة لعلمه وتحريه الدقة فيما يصدر عنه من أقوال، ودعمه أقواله بالحجة والدليل، دون أن يغتر بعلمه هذا، بل يستمع ويسأل دون أن ينقص ذلك من شأنه شيئاً يقول ابن المقفع(إن أمير المؤمنين – حفظه الله– يجمع مع علمه المسألة والاستماع، كما كان ولاة الشر يجمعون مع جهلهم العُجب والاستغناء، ويستوثق لنفسه بالحجة، ويتخذها على رعيته فيما يلطف له من الفحص عن أمورهم . كماكان أولئك يكتفون بالدَّعة ويرضون بنصوص الحجة، وانقطاع العذر في الامتناع أن يجترئ عليهم أحدٌ برأي أو خير مع تسليط الذئاب)[3]

ويرشد ابن المقفع الملك إلى ضرورة تقسيم وقته وإلى توفير الراحة لنفسه رغم تراكم الأعمال وكثرتها، فليجعل السلطان وقتاً لعمله ووقتاً لدعته يقول ابن المقفع (واعلم أن مالك لا يغني الناس كلهم فاخصص به أهل الحق. وإن كرامتك لا تطيق العامة كلها، فتوخ بها أهل

١-الأدب الكبير ص١١٢

٢-المرجع السابق، ص١٠٢

٣- رسالة الصحابة- جمهرة رسائل العرب ص٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفضل .وأن قلبك لا يتسع لكل شيء ففرغه للمهم. وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك وإن دأبت فيهما. وأن ليس لك إلى إدامة الدأب فيهما سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه منهما، فأحسن قسمتهما بين عملك ودعتك)[١]

كما حث ابن المقفع الملك على الابتعاد عن الترف، لهذا فهو يمدح المنصور لتجنبه الترف فيقول في رسالة الصحابة (وأن يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب زي المترفين وشكلهم مثل الذي يأخذ به أمير المؤمنين في أمر نفسه، ولا يزال يَطلعُ من أمير المؤمنين ويخرج منه القول بما يُعَرِّف مقته للإتراف والإسراف وأهلهما ومحبته القصد والتواضع ومن أخذ بهما)[٢] ونجد صدى لهذه الدعوة في رسالة تنسر فقد ورد فيها أن الملك منع الأمراء من التبذير والإتلاف حتى لا يحتاجوا للمهنة، وبالتالي تختلط طبقات المجتمع وهذا مالا تجيزه قوانين المجتمع الساساني ،كذلك فإن الملك ألزم رجال الجيش بهذا الأمر (إذ لو ألقي الحبل للناس على الغارب لا تبع كل منهم هواه وليس للهوى نهاية ولا غاية ،فيميلون إلى اتخاذ مالا يوفي مالهم به ويسرعون إلى الفقر، ويقعون في الحاجة وإذا افتقرت الرعية خلت خزانة الملك ولم يجد نفقة المقاتلة ويضيع منك الملك)[٣] ونجد شبهاً أيضاً لهذه الدعوة في عهد أردشير فقد ورد فيه (واعلموا أن لباس الملك ومطعمه مقارب للباس السوقة ومطعمهم، وبالحريّ أن يكون فرحهما بما نالا من ذلك واحداً، وليس فضل الملك على السوقة إلا بقدرته على اقتناء المحامد واستفادة المكارم فإن الملك إذا شاء أحسن وليس السوقة كذلك)[٤]

صحابة السلطان

يوجه ابن المقفع السلطان إلى مايثبت حكمه ويقويه ويعينه على القيام بالأعباء الموكولة إليه. وأول هذه الأمور وأهمها حسن اختيار البطانة، والاجتهاد في انتقائها وبيان واجباتها المطلوبة منها، ووجوه الأمور والأعمال التي يتعين عليها أداؤها ،حتى لو كانت هذه البطانة من

١-الأدب الكبير ص١٠٥

٢- رسالة الصحابة- جمهرة رسائل العرب ص٣٣

٣-رسالة تنسر ص٤٨

٤-عهد أردشير تجارب الامم ص٦٤

٥- رسالة الادب- رسائل البلغاء ص١١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذوي الأمانات والألباب ، فإذا أصاب السلطان باختيار بطانته، وصف برجاجة العقل وسداده (اعتبر عقل الوالي بإصابته موضع أصحابه)[١]

وليجعل السلطان قانوناً ثابتاً للثواب والعقاب في تعامله معهم يقول ابن المقفع (على الوالي أربع خصال هي أعمدة السلطان وأركانه التي بها يقوم وعليها يثبت: الاجتهاد في التخيّر، والمبالغة في التقدم ، والتعهّد الشديد، والجزاء العتيد)[٢]

ويقول في حاجة السلطان إلى معرفة من يريد الاستعانة به معرفة دقيقة (وأعمال السلطان كثيرة ،وقليل ما تستجمع الخصال المحمودة عند أحد ،وإنما الوجه في ذلك والسبيل الذي به يستقيم العمل أن يكون صاحب السلطان عالماً بأمور من يريد الاستعانة به، وما عند كل رجل من الرأي والغناء وما فيه من العيوب)[٣]ويضع لنا ابن المقفع الأسس التي ينبغي أن يقوم عليها اختيار البطانة الصالحة في رسالة الصحابة فيقول (ولصحابة أمير المؤمنين – أكرمها لله–مزية وفضل وهي مكرمة سنيّةٌ حريّة أن تكون شرفاً لأهلها، وحسباً لأعقابهم، حقيقةٌ أن تصان وتُحظر. ولا يكون فيها إلا رجل بَدَر بِخَصْلةٍ من الخصال ، أو رجلٌ له عند أمير المؤمنين خاصة بقرابة أو بلاء، أو رجل يكون شرفه ورأيه وعمله أهلاً لمجلس أمير المؤمنين وحديثه ومشورته، أو صاحب نجدة يُعرَف بها ويستعدُّ لها، يجمع مع نجدته حسباً وعفافاً، فيُرفَع من الجند إلى الصحابة ، أو رجل فقيه مُصْلح يوضَع بين أظهر الناس لينتفعوا بصلاحه وفقهه، أو رجل شريف لا يُفسد نفسه أو غيرَها، فأما من يتوسَّل بالشفاعات فإنه يكتفي أو يُكتفى له بالمعروف والبر فيما لا يهجّن رأياً ولا يُزيل أمراً عن مرتبته، ثم تكون تلك الصحابة المخلصة على منازلها ومداخلها)[٤]

فيلاحظ هنا أن ابن المقفع يشترط في صاحب السلطان أن يكون من أقارب السلطان أو ممن أبلى البلاء الحسن في طاعته، وأن يكون عالماً عرف برأيه وعمله، وأن يكون من أهل الحسب والعفة والنجدة والشرف، وأن يكون فقيهاً يصلح الناس ويفقههم.

وأجاز ابن المقفع تأثراً بنظام الطبقات في المجتمع الفارسي انتقال من يظهر النجدة والكفاءة مع حسبه وعفافه من طبقة الجند إلى طبقة الصحابة،مع احتفاظ صحابة السلطان بمراتبها ومنازلها

١-رسالة الأدب – رسائل البلغاء ص١١٣

٢- الادب الصغير ص٥٨

٣- المرجع السابق . ص٥٩

٤-رسالة الصحابة- جمهرة رسائل العرب ص٤٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطبقاتها، فقد ورد في رسالة تنسر عند الحديث عن نظام الطبقات في المجتمع الساساني (ولا يجوز مطلقاً أن ينتقل أحد من طبقة إلى أخرى، إلا أن يلاحظ في امرئ أهلية شائعة، فإن أمره يعرض على الملك بعد اختبار الموابذة والهرابذة إياه وطول مشاهدتهم له فإذا رأوه مستحقاً أمر الملك بإلحاقه بغير طبقته)(١)

صحيح أن الملك قد يخدع ببعض الناس ويقرّب إليه بعض الأشرار، لما زينوا به أنفسهم وبما أظهروا له من الود، ولكن لايحدث هذا بالتأكيد مع كل بطانة الملك . فالملك ينبغي أن يكون فطناً ذا فراسة ودراية بأحوال الناس ليقرّب إليه البطانة الأفضل ، وعليه ألا ينخدع بمن ينافقون له. يقول ابن المقفع (إن استطعت أن تجعل صحبتك لمن قد عرفك بصالح مروءتك وصحة دينك وسلامة أمورك قبل ولايته فافعل، فإن الوالي لاعلم له بالناس إلا ما قد علم قبل ولايته، أما إذا ولي فكل الناس يلقاه بالتزيُّن والتصنع، وكلهم يحتال لأن يثنى عليه عنده بما ليس فيه .غير أن الأنذال والأرذال هم أشدّ لذلك تصنعاً وأشدّ عليه مثابرة ومنه تمحّلاً، فلا يمتنع الوالي وإن كان بليغ الرأي والنظر من أن ينزل عنده كثير من الأشرار بمنزلة الأخيار، وكثير من الخانة بمنزلة الأمناء ،وكثير من الغدرة بمنزلة الأوفياء .ويُغَطّي عليه أمر كثير من أهل الفضل الذين يصونون أنفسهم عن التمحّل والتصنّع)(٢)

ونجد هذا التحذير ممن لا يخلص النصيحة للملك من الوزراء والأخدان والأنصار والأصحاب في عهد أردشير فقد ورد فيه (وقد علمت أنكم ستبلون مع الملك بالأزواج والأولاد والقرناء والوزراء والأخدان والأنصار والأصحاب والأعوان والمتنصحين والمتقربين والمضحكين والمزينين : كل هؤلاء–إلا قليلاً– أن يأخذ لنفسه أحب إليه من أن يعطي منها، وإنما عمله لسوق يومه، وحياة غده، فنصيحته للملوك فضل نصيحته لنفسه، وغاية الصلاح عنده صلاح نفسه، وغاية الفساد عنده فسادها .... يقيم للسلطان سوق المودة ما أقام سوق الأرباح)(٣)

وينبه ابن المقفع السلطان إلى ضرورة أن يثق بمن حوله من أعوان، فالسلطان إذا لم يثق

١–رسالة تنسر ص٣٥

٢–الأدب الكبير ص١١٥

٣–عهد أردشير – تجارب الأمم ص٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأعوانه الذين يفرضون هيبته على الناس ليخافوه، فإنه هو نفسه يشعر بالضعف أمامهم يقول ابن المقفع في ذلك (إذا كنت إنما تضبط أمورك وتصول على عدوك بقوم لست منهم على ثقة من دين ولا رأي ولا حفاظ من نيّة، فلا تنفعنك نافعة حتى تحوّلهم إن استطعت إلى الرأي والأدب الذي بمثله تكون الثقة أو تستبدل بهم، إن لم تستطع نقلهم إلى ما تريد، ولا تغرّنك قوتك بهم على غيرهم، فإنما أنت في ذلك كراكب الأسد الذي يهابه من نظر إليه وهو لمركبه أهيب)[١] وقد كرر ابن المقفع هذا التنبيه في رسالة الصحابة حين قال (ومن كان إنما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والسيرة، فهو كراكب الأسد الذي يوجل من رآه، والراكب أشد وجلاً)[٢]

وليثق السلطان بأعوانه لابد أن يكون هؤلاء الأعوان بطانة صالحة لاسيئة وذلك حتى تعينه هذه البطانة على إصلاح عامة الناس من ناحية، وحتى يخلصوا له النصيحة إذا شاورهم من ناحية ثانية. وعن قيام البطانة الصالحة بإصلاح العامة يقول ابن المقفع (وقد علمنا علماً لا يخالطه شك أن عامة قط لم تصلح من قبل أنفسها، ولم يأتها الصلاح إلا من قبل خاصتها ، وأن خاصة قط لم تصلح من قبل أنفسها وأنها لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها)[٣]

وقد ورد المعنى ذاته حول قيام الملك بإصلاح الخاصة لتقوم بدورها بإصلاح العامة في عهد أردشير (وعليه أن يتقي بطانة السوء أشد من اتقائه عامة السوء ،ولا يطمعّن ملك في إصلاح العامة إذا لم يبدأ بتقويم الخاصة)[٤]

أما الشورى فيرى ابن المقفع ضرورة أن يتوجه السلطان إلى بطانته الصالحة بالمشورة فهذه الشورى لا تنقص من قيمته، لأنه إنما استشار من يقدر قيمة الشورى ويعرف فضلها يقول ابن المقفع :(اعرف الفضل في أهل الدين والمروءة في كل كورة وقرية وقبيله فليكونوا هم إخوانك وأعوانك وأخدانك وأصفياءك وبطانتك وثقاتك وخلطاءك، ولا يقذفن في روعك أنه إن استشرت الرجال ظهر للناس فيك الحاجة إلى رأي غيرك ،فإنك لست تريد الرأي للافتخار به،

١-الأدب الكبير ص١٠٨-١٠٩

٢- رسالة الصحابة جمهرة رسائل العرب ، ص ٢٩.

٣- المرجع السابق ، ص٤٦.

٤- عهد أردشير تجارب الأمم ، ص ٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنما تريده للانتفاع به ولو أنك مع ذلك أردت الذكر ، كان أحسن الذكرين وأفضلهما عند أهل الفضل والعقل أن يقال :لايتفرد برأيه دون استشارة ذوي الرأي)[١]

ويشير ابن المقفع إلى أهم الواجبات الواجبة على السلطان تجاه رعيته وهو تفقد أحوالهم وأمورهم ، والحرص على نيل رضا الرعية، الخيّر منهم والسافل والكريم واللئيم منهم. فإنه بذلك لاتخفى عليه خافية مما يحدث في أي بقعة من البقاع التي يحكمها لذلك يقول (حق الوالي أن يتفقد لطيف أمور رعيته فضلاً عن جسيمها)[٢] ويقول أيضاً (على الملوك تعاهد عمالهم وتفقد أمورهم حتى لا يخفى عليهم إحسان محسن ولا إساءة سيء)[٣] ويكرر المعنى ذاته فيقول (احرص الحرص كله على أن تكون خابراً أمور عمالك، فإن المسيء يفرق من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك وإن المحسن يستبشر بعلمك قبل أن يأتيه معروفك)[٤]

ويقول أيضاً (ليتفقد الوالي فيما يتفقد من أمور رعيته فاقة الأخيار والأحرار منهم،فليعمل في سدها. وطغيان السفلة منهم، فليقمعه وليستوحش من الكريم الجائع واللئيم الشبعان، فإنما يصول الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع)[٥]

وعلى السلطان أن يستعين بالوزراء والأعوان الثقات لمعرفة أخبار رعيته، ويركز ابن المقفع على الاستعانة بالثقات فيقول في رسالة الصحابة (ومن جماع الأمر وقوامه بإذن الله أن لا يخفى على أمير المؤمنين شيء من أخبارهم وحالاتهم وباطن أمرهم ،بخراسان والعسكر والأطراف، وأن يحتقر في ذلك النفقة ولا يستعين فيه إلا بالثقات النُصّاح)[٦] واختار ابن المقفع أن يكون عيون الملك من الثقات لأنهم لا ينقلون الأخبار للسلطان وحسب، وإنما يؤدبون الناس ويقومونهم ويقومون على نصحهم بما فيه خير لهم ، ويبصّرون المخطيء،وينهون عن اتباع البدع ويحذرون من الفتن، فيفيد صاحب الأمر من ذلك أمرين (أحدهما رجوع أهل الفساد إلى الصلاح وأهل الفرقة إلى الألفة،والأمر الآخر أن لا يتحرك متحرك في أمر من أمور العامة، إلا وعين ناصحة ترمقه ولا يهمس هامس إلا وأذن شفيقة تصيخ نحوه وإذا كان ذلك لم يقدر أهل الفساد على

١-الأدب الكبير ، ص ١٠٣.

٢-المرجع السابق ، ص١١١.

٣-الأدب الصغير ص٦٠

٤-الأدب الكبير ص١٠٤

٥-المرجع السابق ص١١١

٦- رسالة الصحابة ص٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تربيض الأمور وتلقيحها، وإذا لم تُلقَّح كان نتاجها بإذن الله مأموناً)[١]

وقضية الاستعانة بالثقات من غير الوزراء والأخدان لها صدى في التراث اليوناني فالمحتسب كان يعهد إليه مراقبة العامة في أنديتهم ومجالسهم وأسواقهم .[٢]

كما أنها وردت في التراث الفارسي فقد ورد في رسالة تنسر :(وأما كتابتك أن الملك قد نصّب على أهل المملكة الجواسيس والمنهين، وأن الناس منهم في رعب وحيرة فاعلم أنه لا خوف على الأبرياء والمخلصين من هذا ،فإن عيون الملك والمنهين إليه لا يعينون إلا إذا كانوا من الصالحين الأتقياء الأمناء العلماء المتدينين الزاهدين، ليصدر مايعرضون على الملك عن تثبت ويقين) [٣] وورد في عهد أردشير (واعلموا أن مصير الوالي إلى غير أخدانه وتقريبه غير وزرائه لأبواب الأنباء المحجوب عنه علمها وقد قيل إذا استوحش الوالي ممن لم يوطن نفسه عليه أطبقت عليه ظُلَم الجهالة)[٤]

ولاشك أن هذه الآراء وغيرها من الحكم والأخبار التي يوردها ابن المقفع في مؤلفاته، وفيما ترجمه من الكتب الفارسية يدل على معرفته الواسعة، وعلى ثقافته الفارسية بل إن البلاذري ينقل أخباراً تتعلق بمعرفة ابن المقفع كل ما يتعلق بخاتم الملك الفارسي .[٥]

طريقة التعامل مع السلطان :

يناقش ابن المقفع في رسائله جميع الأمور المتعلقة بالسلطان فما هو هنا يناقش قضية طاعة السلطان ففي رسالة الصحابة يركز مثلاً على عبارة(لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) ويرى ابن المقفع أن القوم الذين يطلقون العبارة هذه دون تحديد مخطئون ،ذلك لأنهم يساوون بين طاعة الإمام وطاعة غيره من الناس، وذلك لأنهم سيعصون الإمام فقط إذا أمرهم بمعصية الله، فإذا أمرهم بطاعة الله سيطيعونه (فإذا كان الإمام يعصى في المعصية، وكان غير الإمام يطاع في الطاعة، فالإمام ومن سواه على حق الطاعة سواء) [٦]

أما من يطيع الإمام طاعةعمياء دون ربطها بمعصية الله أو طاعته ،فهؤلاء لا يوافقهم ابن

١-رسالة الصحابة٤٦

٢- عمر الدقاق – ملامح النثر العباسي – دار الشرق العربي ، بيروت – ص ٦٢.

٣-رسالة تنسر ص٤٩

٤-عهد أردشير -تجارب الأمم ص٥٩

٥- أبو الحسن البلاذري- فتوح البلدان ط١: إشراف لجنة تحقيق التراث منشورات مكتبة الهلال بيروت لبنان ١٩٨٢ ص٤٤٦

٦- رسالة الصحابة ص٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقفع أيضاً.... فالطاعة التي يريدها ابن المقفع هي الطاعة التي تكون في الأمور التي لا يملك زمامها إلا الإمام (فأما إثباتنا للإمام الطاعة فيما لا يطاع فيه غيره ، فإن ذلك في الرأي والتدبير والأمر الذي جعل الله أزمّته وعراه بأيدي الأئمة، ليس لأحد فيه أمر ولا طاعة من الغزو، والقفول، والجمع، والقسم ،والاستعمال، والعزل ،والحكم بالرأي، فيما لم يكن فيه أثر، وإمضاء الحدود والأحكام على الكتاب والسنة، ومحاربة العدو ومخادعته ، والأخذ بالمسلمين، والإعطاء عليهم . وهذه الأمور وأشباهها من طاعة الله عز وجل الواجبة، وليس لأحد من الناس فيها حق إلا الإمام ، ومن عصى الإمام فيها أوخذ له فقد أوتغ نفسه)[١]

أما بالنسبة لمعصيةالإمام في معصية الله (فإنما ذلك من عزائم الفرائض والحدود التي لم يجعل الله لأحد عليها سلطاناً، ولو أن الإمام نهى عن الصلاة ،والصيام ،والحج،أو منع الحدود، وأباح ماحرم الله، لم يكن له في ذلك أمر)[٢]

ولكن ابن المقفع رغم تحديده للأمور التي يطاع فيها الإمام ،والأمور التي توجب معصيته يرى صعوبة التعامل مع السلطان عامة، ذلك لأن الملوك سريعو الغضب، ويصعب نيل رضاهم ، فحتى لو حصل المرء على رضا الملك في لحظات معينة، فعليه ألا يأخذه الغرور، وليعلم أن غروره هذا و تكبره سيقوده إلى الموت. يقول ابن المقفع في ذلك (أي بني : لا تجعل نفسك نداً وقريناً للملك ومن لاطاقة لك بمقاومته ومغالبته، وتسلك طريق المكابرة والمنافسة.... ولا تخالطهم متبسطاً لوقوفك على ملاحظة آثار العناية التي تكون قد حصلت لك منهم في وقت الرضا وسبّبت غرورك ،لأن الملوك سريعو الغضب، وبعيدو الرضا ، وكل من يكابر الملك مثله كمن يقدم على مكابرة الموت، وكل من يجوّز مكابرة الموت، فذلك هو الذليل في الحقيقة)[٣]

ويحث ابن المقفع من يجالس الملوك على رياضة نفسه على طاعة الملوك فيما يكره ،فقد لاينال موافقة الملوك على كل ارآئه، وهذا ينبغي ألا يضايقه وأن يضمر هذا الضيق في نفسه، فيظهر دون إرادته بحركاته أو كلماته وينال عندها غضب الملك .... فإذا حظيت باتباع الملك لرأي من آرائك، فإن رضاه عنك سيحملك مالاتطيق من الأمور، فنيل رضا الملوك غاية يصعب دركها عند ابن المقفع فعلى صاحب السلطان أن يقدم له النصيحة، وأن يطيعه ويدافع عنه

١-رسالة الصحابة ، ص٣١

٢- المرجع السابق ،ص٣١

٣- الأدب الوجيز ص٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويكتم أسراره ويزيّن سيرته، وأن يقّدم رأي السلطان على رأيه، وأن يبتعد عن كل مايبعده عن السلطان أو يستخف بأموره ،وإذا كان قادراً على تقديم النصيحة عليه أن يقدمها، فإذا ماأكرم عليه أن يحافظ على ماأكرم به، وألا يبطر. وإذا ماقرب إلى السلطان عليه أن يحافظ على طاعته، ولا يتثاقل عن شيء من هذه الطاعة. بل وعليه (أن يحمدهم على ماأصاب من خير منهم، أو من غيرهم ،فإنه لا يقدر أحد على أن يصيبه بخير إلا بدفاع الله عنه بهم)[١] يقول ابن المقفع (اعلم أن الرجل ذا الجاه عند السلطان والخاصة لا محالة أن يرى من الوالي ما يخالفه من الرأي في الناس والأمور .... فذلّل نفسك باحتمال ما خالفك من رأي السلطان ، وقررّها على أن السلطان إنما كان سلطاناً لتتبعه في رأيه وهواه وأمره ، ولا تكلفه اتباعك وتغضب من خلافه إياك)[٢] ويقول أيضاً في احتمال مخالفة الوالي لرأينا وضرورة قبول هذه المخالفة (لاتكونن صحبتك للملوك إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك ،وموافقتهم في ماخالفك وتقدير الأمور على أهوائهم دون هواك)[٣]

ويقول أيضاً في عدم مطالبة الملك باتباع آرائنا : (إنك لاتأمن أنفة الملوك إن أعلمتهم، ولا تأمن عقوبتهم إن كتمتهم ،ولا تأمن غضبهم إن صدقتهم ، ولا تأمن سلوتهم إن حدثتهم، وإنك إن لزمتهم لم تأمن تبرمهم بك، وإن زايلتهم لم تأمن عقابهم، وإن تستأمرهم حملت المؤونة عليهم، وإن قطعت الأمر دونهم لم تأمن مخالفتهم، إنهم إن سخطوا عليك أهلكوك وإن رضوا عنك تكلّفت من رضاهم مالاتطيق)[٤]

ويقول أيضاً في نفس المعنى (فإن كنت حافظاً إن بلوك، جلداً إن قربوك ،أميناً إن ائتمنوك، تعلّمهم وأنت تريهم أنك تتعلم منهم، وتؤدّبهم وكأنهم يؤدبوك ، تشكرهم ولا تكلفهم الشكر ، بصيراً بأهوائهم، مؤثراً لمنافعهم، ذليلاً إن ظلموك راضياً إن أسخطوك، وإلا فالبعد منهم كل البعد، والحذر منهم كل الحذر)[٥]

ولصعوبة التعامل مع الملوك ينبغي الابتعاد عن كل مايغضبهم فمثلاً يجب الاحتراس من

١-الأدب الصغير ص٧١

٢-الأدب الكبير ص١٢٧-١٢٨

٣- المرجع السابق ،ص١٢٨

٤- المرجع السابق ص١٢٩

٥-المرجع السابق ص١٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مجالسة المغضوب عليه من قبل السلطان ، أو تكلف الأعذار له ، بل ويجب عدم الثناء عليه أمام أي من الناس، ويقول ابن المقفع في هذا (جانب المسخوط عليه والظنين به عند السلطان، ولا يجمعنّك وإياه مجلس ولا منزل ، ولا تظهرنّ له عذراً ، ولا تثنينّ عليه خيراً عند أحد من الناس)(١)

فأين يقع قوله هذا من وقوفه إلى جانب المسخوط عليه عبد الله بن علي وكتابة عهد الأمان له مخالفاً بذلك بل عاصياً للخليفة المنصور؟ صحيح أنه كان كاتباً لأخوة عبد الله بن علي وينفذ مايأمرونه به، ولكن هذا التشدد وفي كتابة عهد الأمان دفعه إليه حقده على المنصور، وعلى الدولة العباسية أيضاً.

ولصعوبة التعامل مع الملوك أيضاً ينبغي عدم الإلحاح على السلطان في طلب الحاجة ، ورفع هذه الحاجة في الوقت المناسب لضمان إجابة السلطان لها يقول ابن المقفع (أي بني : (إذا عرضت لك حاجة إلى ملك فلا تلح في عرض حاجتك والتماس مطلوبك ،واحترس من الوقاحة . وراع في طلابها واستنجازها مواضع الطلب، ووقت الفرصة، لتسأل وترفع حاجتك حين يكون الملك منشرحاً مسروراً)(٢)

وهذا قريب مما قاله في أدبه الكبير حين قال (لا يكونن طلبك ماعند الوالي بالمسألة ولا تستبطئه وإن أبطأ عليك، ولكن اطلب ماقبله بالاستحقاق له ، واستأن به وإن طالت الأناة فيه فإنك إذا استحققته أتاك عن غير طلب ، وإن لم تستبطئه كان أعجل له)(٣)

نقد سياسة الحكم العباسي

وينتقل ابن المقفع من حديثه العام حول النظام السياسي وأحوال السلطان والرعية، إلى نقد سياسة الحكم العباسي، فقد ظهر لنا ابن المقفع في حديثه عن المجتمع وأحواله وعن السلطان وأموره مصلحاً اجتماعياً يسعى كما أسلفت لإقامة مدينة فاضلة.... ولكن ابن المقفع في الواقع لم يرد الإصلاح ،وإنما أراد تقديم حياة الفرس وحياة أكاسرتهم، لتتحول الدولة الاسلامية

١- المرجع السابق ص١٢٠

٢- الأدب الوجيز، ص٥١.

٣-الادب الكبير ص١١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بنظامها السياسي والاجتماعي إلى فارسية لا عربية ،وهذا بالطبع ماتريده شعوبية ابن المقفع ، وهذا أيضاً يبرز في رسالة الصحابة (١)

وأول ماذكر ابن المقفع أمير المؤمنين به أهل خراسان فهم خير عون للخليفة، لأنهم أهل طاعة وعفة وطهارة (فإنهم جند لم يدرك مثلهم في الإسلام ،فيهم منعة بها يتم فضلهم إن شاء الله ، أما هم فأهل بصر بالطاعة، وفضل عند الناس، وعفاف، وفروج وكفٍ عن الفساد، وذلٍ للولاة، فهذه حال لا نعلمها توجد عند أحد غيرهم)(٢)

ولكن ينبه ابن المقفع أمير المؤمنين لوضع قانون يحدد فيه مسؤوليات هؤلاء الجنود وواجباتهم الملقاة على كاهلهم فيقول (فلو أن أمير المؤمنين كتب لهم أماناً معروفاً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شيء يجب أن يعملوا به، أو يكفوا عنه بالغاً في الحجة، قاصراً عن الغلو، يحفظه رؤساؤهم حتى يقودوا به دهماءهم، ويتعهدوا به منهم مَن دونهم من عُرض الناس لكان ذلك إن شاء الله لرأيهم صلاحاً، وعلى من سواهم حجة وعند الله عذراً)(٣)

ويفصل ابن المقفع في كيفية رعاية الجند الذين أرادهم أن يكونوا فرساً لاغير، فيطالب بتعليمهم وتثقيفهم وإرشادهم إلى الأخلاق الفاضلة ليتحلوا بها فيقول (ومن ذلك تعهد أدبهم في تعلم الكتاب، والتفقه في السنة، والأمانة والعصمة، والمباينة لأهل الهوى ، وأن يظهر منهم القصد والتواضع، واجتناب زي المترفين وشكلهم)(٤)

ومن ضروب العناية والرعاية لهؤلاء الجند، تحديد مواقيت ثابتة لرواتبهم وأرزاقهم، بل إن ابن المقفع طالب بزيادة هذه الأرزاق لغلاء الأسعار أو إعطائهم عطايا عينية من طعام أو علف إذا خيف وقوع نقصان في بيت المال . يقول ابن المقفع(ومن ذلك امر أرزاقهم أن يوقّت لهم أمير المؤمنين منها وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو مابدا له، وأن يعلم عامتهم العذر الذي في ذلك من إقامة ديوانهم، وحمل أسمائهم ويعلموا الوقت الذي يأخذون فيه، فينقطع الاستبطاء والشكوى.... ثم يقول :وإنما يحتاج الجند اليوم إلى مايحتاجون إليه من كثرة الرزق لغلاء السعر ... لأنهم يشترون بالقليل مثل ماكانوا يشترون بالكثير)(٥)

١- أحمد كمال زكي - الحياة الأدبية في البصرة ص٥٠٣

٢-رسالة الصحابة - جمهرة رسائل العرب ص٢٨-٢٩.

٣-المرجع السابق ص٢٩

٤-المرجع السابق ص٣٤

٥- المرجع السابق ،ص ٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرى ابن المقفع ضرورة تقصّي أحوالهم أينما كانوا والاعتماد على ثقات الناس في ذلك يقول (ومن جماع الأمر وقوامه بإذن الله أن لا يخفى على أمير المؤمنين شيء من أخبارهم، وحالاتهم ،وباطن أمرهم بخراسان، والعسكر والأطراف، وأن يحتقر في ذلك النفقة، ولا يستعين فيه إلا بالثقات النصاح)(١)

وينبه ابن المقفع الخليفة إلى حسن اختيار القادة وهذا لا يكون إلا بالتقصي، وبث العيون بين جميع الجنود لمعرفة الأكفاء خاصة (وأن منهم من المجهولين من هو أفضل من بعض قادتهم، فلو التمسوا وصنعوا كانوا عدة وقوة، وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادة، ومن دونهم من العامة)(٢).

كما ينبه ابن المقفع الخليفة إلى عدم تولية الجند للخراج، لأن الجندي إذا جعل همه جمع المال لا يعود للقتال أهمية في نظره كما أن المال الكثير يجتمع بين يديه، وهو من يعاني في ساحات القتال قد يغريه، ويدفعه للأخذ منه ،عدا التذلل لأصحاب الأموال لأخذ الخراج منهم، أو ظلم البعض لإجبارهم على الدفع ... وإن وضع المال بين يدي من يمتلك القوة العسكرية قد يغريه للخروج على الدولة ،وهذا ما يستحق أن يحسب حسابه، يقول ابن المقفع (ومما ينظر فيه لصلاح أهل الجند ألاّ يولي أحداً منهم شيئاً من الخراج، فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة، ولم يزل الناس يتحامون ذلك منهم وينحونه عنهم لأنهم أهل دالّة ودعوى بلاء ، وإذا كان جلابا للدراهم والدنانير اجترأ عليهما ،وإذا وقع في الخيانة صار كل أمره مدخولاً : نصيحته وطاعته. فإن جعل بينه وبين رفعه أمرٌ حفته الحمية، مع أن ولاية الخراج داعية إلى ذِلّة وعقوبة وهوان ، وإنما منزلة المقاتل منزلة الكرامة واللطف)(٣)

ويأتي حديث ابن المقفع عن الجند وتعظيمه لشأنهم تأثراً بالنظام الطبقي في المجتمع الساساني فقد جاءت طبقة المقاتلة من فرسان ورجالة وفق هذا النظام في الطبقة الثانية بعد طبقة رجال الدين ، بل إن النظام يفرض على المهنة أن يؤدوا التحية، وأن يسجدوا لرجال الجيش وذلك لأنهم حماة الوطن فقد ورد في رسالة تنسر (وميز رجال الجيش لأن وظيفتهم القتال ،

٢-رسالةالصحابة - جمهرة رسائل العرب ص٣٢-٣٣

٢-المرجع السابق ، ٣٣

٣- المرجع السابق ،ص ٣٢،٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجعلهم أعلى درجة من تلك الجماعات كلها، ذلك أنهم في كل وقت هم وأموالهم وأتباعهم فداء للمهنة دفاعاً عن مصلحتهم ، فهم يشتغلون بحرب أعداء الوطن بينما المهنة يحيون في بيوتهم راغدين مرفهين آمنين مطمئنين مع نسائهم وأولادهم)[١]

وبعد حديث ابن المقفع عن أهل خراسان،وعن الجند خاصة، وبعد أن فصل بحكم فارسيته وشعوبيته في كيفية العناية بهؤلاء الجنود من الفرس، انتقل للحديث عن أهل البصرة والكوفة خاصة وأهل العراق عامة، وقد خص أهل البصرة والكوفة لا لشيء إلا لكونهم الأقرب إلى أهل خراسان بحكم موقعهم، إضافة إلى عيش عدد كبير من أهل خراسان في البصرة والكوفة فلذلك على الخليفة أن يتنبه إليهم لأن فيهم أفضل الأعوان فقال (ومما يذكر به أمير المؤمنين –أمتع الله به – أمر هذين المصرين فإنهم – بعد أهل خراسان – أقرب الناس إلى صدق رابطتهم وما أراد معزّته من أمورهم استعان أهل خراسان في ذلك لهم مع الذي في ذلك من جمال الأمر، واختلاط الناس بالناس العرب بالعجم، وأهل خراسان بالمصرين)[٢]ويتضح من قول ابن المقفع السابق أنه إنما يوصي بأهل العراق خيراً، لأن كثيراً من الخراسانيين يعيشون هناك، وهذا إن دلّ على شيء فيدل على انتمائه العرقي الواضح،بل إنها شعوبية ابن المقفع التي تظهر رافعة لثامها عن وجهها حين يمدح أهل العراق وينعى الظلم الذي وقع عليهم من ولاة الأمويين الأشرار فيقول: (إن في أهل العراق ياأمير المؤمنين من الفقه والعفاف والألباب والألسنة شيئاً لا يكاد يُشَكُّ أنه ليس في جميع من سواهم أهل القبلة مثله ولا مثلُ نصفه ، فلو أراد أمير المؤمنين أن يكتفي بهم في جميع ما يُلتمس له أهل هذه الطبقة من الناس رجونا أن يكون ذلك منهم موجوداً، وقد أزرى بأهل العراق في تلك الطبقة أن ولاة العراق فيما مضى كانوا أشرار الولاة،وأن أعوانهم من أهل أمصارهم كذلك فحمل جميع أهل العراق على ما ظهر من أولئك الفسول وتعلّق بذلك أعداؤهم من أ هل الشام فنعوه عليهم)[٣].

ويتضح حقد ابن المقفع أكثرفأكثر عندما أخّر الحديث عن أهل الشام ، وعندما نبّه الخليفة إلى العداء الذي يكنّه أهل الشام له، ويطلب ابن المقفع من الخليفة ألا يؤاخذهم على هذه

١–رسالة تنسر ص٤٨..

•قسم المجتمع الساساني وفق رسالة تنسر إلى أربع طبقات هي طبقة أهل الدين وتضم الحكام والعباد والزهاد والسدنة والمعلمين ، والطبقة الثانية هي طبقة المقاتلة وهم قسمان: الفرسان والرجالة وهؤلاء يتفاوتون في مراتبهم وأعمالهم ، والطبقة الثالثة :– طبقة الكتاب وتضم كتاب الرسائل والمحاسبات والأقضية والسجلات والعقود وكتاب السير كما تضم هذه الطبقة الأطباء والشعراء والمنجمين ، الطبقة الرابعة وهي طبقة المهنة وتضم الزراع والرعاة والتجار وسائر أهل الحرف..

٢–رسالة الصحابة –جمهرة رسائل العرب ص٣٥

٣–المرجع السابق ص٣٥–٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العداوة أو يحاسبهم وذلك لأن إحساسهم بفقد ملكهم هو دافعهم لهذه العداوة، وليطمئن الخليفة فإن الغلبة ستكون له عليهم (وإن الدائرة لأمير المؤمنين عليهم آخر الدُهر إن شاء الله ، فإنه لم يخرج الملك من قوم إلاّ بقيت منهم بقية يتوثبون بها ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدويخهم)[١]

ويمضي ابن المقفع في بث أحقاده على أهل الشام ليعتبر ماجرى لهم من ذهاب ملكهم قصاصاً لهم على ما ارتكبوه في حق الموالي ، بل إنه يتشفى بهم فيقول (حرموا كما كانوا يحرمون الناس، وجعل فيئهم إلى غيرهم كما كان فيء غيرهم إليهم، ونُحّوا عن المنابر والمجالس والأعمال كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله في السابقة والموضع ....)[٢]ويوجه ابن المقفع الخليفة إلى الطريقة المناسبة للتعامل مع أهل الشام والتي تضمن تحذير أهل الشام ليرضوابالدولة الجديدة، وتتلخص هذه الطريقة في استمالة كبارهم الذين يؤثّرون في الناس من ناحية، والذين ينقلون أخبار ما يجري هناك من ناحية ثانية يقول (فمن الرأي في أمرهم أن يختص أمير المؤمنين منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً ،أو يعرف منه نصيحة أو وفاء، فإن أولئك لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى، ويدخلوا فيما حملوا عليه من أمرهم)[٣]

ويحدد لنا ابن المقفع من الذي يستحق الرعاية ويحق له شغل المراكز الرفيعة في الدولة – بعد الفرس طبعاً– إنهم أبناء علي بن أبي طالب، ولا نعجب من توصية ابن المقفع تلك ونحن نعلم ميله للعلويين وتشيعه لهم لما هو ثابت في يقين الفرس أن أتباع علي الأحق بالخلافة لما لهم من نسب مع الساسانيين عن طريق ابنة يزدجرد التي تزوجت الحسين بن علي الابن الأصغر لفاطمة الزهراء بنت النبي عليه الصلاة والسلام[٤]، ولأن العلويين هم الأساس في قلب الدولة الأموية. يقول ابن المقفع في ذلك (ومما يذكر به أمير المؤمنين أهل بيته، وبني أبيه، وبني علي بني العباس فإن منهم رجالاً لو مُتعوا بجسام الأمور والأعمال سدّوا وجوهاً وكانوا عُدّة لأخرى)[٥]

ثم يذكر ابن المقفع أمير المؤمنين – عَرَضاً– بأهل الحجاز واليمن واليمامة ،ويطلب إليه أن

١–رسالة الصحابة –جمهرة رسائل العرب ص٤٠

٢–المرجع السابق ، ص٣٩.

٣– المرجع السابق، ص٣٩.

٤–ادوارد–براون– تاريخ الأدب في إيران منذ اقدم العصور ،ترجمة أحمد كمال الدين حلمي ،مطبوعات جامعة الكويت ص٢١٣–٢١٥

٥–رسالة الصحابة جمهرة رسائل العرب ص٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يحسن اختيار ولاته عليهم، وأن يغدق عليهم الأموال فيقول (ومما يذكر به أمير المؤمنين جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة وما سوى ذلك . أن يكون من رأي أمير المؤمنين – إذا سخت نفسه عن أموالها من الصدقات وغيرها– أن يختار لولايتها الخيار من أهل بيته وغيرهم لأن ذلك من تمام السيرة العادلة والكلمة الحسنة التي قد رزق الله أمير المؤمنين وأكرمه بها)[١]

ويوصي ابن المقفع بأهل الحجاز واليمن من أبناء المهاجرين والأنصار في موقع آخر، عندما يتحدث عن سوء نظام الحجابة الذي يدخل السوقة على الخليفة قبل أن يأذن لأهل بيوتات العرب، ويجري على البطانة الفاسدة من الأرزاق أضعاف ما يجري على بني هاشم وسادة قريش ... وإنما أراد ابن المقفع من توصيته هذه ومن تقريع أهل الشام ومديح أهل العراق إثارة الطبقات ضد الخليفة (فهو يريد أن يقول للمهاجرين والأنصار وأشراف قريش إنهم أفضل ممن يقربهم الخليفة، وأنهم أحق بالمنزلة التي نالها من لا يستحقها. ومن هنا فعليهم الاعتراض على ذلك بمحاربة الخليفة وبهذا تقع الواقعة بين العرب أنفسهم ويقف الفرس وعلى رأسهم ابن المقفع في صف يتفرجون)[٢] وكذلك الحال في حديثه عن أهل الشام وتذكيرهم بالملك الذي سلب منهم وتحريضهم ضد الدولة الجديدة لاستعادة الملك المفقود .... وحديثه عن أهل العراق وقسوة الحكم الأموي عليهم ليثأروا من أهل الشام ويقتصوا من الظلم الذي وقع بساحتهم ،وبالطبع فإن المستفيد الوحيد من إثارة الفتن بين العرب هم الفرس عامة وابن المقفع خاصة، الذي لم ينس اضطهاد الأمويين للموالي واستخفافهم بهم .

ويأخذ ابن المقفع على الخليفة المنصور سوء نظام الحجابة والكتابة،فيدعوه إلى تغييره، لأن الكتّاب والحجّاب تخطوا حدود صلاحياتهم ،ومنعوا خيار الناس وصلحائهم من الدخول على الخليفة، وقدّموا علي أصحاب الأنساب والأحساب من قدّموا لهم خدمات ممن لا يعرف لهم نسب ولا حسب ولا فضيلة من علم أو دين،ليس هذا فحسب بل إنهم قدّموا هؤلاء في مايُجرى من الرزق والمعونة، فعلى الخليفة أن يتعجّل في تغيير هذا الوضع ، وأن يعمل على تحديد عمل هؤلاء الحجّاب والكتّاب لتنحصر مسؤولية كل فرد منهم عن عمله ، وذلك لأن سوء الحجّاب والكتّاب يعني سوء البطانة لاسيما حين يتدخل الحاجب والكاتب في اختيار البطانة ،فيقدمون كما أسلفت من لا تتوافر فيهم شروط البطانة الصالحة يقول ابن المقفع :(ومما يذكّر به أمير المؤمنين أمر

١– رسالة الصحابة –جمهرة رسائل العرب، ص ٤٥.

٢– ليلى سعد الدين ، كليلة ودمنة في الأدب العربي ، ص ٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أصحابه فإن من أولى أمر الوالي منه بالتثبت والتخيّر أمر أصحابه .... فإن أمر هذه الصحابة قد عمل فيه من كان وليه من الوزراء والكتّاب قبل خلافة أمير المؤمنين عملاً قبيحاً مفرط القبح مفسداً للحسب والأدب والسياسة، داعياً للأشرار، طارداً للأخيار، فصارت صحبة الخليفة أمراً سخيفاً فطمع فيه الأوغاد وتزهّد فيه من كان يرغب فيما دونه)(١)

ويقرّع ابن المقفع الخليفة على اختياره لكتّابه وحجّابه، فمن الواجب أن يبلغ الكاتب أدباً رفيعاً وأن يكون معروف الحسب في حين كان كتاب الخليفة وحجّابه (ممن لا ينتهي إلى أدب ذي نباهة،ولا حسب معروف ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور في أهل مصره قد غَبَر عامة دهره صانعاً يعمل بيده ، ولا يعتد مع ذلك ببلاء ولا غناء)(٢)

وابن المقفع هنا عندما ينتقد كتاب الخليفة يريد إرساء صورة الكاتب الفارسي الذي اشترط فيه أن يكون (كريم الأصل ، شريف العرض، دقيق النظر ، عميق الفكر،ثاقب الرأي ، وأن ينال الحظ الأوفر والنصيب الأكبر من الأدب وثمراته. وينبغي ألا يكون بعيداً عن القياسات المنطقية غريباً عنها، وأن يعرف مراتب أبناء الزمان، ومقادير أهل العصر، وألا يشغل بحطام الدنيا وزخارفها، ولا يلتفت إلى التحسين والتقبيح ....وينبغي بعد هذا أن يكون حسن الخط)(٣)

وكأن ابن المقفع عندما يضع شروط البطانة الصالحة بما تحويه من كتاب ووزراء ،وعندما ينتقد الوضع القائم يعبر عن رغبته في أن يُقرّب إلى الخليفة ويصبح واحداً من صحابته، كما يعبر عن نقمته على المنصور، وعلى الدولة العباسية أيضاً التي لم تمنحه هذه الفرصة رغم مايظهر من ولاء ، ورغم إسلامه المزعوم لتحقيق فرصة الوزارة(٤).

وبالطبع فإن غاية ابن المقفع الأساسية من الحديث عن شروط البطانة الصالحة وكيف يحول سوء الحجاب والكتاب دون تقريب أهل الحسب والأدب والنباهة وأهل بيوتات العرب من الأشراف أو الفقهاء المصلحين ... غايته هي إثارة الفتن بين العرب ،فهو بهذه الشروط يحرّض المهاجرين والأنصار وأهل قريش للثورة على الخليفة لأنهم ضمن هذه الشروط هم الأجدر

١-ابن المقفع -رسالة الصحابة ص٤٠-٤١

٢-المرجع السابق ص٤٢

٣-آرثر كريستنسن -إيران في عهد الساسانيين ص١٢٣

٤- محمد سليم الجندي، عبد الله بن المقفع، دراسة لأدبه وطرف من سيرته ونخبة من كلامه -مطبعة الترقي -دمشق ١٣٥٥هـ ص١٥٢-١٥٣/حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي ج٤ ط١ مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٧ص٤٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأحق بتولي هذه المناصب(١)

وشروط ابن المقفع في البطانة مستمدة من تراثه الفارسي، حيث كانت البطانة تختار من أبناء الملوك والأمراء والأشراف فيحدثنا آرثر كريستنسن عن الوزير في الدولة الساسانية وعن مهامه وصفاته فيقول (كان الوزير أو رئيس الوزراء في الدولة الساسانية مكلفاً بإدارة دفة الأمور في الدولة تحت رقابة الملك، وكان في كثير من المسائل يتصرف بما يرى، وأنه كان كذلك يقوم مقام الملك حين يكون هذا في رحلة أو في الحرب، وكانت المفاوضات الدبلوماسية من اختصاصه، بل كان يستطيع أن يحصل على قيادة الجيش أحياناً. والخلاصة أنه وهو مستشار رئيس للملك كان يجمع في يديه كل إدارة الدولة، وكان يتدخل في كل شيء ، وكبير الوزراء الأمثل كان الرجل المثقف ثقافة كاملة، الممتاز في سلوكه، المتقدم لأهل زمانه، النبيل الطبع، الحذر الذي له في الحكمة عملية ونظرية بصر، القادر على التأثير في الملك إذا اتبع الهوى .ومنصب رئيس الوزراء على الصورة التي عرف بها في عهد الخلفاء ،وهي الصورة التي احتفظ بها في جميع الدولة الإسلامية هو صورة صحيحة لما كان عليه أيام الدولة الساسانية)(٢)

ويمضي ابن المقفع في ثورته على الأنظمة العباسية ،فيتعرض لنظام الخراج ،وينتقد فوضى الخراج في الدولة حيث لم تكن هناك مبالغ محددة على وحدات الأراضي، ولم تكن تسجل في دفاتر ولهذا ينبغي وضع نظام خاص بالخراج ،فتحدد مقدّرات ومخصصات كل كورة من الكور ويدوّن ذلك ... والمهم عند ابن المقفع هو أن يحسن الخليفة اختيار عمّال الخراج ويستمر في متابعتهم وتفقّد أحوالهم فبذلك تتحدد الأمور ويشعر عمال الخراج بالمراقبة فيقومون بأعمالهم على خير وجه قال ابن المقفع (فلو أن أمير المؤمنين أعمل رأيه في التوظيف على الرساتيق والقرى والأرضين وظائف معلومة وتدوين الدواوين بذلك، وإثبات الأصول حتى لايؤخذ رجل إلا بوظيفة قد عرفها وضمنها، ولا يجتهد في عمارة إلا كان له فضلها ونفعها لرجونا أن يكون في ذلك صلاح للرعية، وعمارة للأرض وحسم لأبواب الخيانة، وغشم العمال

١-ليلى سعد الدين -كليلة ودمنه في الأدب العربي -دراسة مقارنة ص٨١ / عبد اللطيف حمزة ابن المقفع ،ص٩٩/١٠٠.

٢-آرثر كريستنسن-إيران في عهد الساسانيين ص١٠٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا رأي مؤنته شديدة ورجاله قليل ونفعه متأخر)[١]

كما ينتقد ابن المقفع فوضى الفتيا والحكم حين يتحدث عن نظام القضاء ،ويطعن في كفاءة القائمين على الحكم .... ويحث الخليفة على وضع كتاب جامع مانع للأحكام القضائية يلتزم به القضاة في شتى بقاع الدولة الإسلامية وقد وقفنا على هذه القضية في الفصل الأول وعرفنا أن هذه الدعوة من تأثير ثقافة ابن المقفع اليونانية.

وبعد فإن شعوبية ابن المقفع بادية الظهور في حديثه عن الأمور السياسية، وعن كل ما يتصل بعرقه الفارسي ولعل أسلوبه في رسالة الصحابة يوضح لنا ذلك حين عمل على تخدير الخليفة بالكلام المعسول الخالي من أي نقد، والمقتصر على الدعاء للخليفة وإثبات عدله وقدرته على إدارة دفة الحكم بكل كفاءة، وتوصيات بثها هنا وهناك خص بها أبناء أمته . فإذا ماأراد نقد الدولة وأنظمتها خرج من لهجه اللين، ومحاولات كسب الطرف الآخر إلى لهجة ناقدة لاذعة شكلت في النهاية ثورة صريحة على الحكومة. وقد يكون ابن المقفع هو الذي دفع ثمن ثورته هذه إذ ربما كانت هذه الرسالة أحد الأسباب الأكيدة التي أدت إلى مقتله.

بل إن عهد الأمان الذي كتبه ابن المقفع لعم المنصور عبد الله بن علي يبرز مدى حقده على الدولة العباسية عامة، وعلى المنصور خاصة ،سيما حين أراد من المنصور أن يوقع في أسفل الأمان (وإن أنا نلت عبد الله بن علي أو أحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً سراً أو علانية على الوجوه والأسباب كلها تصريحاً أو كناية أو بحيلة من الحيل ، فأنا نفي من محمد بن علي بن عبد الله ومولود لغير رشدة، وقد حلّ لجميع أمة محمد خلعي والبراءة مني ، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ،وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي وإعانة من ناوأني من جميع الخلق، ولا موالاة بيني وبين أحد من المسلمين، وهو متبرىء من الحول والقوة ومدع ابن كان، وأنه كافر بجميع الأديان ، ولقي ربه على غير دين ولا شريعة، محرم المأكل، والمشرب، والمناكح، والمركب، والرق، والملك،والملبس، على الوجوه والأسباب كلها. وكتبت بخطي ولانية لي سواه ولا يقبل الله مني إلا إياه والوفاء به)[٢]

١-رسالة الصحابة -جمهرة رسائل العرب ص٤٤ -٤٥

٢- الجهشياري- الوزراء والكتّاب ص٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالطبع فإن هذه الصورة التي أرادها ابن المقفع للمنصور من خلعه وتجريده من البيعة وحرمانه من كافة حقوقه من مأكل ،ومشرب ،وملبس، ومنكح، ونزع ملكه، واعتباره كافراً بجميع الأديان ...هذه الصورة هي التي أرقت ابن المقفع طويلاً حالماً بها ليس للمنصور وحده بل لجميع العرب ... وابن المقفع هنا إنما عبّر عن حقيقة شعوره تجاه العرب ،ولكن عبر شخصية المنصور التي يعتبرها ابن المقفع مستبدة ظالمة سالبة للحكم العلوي ... والعرب مستبدون ظالمون سالبون للحكم الفارسي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

السمات الفنية لرسائل ابن المقفع

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

* السمات الفنية لرسائل ابن المقفع

تطور الأدب في العصر العباسي ، وذلك نتيجة اختلاط الشعوب الأخرى بالشعب العربي واحتفاظ هذه الشعوب بموروثها الديني والثقافي .

وقد سارعت الأجناس المختلفة التي دخلت في حمى الدولة العباسية إلى تعلم اللغة العربية للتقرب إلى الفاتح ، ولطلب الرزق ، وللتفقه في الدين ، مما أدى إلى اللحن في اللغة من ناحية ، وإلى تزويد اللغة بمصطلحات علمية، وألفاظ إدارية وسياسية واقتصادية ومنزلية، وذلك مما نقل عن الفارسية والهندية واليونانية .

ونتيجة لذلك فقد ازدهرت الحياة العقلية في العصر العباسي ، حيث تعددت فيها النزعات الفكرية لتتفق والحياة الإجتماعية التي كان يعيشها أهل هذا العصر .

فنجد مثلاً الزهاد والصوفية والزنادقة والسبئية ، ونجد المعتزلة والقدرية ، والدهرية والشيعة والرافضة والمانوية .

وكانت هذه النزعات إما قائمة على المنطق في معالجة مسائل الدين والنحو ورواية الشعر والحديث ، أو قائمة على التعمق بالواقع والذهاب مذهب الماديين في معالجة كل ما يعرض لهم من مسائل تخص الحياة الإجتماعية وما فيها من أجناس تحمل تراثها وأمجادها ودياناتها .(١)

وتبعاً لهذا الازدهار الذي شهدته الحياة العقلية فقد ازدهر النحو واللغة والقصص والتاريخ والفقه إضافة إلى ذلك الإنتاج العقلي الذي جاء به الموالي عن طريق النقل والترجمة والتفسير، فقد فتح هذا المجال لازدهار النثر ، وأدى إلى تنوع النثر ولم يعد مقتصراً على نثر الدواوين في تصريف شؤون الدولة. بل أخذ يصوّر عواطف الأفراد وأهواءهم ومقاصدهم في الحياة العامة والخاصة فأنشئت الكتب، في الإهداء ، والاستهداء ، والتعارف قبل اللقاء ،والشكر، والعتاب ، والتعازي ، والتهاني ، والاستعطاف ،والعهود .

١- أحمد كمال زكي ، الحياة الأدبية في البصرة ، ط١ ، دار الفكر ، دمشق، ١٩٦١ ، ص ٩٦-١١٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما تناول النثر النفس الإنسانية في هذه الحياة وتحدث عنها، وعن أخلاقها ، وأخذ يحثها على الخير ويذبها عن الشر فكانت كتابة المقالات والترجمة عن الأمم الأخرى .

ولم يقتصر تجدد النثر على تنوع الأغراض والفنون . بل امتد إلى الألفاظ التي أصبحت تختار اختياراً لتكون سهلة رقيقة بعيدة عن الحوشية والغرابة مترفعة عن العامية والابتذال مع المحافظة على فصاحتها وجزالتها ، كما عظم الاهتمام بالمعاني التي اتسمت بالسهولة والوضوح وسهلت التراكيب واستخدم السجع دون التزام به أو تكلف كما تسربت الألفاظ الأعجمية إلى النثر العربي لأن أكثر الكتابة كان من إنتاج الموالي .

معنى ذلك أننا لا نستطيع إغفال أثر الأجناس غير العربية في الأدب العربي ، لاسيما الفرس الذين كانوا الأكثر تأثيراً في العرب وفي الأدب ، وهذا ليس ببعيد عن الفرس الذين عرفوا بالبلاغة من ناحية ، والذين عنوا بالكتابة ومنحوا الكتّاب المكانة العالية، حتى أصبحوا يشكّلون طبقة مستقلة ضمن طبقات المجتمع الساساني (١) .

وقد تمثل التأثير الفارسي في ظهور اللهو والمجون والزهد في الأدب ، وظهور الحركات الشعوبية لمحاولة إحياء مجدهم الغابر،وقد امتاز الأدب في ظل هذه الحياة العقلية والإجتماعية بكثرة ما يرد فيه من قصص مترجمة من الفارسية إلى العربية مثل كليلة ودمنة ، وحكم وأمثال حرص الأدباء والشعراء على احتذائها، وأخبار الزهد والزهاد ، وبتأليف الكتب الجامعة في الأدب، التي يعبّر فيها بلغاء الناس عن أفكارهم وآرائهم فيما يتعلق بشؤون الاجتماع، أو الفكر ،أو الأدب ،والتوقيعات التي روعيت فيها البلاغة.

أما أبرزأنواع الأدب المزدهرة في هذا العصر فقد كانت الرسائل التي حوت عيون المعاني التي عُبّر عنها بالألفاظ المنتقاة البعيدة عن الحوشية والسوقية، والتي برزت فيها أبواب البديع والتي زخرت بالبراهين العقلية (٢).

أما ابن المقفع فقد جمع بين التفكير الفارسي ، والبلاغة العربية، وصبّ خلاصة ثقافاته المتعددة ، فيما ألّفه وترجمه. فجاءت لغته وعباراته بسيطة واضحة وجاء أسلوبه مباشراً

١- محمد غفراني الخراساني ، عبد الله بن المقفع، ص ٤٨٤ -٤٨٥

٢- محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ط١ ، نشر رابطة الأدب الحديث ،دار العهد الجديد للطباعة ،القاهرة ١٩٥٤، ص ٢٩-٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تقل فيه التلميحات والإشارات.

وقد أثر ابن المقفع ليس في الكتابة الفنية في عصره وحسب . بل أثّر في تاريخ العرب الثقافي وذلك حين مزج الثقافة العربية بالثقافة الأجنبية (الفارسية واليونانية والهندية منها) . وحين عرّف العرب بألوان من التمدن المشرقي من أمور السياسة، والإدارة، والاجتماع ، وحين أثّرت كتاباته في الاتجاه العقلي في جدل الجاحظ، وحكم المتنبي ، وآراء الفارابي، وابن سينا الفلسفية في السياسة، والولاة ، والأصدقاء[1].

وقد جاء تأثيره في الكتابة الفنية في المنهج والأسلوب وطرق الأداء ، وفي نظام الرسائل من حيث البدء والختام ، والتردد بين الإيجاز والإطناب ، وتضمين المعاني الدقيقة، والحكم الفلسفية، والكثير من الأفكار الاجتماعية والسياسية والعقلية، مما كان سائداً بين كتاب عصره.

وقد كان لابن المقفع كل هذا التأثير في الأدب العربي، لأنه لم يكن ناقلاً أو مترجماً فقط للثقافات الأجنبية. بل كان مؤلفاً أيضاً فهو بالتأكيد لم ينقل حرفياً من المصادر الأجنبية وإنما كان يأخذ الفكرة ثم يضعها في قالب يتفق مع العقلية العربية وحاجاتها، وبأسلوب عربي خالص . هذا إضافة لما ألّفه من رسائل سياسية وإدارية كتبها للدواوين التي عمل فيها ، ورسائل إخوانية .

ولنستعرض الآن أبرز السمات الفنية التي اتسم بها أسلوب ابن المقفع مهتدين في ذلك بما بين أيدينا من رسائله .

الألفاظ:

امتاز ابن المقفع بحسن اختياره للألفاظ المعبّرة عن المعاني المحددة المناسبة للموقف العام ،فجاءت ألفاظه سهلة، وواضحة، وافية بالمعنى ، بعيدة عن الحوشية والإغراب ، وهذا ما امتازت به الكتابة الفنية في العصر العباسي فقد كانت الألفاظ تستخدم في مواضعها المناسبة لها دون تقديم ، أو تأخير، أو حذف، أو زيادة، إلا ما لا يفسد المعنى .فحسن رصف الألفاظ يزيد المعنى وضوحاً وإشراقاً فقد كان أبو هلال العسكري يقول: (من تمام آلات البلاغة التوسع في معرفة العربية، ووجوه الاستعمال لها ،والعلم بفاخر الألفاظ ، وساقطها ،

١- عمر فروخ ، عبد الله بن المقفع ، كتاب كليلة ودمنة ، ص ١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومتخيرها ،ورديئها، ومعرفة المقامات ،و ما يصلح في كل واحد فيها من الكلام)(١).

كما أن الاهتمام بالألفاظ والمعاني الدالة عليها ، والتفريق بين الأساليب، ومطالبة الكتّاب بالتزام أساليب معينة ، أو ألفاظ معينة في كتاباتهم المختلفة، من خصائص اللغة الفارسية الفنية التي استوعبها ابن المقفع وأثّرت في أسلوبه(٢).

و كثيراً مالجأ ابن المقفع إلى التكرار اللفظي، وذلك للتنبيه على بعض المعاني كقوله في الأدب الكبير: (احترس من سورة الغضب ، وسورة الحميّة، وسورة الحقد ،وسورة الجهل)(٣) وقوله في الأدب الكبير أيضاً:(تحرّز من سكر السلطان ، وسكر المال ، وسكر العلم ، وسكر المنزلة ،وسكر الشباب)(٤).

الاهتمام بالمعاني والدقة في تناولها :

امتاز أسلوب ابن المقفع بإيراد المعاني الصريحة المباشرة ، والبعد عن التلميح والإشارة، وقد أولى المعاني عناية كبيرة، ولهذا فإن لجوءه إلى الإيجاز أحياناً لم يخلّ بالمعنى، بل على العكس من ذلك فإن الاهتمام بالمعنى جعله يزهد في استخدام المحسنات البديعية من ناحية ، ويستقصي المعاني من ناحية ثانية – على طريقة الكتابة الفنية في العصر العباسي الأول – فما أن يتناول معنى من المعاني حتى يشبعه شرحاً وتفصيلاً وبياناً.

ومن استقصاء ابن المقفع للمعاني بحثه في قضية الدين والرأي في الأدب الصغير حيث يقول :(إن الدين يسلم بالإيمان ، وإن الرأي يثبت بالخصومة،فمن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأياً ، ومن جعل الرأي ديناً فقد صار شارعاً، ومن كان هو يشرع لنفسه الدين فلا دين له)(٥).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن المقفع كرّر معانيه التي رأى صعوبة فهمها أو وجدها مهمة في تراكيب متشابهة ، كما كرر ألفاظه . ومن أمثلة ذلك حديث ابن المقفع عن ضرورة أن ينعم الإنسان بلذائذ الحياة الدنيا لكن دون أن تحول هذه اللذة عن العمل للآخرة

١- أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ،كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر ،تحقيق علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٢، ص ١٥٤-١٦١ .

٢- عمر رضا كحالة ،الأدب العربي في الجاهلية والإسلام ، المطبعة التعاونية ، دمشق ١٩٧٢ ، ص ١٩٣ .

٣- الأدب الكبير ، ص ١٤٢

٤- المرجع السابق ، ص ١٣٠

٥- الأدب الصغير ، ص ٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونيل رضا الله عز وجل، فقد كرر ابن المقفع هذا المعنى في عدد من التراكيب بألفاظ متشابهة فقال: (لا عقل لمن أغلفه عن آخرته ما يجد من لذة دنياه ، وليس من العقل أن يحرمه حظه من الدنيا بصره بزوالها)[١].

وقال أيضاً في نفس المعنى :(السعيد يرغّبه الله في الآخرة حتى يقول : لا شيء غيرها فإذا هضم دنياه، وزهد فيها لآخرته، لم يحرمه الله بذلك نصيبه من الدنيا، ولم ينقصه من سروره فيها . والشقيّ يرغّبه الشيطان في الدنيا حتى يقول : لا شيء غيرها فيجعل الله له النغيص في الدنيا التي آثر مع الخزي الذي يلقى بعدها)[٢].

كما أن ابن المقفع ساوى بين اللفظ والمعنى فهو يلبس المعاني الألفاظ المناسبة لها تماماً، ويوازن بينهما فلا يأتي أحداهما على حساب الآخر. وهذا يتضح من الأمثلة السابقة التي ذكرتها، وفي كل ما كتبه ابن المقفع.

الأفكار :

يلاحظ في أسلوب ابن المقفع انعدام الترتيب في الأفكار، فقد كان ابن المقفع يقفز من فكرة لأخرى، دون أي رابط بين هذه الأفكار ، ولا يلبث أن يعاودالتأكيد على فكرة سابقة مرت قبل زمن ، وهو في العادة لا يضيف جديداً لهذا المعنى السابق. بل يكرره ويضعه في قوالب جديدة ، فمثلاً في أدبه الصغير نجده يتحدث عن ضرورة مصاحبة ذوي العلم والدين والأخلاق، لأنهم يثبّتون المرء على خصاله الصالحة فيقول :(على العاقل أن لا يخادن ولا يصاحب ولا يجاور من الناس ما استطاع، إلا ذا فضل في العلم والدين والأخلاق فيأخذ عنه أو موافقاً له على إصلاح ذلك فيؤيد ما عنده . وإن لم يكن له عليه فضل ، فإن الخصال الصالحة من البر لا تحيا ولا تنمى إلا بالموافقين والمؤيدين ، وليس لذي الفضل قريب، ولا حميم أقرب إليه ممن وافقه على صالح الخصال فزاده وثبته)[٣].

ثم ينتقل للحديث عن عدم جدوى حزن المرء على مافاته من أمور الدنيا،وليعتبر هذا الأمر الفائت وكأنه لم يطلب أصلاً فيقول : (وعلى العاقل أن لا يحزن على شيء فاته من الدنيا أو

١- الأدب الصغير ، ٨٠

٢- المرجع السابق . ص ٨١

٣- المرجع السابق، ص ٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تولى، وأن ينزل ما أصابه من ذلك ثم انقطع عنه منزلة ما لم يصب ، وينزل ما طلب من ذلك، ثم لم يدركه منزلة ما لم يطلب)[١].

ثم يعود وفي نفس الموضع ليتحدث مرة أخرى عن مصاحبة ذوي الألباب، وفوائد هذه المصاحبة فيقول :(وعلى العاقل أن يؤنس ذوي الألباب بنفسه، ويجرّئهم عليها حتى يصيروا حرساً على سمعه وبصره ورأيه ، فيستثيم إلى ذلك ويريح له قلبه ، ويعلم أنهم لا يغفلون عنه إذا هو غفل عن نفسه)[٢].

وليس أدل على أفكار ابن المقفع غير المترابطة من رسالة الأدب، فهذه الرسالة عبارة عن مجموعة من الحكم والآداب التي لايربط بين بعضها بعضاً رابط، فكل منها حكمة مستقلة ومختلفة عن جاراتها ، بل إن ابن المقفع يكرر هذه الحكم ، إما بترديد نفس الحكمة أو بالإتيان بمرادفها ، ومن الحكم التي ساقها ابن المقفع في هذه الرسالة (القلب أسرع تقلباً من الطرف ، أحسن العفو ما كان عن عظيم الجرم ، الجواد من بذل ما يضن به)[٣].

إلا أن ابن المقفع في أدبه الكبير مثلاً يرتب أفكاره بعض الشيء ، ولعل تقسيمه الرسالة إلى قسمين أساسيين ساعده على ذلك .

صياغة الجمل والتراكيب:

عمد ابن المقفع إلى السهولة في اللغة والسلاسة في التراكيب كيف لا، وهو الذي عدّ السهولة مقياساً للبلاغة حتى (إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها)[٤] ؟ ومن هنا حذّر ابن المقفع من اللجوء إلى الإغراب طمعاً في البلاغة فقال (إياك وتتبع الوحشي من الكلام طمعاً في نيل البلاغة، فإن ذاك هو العي الأكبر)[٥] ؟ ولكن سهولة ابن المقفع مشروطة بعدم الإخلال بأصول اللغة أو اللجوء إلى الألفاظ المرذولة، ولذلك نجده يقول (عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة)[٦].

١- الأدب الصغير، ص ٥٥

٢- المرجع السابق ، ص ٥٥

٣- رسالة الادب ، رسائل البلغاء ، محمد كرد علي، ص ١١٢

٤- الشريف المرتضى علي بن الحسن الموسوي العلوي ، أمالي المرتضى ،تحرير الفوائد ودرر القلائد تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القسم الاول ، ط١ ، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٩٥٤، ص ١٣٧

٥-المرجع لسابق ، ص ١٣٧

٦-المرجع السابق ، ص ١٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلا أن محاولات ابن المقفع التعبير عن المعاني الفلسفية الصعبة بطريقة سهلة أوقعه في الغموض، كما أن طول جمله، وتداخلها، ومحاولات التقديم والتأخير، واستخدام الجمل الاعتراضية، ولجوء ابن المقفع إلى الإيجاز، والاضطراب في إرجاع الضمائر. كل هذا أثقل كلام ابن المقفع وجعله غامضاً مبهماً في عدد من المواقع. إلا أن هذا لا يغمد بلاغة ابن المقفع ولا ينفي أثره في الأدب العربي عامة وفي النثرخاصة، لاسيما ما يتعلق بإسناد الضمائر الذي قد يرد إلى عبث النساخ .

ومن مواطن الغموض التي وقع بها ابن المقفع محاولاته التعبير عن المعاني الغزيرة بألفاظ قليلة، ومن ذلك قوله :(صرعة اللين أشد استئصالاً من صرعة المكابرة) (١).

وقوله (لا يذكر الفاجر في العقلاء ، ولا الكذوب في الأعفّاء، ولا الخذول في الكرماء، ولا الكفور بشيء من الخير)(٢).

ومن مواطن الغموض أيضاً فصله بين فعل الشرط وجوابه بجمل، بحيث يكاد القارئ ينسى أول الجملة فقال في أدبه الصغير (قد بلغ فضل الله على الناس من السعة، وبلغت نعمته عليهم من السبوغ،ما لو أن أخسهم حظاً وأقلهم منه نصيباً وأضعفهم علماً، وأعجزهم عملاً، وأعياهم لساناً ، بلغ من الشكر له والثناء عليه، بما خلص إليه من فضله ووصل إليه من نعمته ما بلغ له منه أعظمهم حظاً، وأوفرهم نصيباً ،وأفضلهم علماً، وأقواهم عملاً، وأبسطهم لساناً، لكان عما استوجب الله عليه مقصراً وعن بلوغ غاية الشكر بعيداً)(٣).

ومن الغموض الناجم عن إرجاع الضمائر، قوله في رسالة الصحابة« ومما ينظر فيه لصلاح هذا الجند ألا يولّى أحد منهم شيئاً من الخراج، فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، ولم يزل الناس يتحامون ذلك منهم، وينحّونه عنهم، لأنهم أهل ذكاء ودعوى بلاء ،وإذا كان جلاباً للدراهم والدنانيراجترأ عليهما »(٤). فالضمير في الجملة الأخيرة مفرد وكان حقه أن يكون مجموعاً.

ومن الغموض الناجم عن تداخل الجمل، ومحاولات التعبير عن المعاني الصعبة بألفاظ سهلة قوله في الأدب الكبير: (ليس أحد أسوأ فيه حالاً من أهل السلطان الذين يُفرّطون

١- الأدب الصغير ، ص ٨٦

٢- المرجع السابق ، ص٧٨

٣- المرجع السابق، ص ٦٥-٦٦

٤- رسالة الصحابة ، جمهرة رسائل العرب ، ص ٣٢-٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

باقتدارهم في غضبهم ، وبتسرعهم في رضاهم ، فإنه لو وصف بهذه الصفة من يلتبس بعقله أو يتخبطه المسّ أن يعاقب عند غضبه غير من أغضبه ، ويحبُوَ عند رضاه غير من أرضاه لكان جائزاً ذلك في صفته)(١).

(ففي هذه الجملة غموض سببه : طول الجملة وتداخلها ، ومحاولة حصر معنى متشعب في كلمات معدودة ، كما أن المعنى المتضمن هنا مجرد بعيد عن مستوى التفكير عند بعض الناس ، وقد تكون الفكرة في اللغة الأصلية من جوامع الكلم التي يعبر اللفظ القليل فيها عن فكرة متشعبة، فلما أراد ابن المقفع نقلها إلى العربية تهيأ له المعنى المتشعب ولكن لم يتهيأ له اللفظ العربي الجامع)(٢).

التقسيم والتسلسل المنطقي:

اتبع ابن المقفع أسلوب التفصيل بعد الإجمال، وذلك يظهر في تقسيماته المنطقية التي يقسم فيها الفكرة الواحدة إلى أجزاء ، ليجري بحث كل جزء منها وتفصيله بعد ذلك، فيقول مثلاً في الأدب الصغير (الرجال أربعة: جواد ، وبخيل ، ومسرف ، ومقتصد ، فالجواد الذي يوجه نصيب آخرته ونصيب دنياه جميعاً في أمر آخرته ، والبخيل الذي يخطئ واحدة منهما نصيبها، والمسرف الذي يجمعهما لدنياه ، والمقتصد الذي يلحق بكل واحدة منها نصيبها)(٣).

وقوله (لا يستخف ذو العقل بأحد ، وأحق من لم يُستخفَّ به ثلاثة : الأتقياء ، والولاة، والإخوان . فإنه من استخف بالأتقياء أهلك دينه ، ومن استخف بالولاة أهلك دنياه ، ومن استخف بالإخوان أفسد مروءته)(٤).

كما أنه اتبع التسلسل المنطقي فيما عرض من أفكار، فكان يأخذ بالمقدمات التي تؤدي إلى نتائج متعلقة بها منتقلاً بين المقدمة والنتيجة من نقطة لأخرى مستدلاً على ما يدعم به كل نقطة بأدلة، وبراهين، وعلل ، جاعلاً أحياناً وجهين للقضية الواحدة ليناقشهما، ويثير الجدل بينهما، وهذا بالتأكيد يتطلب ثقافة واسعة، ومعرفة بجميع العلوم ليكون قادراً على إيراد

١- الأدب الكبير ، ص ١٠٦

٢-عمر فروخ – عبد الله بن المقفع وكتاب كليلة ودمنة ، ص ٢٥/٢٤ .

٣- الادب الصغير ، ص ٨١

٤- المرجع السابق ، ص ٧٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تلك الأدلة والحجج المقنعة، وهذا ما اشترطه القلقشندي في الكاتب[١]

ومن أسلوب ابن المقفع المنطقي قوله (الواصفون أكثر من العارفين ، والعارفون أكثر من الفاعلين ، فلينظر امرؤ أين يضع نفسه ، فإن لكل امرئ لم تدخل عليه آفة نصيباً من اللب يعيش به ، لا يحب أن له به من الدينا ثمناً ، وليس كل ذي نصيب من اللب بمستوجب أن يسمى في ذوي الألباب ولا يوصف بصفاتهم ، فمن رام أن يجعل نفسه لذلك الاسم والوصف أهلاً، فليأخذ له عتاده ، وليعدَّ له طول أيامه ، وليؤثره على أهوائه ، فإنه قد رام أمراً جسيماً لا يصلح على الغفلة ولا يدرك بالمعجزة ، ولا يصير على الأثرة ، وليس كسائر أمور الدنيا وسلطانها، ومالها، وزينتها التي قد يدرك منها المتواني ما يفوت المثابر، ويصيب منها العاجز ما يخطئ الحازم)[٢].

وقوله (لا يؤَمننَّك شرَّ الجاهل قرابة، ولاجوار ، ولا إلف . فإن أخوف ما يكون الانسان لحريق النار أقرب ما يكون منها ، وكذلك الجاهل إن جاورك أنصبك، وإن ناسبك جنى عليك ، وإن ألفك حمل عليك ما لا تطيق ، وإن عاشرك آذاك وأخافك، مع أنه عند الجوع سبع ضار ، وعند الشبع ملك فظ، وعند الموافقة في الدين قائد إلى جهنم. فأنت بالهرب منه أحق منك بالهرب من سمّ الأساود، والحريق المخوف، والدَّين الفادح، والداء العياء)[٣].

أدوات الربط في الجمل :

أكثر ابن المقفع من استخدام الروابط الكلامية المختلفة، كحروف الجر، والأسماء الموصولة وحروف العطف ، والفاء، للاستعانة بها على إطالة الجمل، وللتدرج في رواية الحدث والإيضاح ومن ذلك قوله: (إن الناس لم يعدموا أن يطلبوا الحوائج إلى الخواص من الإخوان، وأن يتواصلوا بالحقوق،ويرغبوا إلى أهل المقامات، ويتوسلوا إلى الأكفاء ، وأنت بحمد الله ونعمته من أهل الخير،وممن أعان عليه ، وبذل لأهل ثقته المصافين، وإن بذل النفوس فيه، وإعطاء الرغيب ليس منك ببكر ولا طريف، بل هو تليد أتلده أولكم لآخركم

١- أحمد بن علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين ، ج١/ط١ دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ، ١٩٨٧ ، ص١٠٦-١١٦/ ص ١٨١ .

٢- الأدب الصغير ، ص ٤٨

٣- المرجع السابق ، ص ٨٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأورثه أكابركم أصاغركم، ومن حاجتي كذا ، وأنت أحق من طلبت إليه واستعنته على حوادث الدهر، وأنزلت به أمري لقرب نسبك، وكريم حسبك، ونباهتك، وعلو منزلتك، وجسيم طبائعك، وعوام أياديك، إلى عشيرتك وغيرها ، فليكن من رأيك ماحملتك من حاجتي على قدر قسم الله لك من فضله، وما عودك من مننه ووسع غيري من نعمانك وإحسانك)[١].

ومن شواهد كثرة استخدام الفاء قول ابن المقفع:(قد يسعى إلى أبواب السلطان أجناس من الناس كثير ،أما الصالح فمدعو ، وأما الطالح فمقتحم ، وأما ذو اللب فطالب، وأما من لا أدب له فمختلس ، وأما القوي فمدافع ، وأما الضعيف فمدفوع وأما المحسن فمستثيب وأما المسيء فمستجير ، فهو مجمع البرّ، والفاجر، والعالم ، والجاهل، والشريف، والوضيع)[٢]. وقوله (القَسْم الذي يُقسم للناس، ويمتّعون به نحوان : فمنه حارس ومنه محروس، فالحارس العقل ، والمحروس المال)[٣].

وقوله (ومما يذكر أمير المؤمنين أمر أصحابه ، فإن من أوْلى أمر الوالي منه بالتثبّت والتخيُّر أمر أصحابه الذين هم بهاء فنائه ، وزينة مجلسه ، وألسنة رعيته ، والأعوان على رأيه، ومواضع كرامته ، والخاصّة من عامته، فإنّ أمر هذه الصحابة قدعمل فيه من كان وليه من الوزراء والكتاب قبل خلافة أمير المؤمنين عملاً قبيحاً مفرط القبح ... فصارت صحبة الخليط أمراً سخيفاً . فطمع فيه الأوغاد ، وتزهّد فيه من كان يرغب فيما دونه، حتى إذا لقينا أبا العباس – رحمة الله عليه – وكنت في ناس من صلحاء أهل البصرة ووجوههم ، فكنت في عصابة منهم أبوا أن يأتوه ، فمنهم من تغيّب فلم يَقْدَم، ومنهم من هرب بعد قدومه)[٤].

مقدمة الرسائل:

افتتح ابن المقفع بعض رسائله بعبارة (أما بعد) وأتبعها بالفاء وهذا كما نعلم أسلوب متداول في رسائل العصر العباسي فقد افتتح أدبه الصغير بها فقال (أما بعد فإن لكل

١- محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص ١٤٠/١٤١

٢- الادب الصغير ، ص ٦٢

٣- المرجع السابق، ص ٦٢

٤- رسالة الصحابة ، جمهرة رسائل العرب ، ص ٤٠/٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مخلوق حاجة ولكل حاجة غاية ولكل غاية سبيلا)[١]. كما افتتح رسالة الصحابة بها فقال: أما بعد – أصلح الله أمير المؤمنين وأتّم عليه النعمة، وألبسه المعافاة والرحمة – فإن أمير المؤمنين – حفظه الله يجمع مع علمه المسألة والاستماع) [٢] ويلاحظ أيضاً هنا ظهور الدعاء في أول الرسالة على عادة كتّاب الرسائل في العصر العباسي ، كما افتتح بهذه العبارة عدداً من رسائله الإخوانية كقوله (أما بعد فإن أمر الآخرة والدنيا بيد الله)[٣].

وكقوله : (أما بعد فقد أتاني كتابك فيما أخبرتنا عنه من صلاحك وصلاح ما قبلك)[٤].

البلاغة :

ابتعد ابن المقفع عن استخدام الخيال في رسائله،واستخدم التشبيه الواضح القريب إلى الأفهام والبعيد عن الغموض. وغالباً ما كان تشبيه ابن المقفع معتمداً على التجسيم والتشخيص الواضح المألوف المستمد من الواقع .

وتجدر الإشارة إلى أن التجسيم والتشخيص سمة ظاهرة في رسائل ونثر العصر العباسي الأول ، وشواهدها عند ابن المقفع كثيرة منها:

قوله (الملك الحازم يزداد برأي الوزراء الحزمة كما يزداد البحر بموارده من الأنهار..... وقال: إن المستشير إن كان أفضل من المستشار رأياً فهو يزداد برأيه رأياً كما تزداد النار بالودك ضوءاً)[٥]

وقال أيضاً :(المودة بين الأخيار سريع اتصالها بطيء انقطاعها ،ومثل ذلك مثل كوب الذهب الذي هو بطيء الانكسار هين الإصلاح . والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها، كالكوز من الفخار يكسره أدنى عبث . ثم لا وصل له ابداً)[٦] وقال أيضاً (إذا كنت إنما تضبط أمورك وتصول على عدوك بقوم لست منهم على ثقة من دين، ولا

١- الأدب الصغير ، ص ٤٣

٢- رسالة الصحابة ، جمهرة رسائل العرب ، ص ٢٥

٣- تنزية لابن المقفع ، رسائل البلغاء ، ص ١٣٧

٤- المرجع السابق ،ص١٣٨

٥- الأدب الصغير ، ص ٨٥

٦- المرجع لسابق ، ص ٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رأي، ولا حفاظ من نيهّ .. فإنما أنت في ذلك كراكب الأسد الذي يهابه من نظر إليه، وهو لمركبه أهيب .)[١].

كما استخدم ابن المقفع التشبيه والاستعارة للدلالة على مقصوده، كقوله عندما تحدّث عن طبائع الإنسان وغرائزه (وهي في ذلك كامنة كمون النارفي العود، فإذا وَجَدَتْ قادحاً من علة أو غفلة استورت، كما تستورى النار عند القدح، ثم لا يبدأ ضَرُّها إلابصاحبها كما لا تبدأ النار إلا بعودها الذي كانت فيه)[٢]. وقوله : (لا يمنعك صغر شأن امرئ من اجتناء ما رأيت من رأيه صواباً ، والاصطفاء لما رأيت من أخلاقه كريماً، فإن اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذي استخرجها) [٣].

كما رغب ابن المقفع عن السجع وأنواع البيان، والبديع، والمحسنات اللفظية، والمحسنات المعنوية، إلا ما جاء عفو الخاطر، وسمحت به القريحة دون تكلف، وبما يتفق مع المعنى فقد كان إنشاء ابن المقفع إنشاء مرسلاً بلا تسجيع ولا تقطيع .

ومن استخداماته غير المصنوعة للمحسنات البديعية والزخارف اللفظية، قوله في الأدب الكبير (ثم اعلم أن البغضة خوف وأن المودة أمن) [٤] حيث استخدام المطابقة بين البغضة والمودة وبين الخوف والأمن .

وقوله أيضاً:(فاشعب لمداراة ذلك من كتمان الهيبة، وإظهار الجرأة، والتهاون طائفة من رأيك)[٥] وهنا مطابقة بين كتمان وإظهار ، وبين الهيبة والجرأة .

كما استخدم الجناس التام، وغير التام ومن ذلك قوله (مما يعتبر به صلاح الصالح وحسن نظره للناس أن يكون إذا استعتب المذنب ستوراً لا يشيع ، ولا يذيع)[٦] جناس غير تام بين صلاح وصالح ، وبين يشيع، ويذيع . وقوله:(الزم مجالسة العلماء،ومؤانسة الحكماء)[٧] جناس غير تام بين مجالسة ومؤانسة .كما أكثر من استخدام الازدواج وقد كان

١-الأدب الكبير ، ص١٠٨/١٠٩

٢- المرجع السابق، ص.٦٤٢

٣- الأدب الصغير ، ص ٦٩

٤- الأدب الكبير ، ص ١٥٩

٥- المرجع السابق ، ص ١٤٧

٦- الأدب الصغير ، ص ٦١

٧- الادب الوجيز ، ص٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كتّاب العصر العباسي يستخدمون الازدواج أكثر من السجع، إلا ما كان غير معقد ولا متكلف .

ومن أمثلة ذلك عند ابن المقفع قوله (فإذا كنت لا تعمل من الخير إلا ما اشتهيته ولا تترك من الشر إلا ما كرهته، فقد أطلعت الشيطان على عورتك ، وأمكنته من رُمّتك ، فأوشك أن يقتحم عليك فيما تحب من الخير فيكرهه إليك ، وفيما تكره من الشر فيحببه إليك ، ولكن ينبغي لك في حب ما تحب من الخير، التحامل على ما يستثقل فيه، وينبغي لك في كراهة ما تكره من الشر التجنب لما يُحبُّ منه)[١].

وقوله (إن استطعت ألا تصحب من صحبت من الولاة، إلا على شعبةٍ من قرابة أو مودة ، فافعل ، فإن أخطأك ذلك، فاعلم أنك إنما تعمل على السخرة)[٢].

وقوله (فلا يمتنع الوالي، وإن كان بليغ الرأي والنظر من أن ينزل عنده كثير من الأشرار بمنزلة الأخيار ، وكثير من الخانة بمنزلة الأمناء ، وكثير من الغدرة بمنزلة الأوفياء)[٣].

الاستشهاد بالشعر والحكمة والمثل :

استشهد ابن المقفع بأشعار العرب وأمثالهم ، وأورد القليل من حكمهم ومواعظهم ومأثور كلامهم ، دون الإشارة إلى فصحائهم أو أيامهم. كما أكثر من إيراد الحكم والأمثال المستوحاة من الثقافة الفارسية. وابن المقفع لا يتبع نهجاً معيناً في رده ما يقدم من أقوال فهو مرة يقول : قالت الحكماء، وأخرى قالت العلماء، وأحياناً قائل القول ويكتفي بقوله قال... وأحياناً يأتي بالقول دون إسناد ، هذا إضافة إلى أننا لا نجد أي ترابط يذكر بين هذه الحكم.

ومن أمثلة ذلك قوله : (احفظ قول الحكيم الذي قال : لتكن غايتك فيما بينك وبين عدوك العدل، وفيما بينك وبين صديقك الرضاء)[٤].

وقد يعرض ابن المقفع حكمه وآدابه بقالب قصصي كقوله في الأدب الكبير (وإني

١- الأدب الصغير ،ص ٦٤

٢- الأدب الكبير ، ص ١١٤

٣- المرجع السابق، ص ١١٥

٤-المرجع السابق ص ٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مخبرك عن صاحب لي كان من أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما أعظمه في عيني صِغرُ الدنيا في عينه، كان خارجاً من سلطان بطنه ، فلا يتشهّى مالا يجد ، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً من سلطان فرجه . فلا يدعو إليه بريبة . ولا يستخف له رأياً ولابدناً . وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يقول ما لايعلم ، ولا ينازع في ما يعلم ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة ، فلا يقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة، كان أكثر دهره صامتاً ، فإذا نطق بذّ الناطقين . كان يرى متضاعفاً مستضعفاً، فإذا جاء الجد فهو الليث عادياً ، كان لا يدخل في دعوى ولا يشترك في مراء ،ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضياً عدلاً وشهوداً عدولاً، وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء ، وكان لا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة . وكان لا يتبرم، ولا يتسخّط ولا يشتهي، ولا يتشكّى. وكان لا ينقم على الولي، ولا يغفل عن العدو، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحليته وقوته)[1].

ولا يكتفي ابن المقفع بإيراد الحكم بل يحاول فرض أحكامه على الناس فيقول: بعد عرض هذه الحكم (فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت ولن تطيق، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع)[2].

وينبغي الإشارة هنا إلى الأمثال العربية، والأبيات الشعرية الواردة في الأدب الوجيز للولد الصغير فمن المؤكد أن ابن المقفع لم يورد هذه الأمثال والأبيات، وذلك لبعد المسافة بينه وبين شعراء أمثال المتنبي والبحتري فهؤلاء الشعراء لم يعيشوا في عهد ابن المقفع فكيف يستشهد بأشعارهم، ولا بد أن تكون هذه الاستشهادات من إضافات مترجمي هذه الرسالة من العربية إلى الفارسية، ومن الفارسية إلى العربية .

أسلوب الخطاب في الرسائل:

شاع أسلوب الوعظ والإرشاد في رسائل ابن المقفع ولتحقيق ذلك ركز ابن المقفع على استعمال أسلوب الأمر والنهي، واستخدام الأسلوب الشرطي ، ولعل وعظه وإرشاده هما اللذان حملاه على الإكثار من إيراد الحكم ، والأمثال كما أسلفت، وبما أن أسلوب الوعظ يرتبط ارتباطاً كبيراً بأسلوب الخطابة العربية القديمة فقدجاء أسلوب ابن المقفع خطابياً إلى

١- الادب الكبير ، ص ١٦٤،١٦٥

٥- المرجع السابق ، ص ١٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حد كبير فاتسم (بالإيجاز والتوازن في العبارات والوضوح في المعنى غالباً)[١].

وأمثلة ذلك كثيرة ومنها (إن سمعت من صاحبك كلاماً أو رأيت فيه رأياً يعجبك، فلا تنتحله تزيناً به عند الناس، واكتف من التزيُّن بأن تجتني الصواب إذا سمعته وتنسبه إلى صاحبه ، واعلم أن انتحالك ذلك مسخطة لصاحبك، وأن فيه مع ذلك عاراً أو سخفاً، فإن بلغ بك ذلك أن تشير برأي الرجل وتتكلم بكلامه وهو يسمع . جمعت مع الظلم قلة الحياء ، وهذا من سوء الأدب الفاشي في الناس)[٢].

وقوله : (إذا هممت بخير فبادر هواك لا يغلبك وإذا هممت بشر فسوّف هواك لعلك تظفر)[٣].

أثر الثقافات المختلفة :

ظهرت آثار الثقافات التي ثقفها ابن المقفع في رسائله سيما الثقافة الفارسية، والثقافة العربية الإسلامية، إضافة إلى ظهور أثر الثقافة اليونانية .

•**الأثر الفارسي**: يبدو أثر الثقافة الفارسية واضحاً في جلّ ما كتبه ابن المقفع في حديثه عن السلطان ، وفيما قدّمه لنا عن أنظمة الحكم الساساني وقوانينه ...وفي الحكم والأمثال التي أوردها عبر مصنفاته. ومن ذلك قوله (العاقل ينظر فيما يؤذيه وفيما يسره ، فيعلم أن أحق ذلك بالطلب ، إن كان مما يحب ،وأحقه بالاتقاء، إن كان مما يكره، أطوله، وأدومه وأبقاه، فإذا هو قد أبصر فضل الآخرة على الدنيا، وفضل سرور المروءة على لذة الهوى، وفضل الرأي الجامع الذي تصلح به الأنفس والأعقاب على حاضر الرأي الذي يستمتع به قليلاً ثم يضمحل، وفضل الأكلات على الأكلة، والساعات على الساعة)[٤] .

فهذا القول صدى لرأي أبيقور(وهو أنه يجب أن يراعى في تفضيل لذة على لذة تفضيل اللذائذ العقلية والروحية على اللذائذ البدنية)[٥].

كما تأثر ابن المقفع بالبيان والبلاغة الفارسية فكان (في بعض المواضع يلجأ إلى

١- وهيب طنوس ، في النثر العباسي ، ط٢ ، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية ، ١٩٨١ ، ص ٩٧-٩٩

٢- الأدب الكبير ، ص ١٣١

٣- الأدب الصغير ، ص ٦٨

٤- المرجع السابق، ٥١

٥- ليلى سعد الدين ، كليلة ودمنة في الأدب العربي ، ص٧٦. عبد اللطيف حمزة ابن المقفع ، ص١٦٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التفصيل ويميل إلى الإسهاب، وإذا عمد إلى الايجاز فإنه سرعان مايتناول الكلام بالتفصيل فيوضحه بعد إبهامه وهذا ليس بغريب عنه فقد ورد عن خسروأبرويز أنه أرشد كاتبه قائلاً(إنما الكلام أربعة : سؤالك عن الشيء، وأمرك بالشيء وخبرك عن الشيء ، وسؤالك الشيء. فهذه دعائم المقالات إن التمس إليها خامس لم يوجد ، وإن نقص منها رابع لم تتم ،فإن طابت فأسجح وإذا سألت فأوضح ، وإذا أمرت فاحكم ، وإن أخبرت فحقق، واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول ، وليس بمحمود في كل موضع ، ولا بمختار في كل كتاب ، بل لك مقام وقال)[١].

•الأثر الاسلامي: ظهر الأثر الإسلامي واضحاً في رسائل ابن المقفع وبرز هذا في تحميداته حين قال(الحمد لله ذي العظمة القاهرة والآلاء الظاهرة، الذي لا يعجزه شيء ولا يمتنع منه ولا يدفع قضاؤه ولا أمره، وإنما قوله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، والحمد لله الذي خلق الخلق بعلمه، ودبر الأمور بحكمه، وأنفذ فيما اختار واصطفى منهاعزمه لقدرة منه عليها)[٢].

ولا يكتفي ابن المقفع بهذه التحميدات بل إنه يقتبس الكثير من آيات القرآن الكريم لفظاً ومعنى، فقال في تعزية له (أما بعد فإن أمر الآخرة والدنيا بيد الله، هو يديرهما ويقضي منهما ما يشاء لاراد لقضائه، ولا معقّب لحكمه ... وقال (ووقّت لكل شيء ميقات أجل لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، فليس احد من خلقه إلا وهو مستيقن بالموت لا يرجو بأن يخلصه من ذلك أحد ، نسأل الله خير المنقلب...وقال عليك بتقوى الله والصبر وحسن الظن بالله فإنه جعل لأهل الصبر صلوات منه ورحمة وجعلهم من المهتدين)[٣].

وقال أيضاً(أعظم الله على المصيبة أجرك ، وأحسن على جليل الرزء ثوابك ، وعجّل لك الخلف فيه، وذخر لك الثواب عليه)[٤].

كما اقتبس ابن المقفع من الحديث النبوي فقال في رسالة الصحابة (لا طاعة للمخلوق

١- محمد غفراني الخراساني ، عبد الله بن المقفع، ص ٤٧٩-٤٨٠

٢- محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص ١٣٥

٣- المرجع السابق، ص١٣٧

٤- المرجع السابق، ٣٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في معصية الخالق)[١]. وهذا حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه [٢] .

وقال (وأعدل السيرأن تقيس الناس بنفسك ، فلا تأتي إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك)[٣]. (فهذا صدى للحديث النبوي « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[٤].

وقوله (الدنيا دول فما كان فيها لك أتاك على ضعفك ، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك)[٥].

كما ضمن ابن المقفع أقواله بعض الحكم والأمثال العربية ، دون أن ينسب هذه الحكم لقائليها فقال(ليس أضيع من جميل يصنع من غير شاكر، ولاأخسر من صانعه) فهذا مأخوذ من قول زهير :

(ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذماًعليه ويندم)[٦]

وقوله (وماعاد وبال البغي إلا على صاحبه)فهذا مأخوذ عن المثل العربي (من سلّ سيف البغي قتل به)[٧].

وقال (إن ضاع المعروف عند الناس لا يضيع عند الله) فهذا مأخوذ من قول الحطيئة :

(من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس)[٨].

كما شاعت في رسائل ابن المقفع المصطلحات الإسلامية ، سيما رسالة الصحابة ومن ذلك قوله(فأما إقرارنا بأنه لا يطاع الإمام في معصية الله ، فإنما ذلك من عزائم الفرائض والحدود التي لم يجعل الله لأحد عليها سلطانا، ولو أن الإمام نهى عن الصلاة والصيام والحج، أو منع الحدود وأباح ما حرّم الله، لم يكن له في ذلك أمر)[٩].

١- رسالة الصحابة –جمهرة رسائل العرب ، ص ٣٠

٢- صحيح مسلم ، شرح النووي . ج١٢ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ص٢٢٧.

٣- الأدب الصغير ، ص ٧٣

٤- صحيح البخاري ج١ ،كتاب الإيمان، حديث رقم ١٣ ، تحقيق د. مصطفى ديب، ط١، دارالقلم ، دمشق- بيروت ، دار لامام البخاري ، دمشق ص ١٩٨١،ص١٤٠ .

٥- الأدب الصغير ، ص ٦٠

٦- ديوان زهير بن ابي سلمى دار صادر ،بيروت ،ص٨٧

٧-أبو الفضل أحمد بن محمد بن ابراهيم الميداني،مجمع الأمثال تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ج٣،ط٢ ،دار الجيل بيروت لبنان،١٩٨٧،ص٣٦١

٨- ديوان الحطيئة شرح أبي سعيد السكري ، دار صادر ، بيروت، ١٩٨١ . ص١٠٩

٩- رسالة الصحابة ،جمهرة رسائل العرب ، ص ٣١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله (فمن حسن التقدير إن شاء الله أن لا يدخُلَ على الأرض ضرر، ولا بيت المال نقصان من قبل الرحمن)[١].

وقوله (ولكن أخذ في أمر أهل الشام على القصاص ، حرموا كما كانوا يحرمون الناس، وجُعل فيئهم الى غيرهم كما كان فيء غيرهم إليهم)[٢].

•**الأثر اليوناني**: تأثر ابن المقفع بأسلوب أرسطو المنطقي حيث أن أرسطو لم يقم وزناً في مؤلفاته للشكل، بل كان اهتمامه منصباً على الموضوع، ولهذا نجد هذا الأسلوب يمتاز بخلوه من الزخارف، والعبارات الرشيقة ، والصورة الجميلة، والمحسنات اللفظية، بل إنه أحياناً يصل إلى حد الغموض حين يحتوي على عبارات غامضة أو اصطلاحات منفّرة أو ألفاظ غير مستعملة في معناها ، كما أن ابن المقفع أخذ أسلوب الحوار والجدال عن أفلاطون الذي ملأ مؤلفاته بالمحاورات التي عبّرت عن أدق الأفكار بسهولة ووضوح، وإن كان أيضاً في بعض الأحيان يعتمد على الزخرف مستعيناً بألفاظ غريبة مما يجعله معقداً غامضاً فيما يكتب [٣] .

كما تأثر ابن المقفع بسقراط وطريقته في تعليم الناس[٤] ، ولهذا نجده يقول :(من العلم أن تعلم أنك لا تعلم بما لا تعلم)[٥].

وممّا تأثر فيه بأرسطو قوله (لتعرف رعيتك أبوابك التي لا ينال ما عندك من الخير إلابها . والأبواب التي لا يخافك خائف إلا من قبلها)[٦].

فقدورد هذا المعنى عند أرسطوطاليس في كتاب أرسله إلى الإسكندر وفيه (املك الرعية بالإحسان إليها لتظفر بالمحبة منهافإن طلبك ذلك منها بإحسانك، هو أدوم بقاء منه باعتسافك)[٧].

• وبعد .. فقد اختلف الدارسون في قدرة ابن المقفع اللغوية رغم ما ذكرنا من سماته

١-رسالة الصحابة ، جمهرة رسائل العرب ، ٣٤

٢-المرجع السابق ، ص٣٩

٣- محمد صقر خفاجة ، تاريخ الأدب اليوناني ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٦ ، ص ١٨١/١٨٨

٤- عبد اللطيف حمزة ، ابن المقفع ص ١٦٣/ليلى سعد الدين كليلة ودمنه ، في الأدب العربي ، ص ٧٦

٥- الأدب الصغير ، ص٧٣

٦- الأدب الكبير ص ١٠٣

٧- وهيب طنوس ، في النثر العباسي ، ص ٩٤ -٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاسلوبية فرأى د. وهيب طنوس أن إتقان ابن المقفع للغتين الفارسية والعربية وتعيينه بشكل خاص كاتباً رسمياً للأمراء يدل على قدرته، وعلى إتقانه للغة العربية إتقاناً تاماً في اللغة والكتابة، يدل على ذلك مؤلفاته الخاصة التي تؤكد قدرته على استعمال اللغة العربية بحرية وطلاقة (ذلك الاستعمال الذي لم يكن بعد في ذلك العصر لدى الكتاب، إلا في بداية التطور والبلوغ)(١).

وهذا ما يراه يوهان فك الذي يعتبر لغة ابن المقفع (سوية ، شفافة ، مبسطة حسب أغراضها تكتفي بالتعبيرات العامة وتوثر تصوير الخصائص البارزة بعبارات مقاربة) حتى في صياغة ألفاظه وتركيبها، كان يعمد إلى التبسيط بما يتلاءم والغرض الذي يكتب فيه ، كما لانجد عنده ألفاظاً غريبة كتلك الموجودة في العربية القديمة،كذلك لا نجده يعقّد تركيبه النحوي ، فلا يستخدم مثلاً عبارات التعجب، والاستغاثة القصيرة ذات الدلالات المتعددة في صيغها الإسمية والحرفية)(٢).

ويؤيد هذا الرأي هاملتون جب فيقول(لغة ابن المقفع، وتركيب جمله أدنى إلى البساطة، وأسلوبه أكثر مباشرة واستقامة، وأقل تلميحاً وإشارة ، والالتجاء إلى مافي القارئ من القوة الخيالية والمقدرة اللغوية يصل في كتابته إلى ما يقرب من العدم. كماأن ازدواج الفواصل يكاد لا يكون له وجود، وبدلاً من التصوير اللفظي القوي والألفاظ الطنانة يعتمد ابن المقفع في استحداث روعة أسلوبه على استخدام العبارات المصقوله الجلية التي ما زالت تشتمل على قدر من معناها المهجور غيرأنه يعاني في بعض الاحيان شيئاً من الصعوبة في العثور على العبارة الدقيقة التي تؤدي المعنى الذي يقصده، وبذلك يصبح غامضاً نتيجة التساهل في التعبير.

... وكان إذا عالج موضوعات جديدة عبّر عن المعاني المجردة ، التي لم يكن لها بعد اصطلاحات ثابتة في اللغة المتداولة ،كان مضطراً إلى ابتكار ألفاظ ومصطلحات من عنده لتؤدي تلك المعاني)(٣).

١- وهيب طنوس، في النثر العباسي ، ص ٥٠-٥١ .

٢- يوهان فك . العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، ترجمة رمضان عبد التواب . مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٨١ ، ص٦٥

٣- هاملتون جب، دراسات في الأدب العربي، المركز العربي للكتاب، دمشق ، ص ٢٤-٢٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرى «د.أحمد كمال زكي سهولة وبساطه لغة ابن المقفع لتتفق مع المعنى، وليفهمها الخاصة والعامة على حدسواء»[١].

في حين يرى محمد مهدي البصير أن تكوين ابن المقفع اللغوي تظهر فيه العجمة، فصحيح أنه كان يستمع لأبي جاموس ثور الذي كان يأتي البصرة على آل سليمان بن علي، لكن أبا جاموس لم يؤثر كثيراً في هذا التكوين، ذلك لأن هذا لم يكن إلا بعد أن نضج أدب ابن المقفع ، واستحكمت ثقافته »[٢].

بل إن طه حسين يرى اضطراب لغة ابن المقفع وضعفها فهو في رأيه مستشرق يتقن فهم اللغة العربية ولا يحسن الأداء فيها [٣].

ويعترف يوهان فك بما وقع به ابن المقفع من أخطاء فيقول (صحيح أن العرب راقتهم تلك اللغة السهلة الواضحة المتدفقة فاحتذاها العرب المسلمون في أدبهم ، إلا أن هذا لم ينف عن ابن المقفع وقوعه بالأخطاء ، كذلك الخطأ الذي أخذه عليه الأصمعي حين عرّف لفظي بعض وكل ، حين قال «العلم كثير ولكن أخذ البعض خير من ترك الكل »»[٤].

ويدافع محمد غفراني الخراساني عن ابن المقفع راداً هذه الأخطاء اللغوية ، وهذا الاضطراب في الأسلوب إلى تصرف النا سخين وتصحيفهم »[٥].

١- أحمد كمال زكي ، الحياة الأدبية في البصرة ، ص ٤٩٩

٢- محمد مهدي البصير ، في الأدب العباسي ، ط٣، مطبعة النعمان ، النجف الاشرف ، ١٩٧٠، ص ٩

٣- طه حسين . من حديث الشعر والنثر ، ص ١٠٦

٤- يوهان فك ، العربية ، ص ٦٨/٦٧

٥- محمد غفراني الخراساني ، عبد الله بن المقفع ، ص ٤٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعض الأقوال التي قيلت في ابن المقفع :

*يقول الخليل بن احمد (١٠٠ – ١٧٠هـ) بعد اجتماعه بابن المقفع وسؤاله كيف رأيت صاحبك ؟ يقول (ما شئت من علم وأدب إلا أني رأيت كلامه أكثر من علمه) (١).

* ويروي الجاحظ (١٦٠– ٢٥٥هـ) عن أبي بكر الأصم قوله (ما رأيت شيئاً إلا وقليله أخفُّ من كثيره، إلا العلم فإنه كلما كثر خفّ محمله ، ولقد رأيت عبد الله بن المقفع هذا في غزارة علمه وكثرة روايته كما قال الله عز ذكره (كمثل الحمار يحملُ أسفاراً) قدأوهنه علمه وأذهلَه حلمُه ، وأعمته حكمته، وحيّرته بصيرته)(٢).

*أما الجاحظ نفسه فيقول في ابن المقفع (كان ابن المقفع مقدّماً في بلاغة اللسان والقلم ، والترجمة، واختراع المعاني، وابتداع السيَر، وكان جواداً فارساً جميلاً، وكان إذا شاءَ أن يقول الشعر قاله،وكان يتعاطى الكلام، ولم يكن يحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً، وكان ضابطاً لحكايات المقالات ،ولا يعرف من أين غُرّ المغتر ووثق الواثق، وهو في آخر رسالته الهاشمية جيد الحكاية لدعوى القوم رديٌ المدخل في مواضع الطعن عليهم)(٣).

لكن الجاحظ يشك في قدرة ابن المقفع على الترجمة فيقول (إن المترجم لا يمكن أن يترجم ما في الكتب، محتفظاً بخصائص المعاني، وبمذهب المؤلف، ودقائق اختصاراته، وخفيّات حدوده، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها، ويؤدي الأمانة فيها ويقوم ما يلزم الوكيل ، ويجب على الحَريّ، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها والإخبار عنها على حقها وصدقها إلا أن يكون في العلم بمعانيها، واستعمال تصاريف ألفاظها، وتأويلات مخارجها، مثل مؤلف الكتاب وواضعه، فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق، وابن ناعمة، وأبو قرّه، وابن فهر، وابن وهيلي، وابن المقفع مثل أرسطاطاليس ؟) (٤).

*ويذكر ابن عبد ربه (٢٤٦– ٣٢٨هـ) اسم ابن المقفع بين أسماء الكتّاب الذين برعوا

١– الأصفهاني ، الأغاني ، تحقيق علي النجدي ناصف ، إشراف محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ ،ص ٢٢٣

٢– أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، رسائل الجاحظ كتاب ذم أخلاق الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون، ج٢،ط١ مكتبة الخانجي مصر ١٩٧٩ ص ١٩٥.

٣– الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، كتاب المعلمين ، ج٣ ، ص٤٤

٤– الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج١، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ص ٧٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالكتابة واستحقوا اسمها)[١].

*ويروي أبو الطيب اللغوي (٣٥١هـ) خبراً عن براعة ابن المقفع في فنه، يقول(أخبرنا محمد قال : حدثنا أبو عبد الله محمد بن زياد الزيادي، والحسن بن محمد المهريّ قالا: ثنا عبد الله بن محمد التّوحيّ قال : سمعت أبا السّمراء يقول: سمعت يحيى بن خالد البرمكي يقول: أربعة ليس في فنهم مثلهم : أبو حنيفة في فنه ، والخيل بن أحمد في فنه ، وابن المقفع في فنه ، والفزاري في فنه)[٢].

كما يروي أبو الطيب خبراً آخر عن محمد بن سلاّم يقول فيه : (سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع)(٣).

ويقول الشريف المرتضى (٣٥٥- ٤٣٦هـ) عن ابن المقفع في أماليه (كان ابن المقفع مع قلّة دينه ، جيّد الكلام، فصيح العبارة ، له حكم وأمثال مستفادة)[٤]

ويقول ابن النديم (٤٣٨هـ) (بلغاء الناس عشرة عبد الله بن المقفع ، عمارة بن حمزة، جبل بن يزيد، حجر بن محمد ، محمد بن حجر ، أنس بن أبي شيخ، وعليه اعتمد أحمد بن يوسف الكاتب، سالم ، مسعدة ،الهرير (ابن صريح) وعبد الجبار بن عدي أحمد بن يوسف)[٥].

ويذكر الحصري (٤٥٣هـ)أن ابن المقفع من حكماء زمانه ولكنه أحجم عن قول الشعر بحجة (الذي أرضاه لا يجيئني والذي يجيء لا أرضاه)[٦].

يقول صاعد الأندلسي (٤٦٢هـ)إن ابن المقفع (أول من اشتهر في الدولة العباسية بصناعة المنطق) ووصفه بأنه (الخطيب الفارسي كاتب أبي جعفر المنصور)[٧].

يقول جمال الدين القفطي (٥٦٨- ٦٤٦هـ) في ابن المقفع (كان فاضلاً كاملاً،

١- ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٤، دار الكتاب العربي، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص١٧٠

٢- أبو الطيب اللغوي ، مراتب النحويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، ص ٦٨

٣- المرجع السابق، ص ٥٥

٤- الشريف المرتضى، الأمالي ، القسم الأول ، ص ١٣٦

٥- النديم ، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحاق المعروف بالوارق ، الفهرست تحقيق رضا تجدّد ، ص١٤٠

٦- أبو اسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيراوني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق زكي مبارك ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، ج١، ط٣، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٥٣، ص٢١٢/٢١٣

٧- صاعد الأندلسي ، طبقات الأمم ، تحقيق حياة بو علون ، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٥، ص ١٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو أول من اعتنى في الملة الإسلامية بترجمة الكتب المنطقية لأبي جعفر المنصور ، وهو فارسي النسب ألفاظه حكيمة، ومقاصده من الخلل سليمة)[١].

يقول ابن نباتة المصري(٦٨٦- ٧٦٨هـ) : (مات ابن المقفع قتيلاً بسبب كتاب كتبه) [٢].

* ويقول ابن حجر العسقلاني (٧٧٣- ٨٥٢هـ) في ابن المقفع (ابن المقفع صاحب اليتيمة مجوسي أسلم على يد عيسى بن عليّ عم المنصور، ويرجع سبب قتله إلى عهد الأمان الذي تشدد في كتابته لعبد الله بن علي بعد خروجه على المنصور. وابن المقفع صاحب حكمة ورأي سديد ذكر ابن عدي بسنده إلى محمد بن عمارة قال : قال اسماعيل بن مسلم : استشرت ابن المقفع في أمر أهمني فأجاد في الرأي)[٣].

أما الباحثون المحدثون فتناقضت آراؤهم في ابن المقفع ومن هذه الآراء :

*ويقول السيد أحمد الهاشمي : (ابن المقفع أحد أشهر كتاب العصر العباسي، وكان أمّة في البلاغة ورصانة القول وشرف المعاني إلى بيان غرض، وسهولة لفظ، ورشاقة أسلوب ، ولا توصف بلاغته بأحسن مما وصف هو البلاغة حيث يقول « البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها)[٤].

* ويقول جرجي زيدان (كان ابن المقفع عالماً بالفارسية متعمقاً فيها ، كما كان يعرف اللغتين الفهلوية واليونانية . ونظراً لنشأته في بيئة البصرة الأدبية ، فقد برع في اللغة العربية وآدابها ، وكان سليم الذوق ذا قريحة إنشائية ، وقد امتاز أسلوبه بالبلاغة والسهولة)[٥].

ويرى د. طه حسين أن (ابن المقفع ينحت من صخر ولهذا نجد صعوبة في فهم ما يقوله[٦].

١- جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، تصحيح محمد أمين الخانجي الكتبي ، ط١ ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٢٦هـ، ص١٤٨

٢-جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصري ، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٤، ص ٢٦٩.

٣- شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، لسان الميزان ، ج٣ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ص٤٤٩.

٤- السيد أحمد الهاشمي ، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، تحقيق لجنة من الجامعيين ، ج٢، منشورات مؤسسة المعارف ،بيروت ،ص١٦٤

٥- جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، ج٣، مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس ، دار الهلال ، ص٩٤

٦- طه حسين ، من حديث الشعر والنثر المجموعة الكاملة ، ص ٦١٤

All Rights-Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

•ويقول شوقي ضيف في ابن المقفع (إن ابن المقفع كان من البلاغة في الذروة ويكفي أنه استطاع أن ينقل أهم ما عرفه في لغته من تراث عقلي ، وتاريخي ، وفلسفي، وأدبي، إلى العربية مع الاحتفاظ لها بكيانها ومشخصاتها)(١).

وعن أسلوب ابن المقفع يقول(هو أسلوب واضح شفاف ليس فيه تعقيد ولا إغراب، وإنما فيه الاسترسال العذب ، وفيه الألفاظ القريبة والعبارات المبسطة حسب الأغراض والمعاني التي كان ينقلها .وكان ينفر نفوراً شديداً من الإغراب في اللفظ والتوعرفيه)(٢).

•ويقول أحمد أمين (القارئ لكتب ابن المقفع وتاريخه يخرج منه على أديب ثقف ثقافة واسعة، فارسية وعربية، ينزع نزعة قوية لقومه من الفرس، ويحيى أمته بنشر آدابها وسياستها، وتاريخها، ويرى عيوب النظم الإجتماعية في عصره فينادي بإصلاحها بتطبيق الصالح من النظم الفارسية ، ثم هو نبيل شريف النفس يسترعي بنبله وأدبه أنظار الناس)(٣).

•ويقول أحمد كمال زكي (ابن المقفع كاتب يعرف الشعر وتُعَدُّ عبارته قمة في البيان العربي ولكنه في الوقت نفسه نقد الدين وشَغَلَ نفسه بمشكلات المجتمع وصدر عن أدب قوامُهُ فلسفة مجتمعيّة ... قوامه دعوات «فضيلية» إلى إصلاح شامل ، وقد عرف اليونانية ، وعرف الفارسية ونقل عن الاثنتين، وأثار قضايا لا يمكن أن تصدر إلا عن أحد علماء المجتمع)(٤).

•ويقول عبد اللطيف حمزة (كان ابن المقفع من الكتّاب الذين أحبوا الكتابة، ورغبوا في أن تكون مصدر فخر لهم على العرب الذين كانوا دائمي الفخر بالخطابة ... وقد برع ابن المقفع أدبياً ونجح في صبغة الأدب العربي بالصبغة الفارسية)(٥).

•ويقول محمد كرد علي(كل ماخص به ابن المقفع من بيان ما كان مما يستغرب حقيقة لو لم يطبق على نفسه ما دعا إليه من الأخلاق، فهو في علمه وعمله سواء وغاية، لا يخدع ، ولا يكذب، ولا يموّه، ولا يبخل ، ويعمل الصالحات من دون غرض يتوقعه، ويدعو

١- شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط٣، دار المعارف ، مصر ، ص١٤٢

٢- المرجع السابق، ص ١٤٣

٣- أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج١، ص٢٢٧

٤- أحمد كمال زكي ، الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري ، ط١ ، دار الفكر ، دمشق، ١٩٦١، ص١٤٨/١٤٩

٥- عبد اللطيف حمزة ،ا بن المقفع، ص ٦٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى الإصلاح، ولا غاية له إلا رفع شأن جماعة الإسلام هو روح ندر جداً ظهور مثله في القرون الطويلة وصاحب خطة رشيدة ما حاد عنها قيد أنملة وما أغرم إلا بنفع الناس)[١].

ويقول محمد غفراني الخراساني في أسلوب ابن المقفع (أدنى إلى البساطة ، وأكثر إستقامة وأقل تلميحاً وإشارة، وبدلاً من التصوير اللفظي القوي يعتمد في استحداث روعة أسلوبه على استخدام العبارات المصقولة ، وكان بذلك يتبنى الأساس الذي يضعه لمن جاء بعده من الكتّاب ، وإن كان أسلوبه لم يكن قد تطور بعد تطوراً كاملاً، إذ إنه كان يعالج موضوعات جديدة، ويعبر عن المعاني المجردة التي لم تكن قد وُضعت لها بعد اصطلاحات، ولذلك اضطر إلى ابتكار ألفاظ و مصطلحات عربيّة من بنات أفكاره ، لتؤدي تلك المعاني التي تلبس الثوب العربي لأول مرة على مثال ما يفعل بعض كتاب العرب المعاصرين، إذ يحاولون التعبير عن الأفكار الحديثه باستخدام التراكيب الجديدة في اللغة العربية، وابتكار أسلوب متصرّف قوي التعبير)[٢].

*ويقول مصطفى الشكعة : (مهما يكن من أمر عقيدة ابن المقفع فإن عقليته وآثاره حصاد إسلامي مطلق، وهو واحد من الذين صقلتهم المعرفة الإسلامية، والعلوم العربية، فأخذ منها وأعطى ومنحها ذوب نفسه، فوهبته من معينها الصافي ، ومنهلها الفياض، ونبعها السلسبيل ما جعله علماً من أعلام البيان العربي وقمة من قمم الكتابة الأدبية)[٣].

*ويقول جوزيف الهاشم في ابن المقفع : (فقد كان أول رائد للأدب السياسي والاجتماعي في الآداب العربية بما اشتمل عليه أدبه، من معاناة لمشكلات مجتمعه ، وتفاعله مع ظروف الواقع الذي عاش فيه. لقد نقل ابن المقفع الأدب في كتبه نقلة جديدة بعدت به عن أن يكون مجرد قول لا اعتماد فيه إلا على البراعة الشكلية، والزخرفة البيانية، إلى أدب يفهم منه على أنه رسالة يتمثل فيها صدق التجربة، وصفاء العقل ،واختمار الثقافة، وقوة الصلة بين مضمون النص وصوره التعبيرية ، وبين الحركة الإنسانية الإجتماعية المتفاعلة مع

١- محمد كرد علي ، كنوز الأجداد ، ط٢ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٨٤ ص٦٥

٢- محمد غفراني الخراساني ا بن المقفع، ص ٤٥٣

٣- مصطفى الشكعة ، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية ، كتاب النثر ، ط٣، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ، ١٩٩٣،ص٢٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجدان الكاتب وتفكيره، وقد تجلّت عظمة هذه الرسالة بما تضمنته من أفكار ثورية هزّت قصور الخلفاء، وأقضت مضاجعهم، وثارت باستبدادهم ، وصورت مظالمهم، وفضحت أولي الأمر منهم من ساسة، وولاة ، وبطانة ، وجباة، ولم تقف ثورتها عند هذا الحد بل حرّضت عليهم الجماهير، وفتحت عليهم عيون الرعية بما قدمت إليهم من دروس ملأتها بالحكمة، وشحنتها بالموعظة والعبرة)[١].

*أما محمد نبيه حجاب فيقول(إن ابن المقفع في الأدبين الصغير والكبير كان ناقلاً أكثر منه مؤلفاً، فقد أفرغ فيهما ما وعته الذاكرة من حكم الفرس وأمثالهم ، وراض ذلك كله بمنطق اليونان وأساليبهم، كقوله « ومن العلم أن تعلم انك لا تعلم ما لا تعلم) ومع ذلك فإن شخصيته تجلت في حسن الاختيار، ورصانة العبارة ، وإصابة الغرض)[٢].

* ويقول إيليا سليم الحاوي (عبارة ابن المقفع تخلّت عن الإقبال والإدبار، وامتنعت عن التكرار والمماضغة، حتى كأن النثر الحقيقي ولد على يديه)[٣].

*ويرى جورج غريب (أن أدب ابن المقفع توجيهي وفني ، فهو توجيهي لأن ابن المقفع حرص على الالتزام بالأخلاق التي حث عليها في كتبه من جرأة، ونبل، وتعفف، ورصانة، وذكاء ، وأدب. ولأنه حرص على نقل آداب قومه إلى العرب بأسلوب بديع وفني، لأن ثقافة ابن المقفع اتسمت بالشمول والاتساع، فواكب التيارات الفكرية التي شاعت في عصره) [٤].

*ويقول محمد أمين فرشوخ في تحقيقه لكليلة ودمنة (إن ماكتبه ابن المقفع صورة عن شخصيته فإذا كان مؤمناً ذكياً مثقفاً ، ألمعياً معتمداً على نفسه ، قوي الإرادة جريئاً على الحكام ، حسن الأدب . براً بالصديق ، فقد كانت مؤلفاته تعبيراً واضحاً أسلوباً ومضموناً وغرضاً عن هذه المزايا، لقد خبر ابن المقفع لغة الفرس وثقافتهم كما اتصل بالفكر اليوناني والهندي والسرياني ، وتوّج ذلك بثقافة عربية واسعة وإتقان للغة العربية، ودربة على

١- جوزيف الهاشم ، أحمد أبو سعد وآخرون ، المفيد في الأدب العربي ، ج١، ط١، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ،١٩٦٤، ص٢٣/٣٢

٢- محمدنبيه حجاب ، بلاغة الكتّاب في العصر العباسي ، دراسة تحليلية ، نقدية لتطور الأساليب ، ط٢، مكتبة الطالب الجامعي ، ١٩٨٦و،ص ٢١٠

٣- إيليا سليم الحاوي ، نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص ، ط٣، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٩، ص ٦٧٧

٤- جورج غريب ، ابن المقفع ، دراسة في الأدب والتاريخ ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ص٢٩/٣٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أساليب البلاغة وقد عمل ابن المقفع وهو دون العشرين من عمره كاتباً في دواوين الولاة فاستفادوا من قلمه العربي ، ومن معرفته بعلوم جهلها العرب)[١].

*ويقول عمر فروخ :(كان ابن المقفع ذكياً دقيق الملاحظة واسع المعرفة متزن الرأي كريم الخُلق وفياً ولكنه أقبل على حياة اللهو والمجون ، فكان يجالس مطيع بن إياس ، ووالبة بن الحباب، وغيرهم ممن اتهموا بالزندقة، وكانوا أقطاباً في المجون والخلاعة . كما أنه كا ن مدمن خمر يحب سماع الغناء ، ولعل ذلك من تأثير بيئته الفارسية الأولى التي بدأت تؤثر على البيئة العربية . كما كان ابن المقفع متهماً بالزندقة – رغم أن هذ التهمة كانت شائعة في عصره لا بسبب الدين فحسب بل بسبب السياسة أيضاً– ورغم إسلامه إلا أن مجوسيته السابقة التي صبغت عقليته ، بقيت راسية في قرارة نفسه، لذلك نجده دائم المقارنة. بين دينه القديم والدين الجديد آخذاً بعددٍ من الآراء المجوسية ، ولعل ذلك السبب في مخالفته للفقهاء في كثير مما يعتقدون أنه من الدين) [٢].

ويقول أيضاً(ابن المقفع بارع في البحث والتحليل وفي سرد القصص، وضرب الأمثال ثم إنه يأتي بالبحث، وبالقصص ، والأمثال متداخلة في استطرد محكم ، ويكون البحث والتحليل والحكم موزّعة بين أقسام القصة الواحدة، وبين الأمثال المضروبة. وهكذا يحمل ابن المقفع القارئ العادي على قراءة البحث والتحليل، وهو يحاول أن يتتبع القصة والأمثال المضروبة)[٣]

*ويقول حنا الفاخوري (كان مذهب ابن المقفع في سياسته مذهب المجاراة لا مذهب العقيدة، فقد شهد مصرع بني أمية وشهد قسوة بني العباس وشهد على كل حال اضطهاد العرب للموالي مما أفعم قلبه كرهاً للعرب ثم إنه أظهر مع الموالي ميله إلى بني العباس وإن لم يكن قلبه معهم فما كان عباسي الهوى ولا كان عربي الميل ، ولكنه كان علوي السياسة فارسي النزعة، متظاهراً بالصداقة لبني العباس تجبناً لشرهم ، وهكذا كان ينزع نزعة

١- عبد الله بن المقفع، كليلة ودمنة ، تحقيق محمد أمين فرشوخ ، ط١، دار الفكر العربي ، بيروت ، ١٩٩٠، ص١٤

٢- عمر فروخ ، عبد الله بن المقفع وكتاب كليلة ودمنة ، ط٢، منشورات مكتبة منيمنة،بيروت ، ١٩٤٩،ص ٨

٣- عمرفروخ ، تاريخ الأدب العربي ، الأعصر العباسية ، ج٢، ط٥، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٥،ص ٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قوية لقومه الفرس ويريد أن يحيي أمته بنشر آدابها وسياستها وتاريخها ، ويرى عيوب النظم الإجتماعية في عصره، فينادي بإصلاحها بتطبيق الصالح من النظم الفارسية، وكان ماهراً لبقاً في محاولته للإصلاح، ولإحياء تراث قومه. فأخذ بالتقيّة واصطنع الحذر وأظهر من الميل للعباسيين والعرب ما يستربه نزعته ورغائبه)[١].

وقال أيضاً(ابن المقفع أعجمي الفكرة أعجمي النزعة، يكتب في العربية، وهو يتجاهل ما فيها من آثار ويعتمد العقل دون الدين في ما يكتب، فيجمع من التاريخ وأقوال الحكمة ما هو بعيد عن الدين من غير أن يناقض الدين)[٢].

*ويقول محمد سليم الجندي (لم يكن ابن المقفع صاحب طريقة جديدة في الإنشاء، فقد احتذى طريق عبد الحميد الكاتب فيما يكتب ، وأضاف إليه ما ترجمه أو وضعه على ألسن الحيوان ، وهذا لا يعد طريقة مستقلة)[٣].

*ويقول محمد مهدي البصير (هناك سبب وجيه آخر يحدوني للكتابة عنه وهو رغبتي في أن يعرف الناس حقيقته ويتبينوا حظه من التفكير السليم والإنشاء الفصيح ، فقد مضى نحو من اثني عشر قرناً والناس يعدونه حجة في البيان وإماماً في صناعة الإنشاء، ومثلاً في سعة المعارف وسمو الإدارك، ولا ينبغي أن تستمر هذه الهرطقة أو الضلالة الأدبية إلى الأبد).

*ويقول أيضاً(إن ردئ الرجل أكثر من جيده، وغثه أكثر من سمينه، وأنه ينقل النفيس والخسيس من آثار لغته إلى اللغة العربية، دون نقد ولا تمييز، وأنه إلى التبشير برذائل الأخلاق كالجبن، والضراعة ، والرياء ، والأنانية، والشعوذة ، وما إلى ذلك من ذميم الصفات،

١- حنا الفاخوري ، ابن القفع، دار المعارف ، مصر، ص١٨/١٩

٢- حنا الفاخوري ، الموجز في الأدب العربي وتاريخه ، ج٢، ط١، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٥، ص٤٦

٣- محمد سليم الجندي ، عبد الله بن المقفع ، دراسة لأدبه وطرف من سيرته ، ونخبة من كلامه ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٣٥٥هـ ، ص٨٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملحق

كتب ارتبطت باسم ابن المقفع

ترجم ابن المقفع الكثير من الكتب من الفارسية إلى العربية ، وقد احتفظت مكتبتنا العربية ببعض هذه الكتب مثل كليلة ودمنة ، والأدب الصغير ، والأدب الكبير ، إلا أن بعض هذه الكتب قد فقدت فلم يبق منها ترجمتها العربية أو الفارسية ، ومنها ما قد فقدت ترجمته العربية فقط فأعيدت ترجمتها على أيدي مترجمين جاؤوا بعد ابن المقفع .

أما أبرز الكتب التي فقدت ترجمتها العربية والفارسية،ولم يبق لنا سوى اسمها أو بعض النصوص التي نقلت منهاعبر مصنفات القدماء فمنها : كتاب خداي نامة ، أو كتاب الملوك وقد سماه سير ملوك العجم ، ويعد هذا الكتاب نموذجاً لكتابة التاريخ عند العرب.

كذلك كتاب آيين نامة أو كتاب الرسوم . وقد اهتم هذا الكتاب بذكر تفاصيل عن نظم الدولة الساسانية والجماعة فيها، كما تناول أصول الحكم ومميزاته إضافة إلى معلومات عن أنواع الرياضة المختلفة التي كان يمارسها النبلاء كرمي السهام ولعب الكرة، كما يتضمن الطرق المختلفة لزجر الطير .

كذلك كتاب مزدك ، والتاج في سيرة أنو شروان ، وكتاب السكسكيين وهو كتاب معظم عند الفرس لما يحتوي عليه من روايات وأخبار أسلافهم وملوكهم وأبطالهم ، وكتاب بيكار ويشتمل على حروب اسفنديار والإيرانيين مع الطورانيين، وحروب اسفنديار في خراسان وسيستان وزايلستان وغيرها ، ويقال إن كتاب البنكش الذي ذكره المسعودي في حروب اسفنديار هو نفسه كتاب بيكار (١).

ومن الرسائل التي فقد أصلها العربي وأعيدت ترجمتها من الفارسية إلى العربية رسالة تنسر، ورسالة الأدب الوجيز للولد الصغير.

١- آرثر كريستنسن ، إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، مراجعة عبد الوهاب عزام ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ، ص٤٩ .

النديم أبو الفرج محمد بن ابي يعقوب اسحاق المعروف بالوراق ، كتاب الفهرست ، تحقيق رضا تجد ، ١٩٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإلى السخف، والسذاجة، في فهم حقائق الحياة والاجتماع، وإلى الاضطراب والتناقض في سرد مقاصده وأغراضه، وإلى الغموض والركاكة والعجمة في لغته وأسلوبه، أقرب منه إلى أي شيء آخر)[1].

١- محمد مهدي البصير، في الأدب العباسي، ط٣، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٧٠، ص ٣٨/٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملحق

كتب ارتبطت باسم ابن المقفع

ترجم ابن المقفع الكثير من الكتب من الفارسية إلى العربية ، وقد احتفظت مكتبتنا العربية ببعض هذه الكتب مثل كليلة ودمنة ، والأدب الصغير ، والأدب الكبير ، إلا أن بعض هذه الكتب قد فقدت فلم يبق منها ترجمتها العربية أو الفارسية ، ومنها ما قد فقدت ترجمته العربية فقط فأعيدت ترجمتها على أيدي مترجمين جاؤوا بعد ابن المقفع .

أما أبرز الكتب التي فقدت ترجمتها العربية والفارسية،ولم يبق لنا سوى اسمها أو بعض النصوص التي نقلت منهاعبر مصنفات القدماء فمنها : كتاب خداي نامة ، أو كتاب الملوك وقد سماه سير ملوك العجم ، ويعد هذا الكتاب نموذجاً لكتابة التاريخ عند العرب.

كذلك كتاب آيين نامة أو كتاب الرسوم . وقد اهتم هذا الكتاب بذكر تفاصيل عن نظم الدولة الساسانية والجماعة فيها، كما تناول أصول الحكم ومميزاته إضافة إلى معلومات عن أنواع الرياضة المختلفة التي كان يمارسها النبلاء كرمي السهام ولعب الكرة، كما يتضمن الطرق المختلفة لزجر الطير .

كذلك كتاب مزدك ، والتاج في سيرة أنو شروان ، وكتاب السكسكيين وهو كتاب معظم عند الفرس لما يحتوي عليه من روايات وأخبار أسلافهم وملوكهم وأبطالهم ، وكتاب بيكار ويشتمل على حروب اسفنديار والإيرانيين مع الطورانيين، وحروب اسفنديار في خراسان وسيستان وزايلستان وغيرها ، ويقال إن كتاب البنكش الذي ذكره المسعودي في حروب اسفنديار هو نفسه كتاب بيكار (١).

ومن الرسائل التي فقد أصلها العربي وأعيدت ترجمتها من الفارسية إلى العربية رسالة تنسر، ورسالة الأدب الوجيز للولد الصغير.

١- آرثر كريستنسن ، إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، مراجعة عبد الوهاب عزام ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ، ص٤٩ .

النديم أبو الفرج محمد بن ابي يعقوب اسحاق المعروف بالوراق ، كتاب الفهرست ، تحقيق رضا تجد ، ١٩٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفيما يلي عرض لأهم الموضوعات التي جاءت في هذه الرسائل.

الأدب الوجيز للولد الصغير :

إن توجيه الكتاب للولد الصغير، واعتبار كلمة صغير تدل على العمر والسن مردود عليه من داخل نص هذا الكتاب ،حيث أن ابن المقفع يذكر في أول حديثه أن ابنه صار مهيأً ومستعداً لقبول هذه النصائح فهذا يعني أن عامل السن غير وارد في حساب ابن المقفع. فالمهم أن يكون المنصوح قادراً ومستعداً ومهيأً لتقبل هذه النصيحة ووعيها وعياً تاماً فقد قال ابن المقفع: (أي بني : لما بشّرني المولى تعالى بوجودك ، ومنّ علي بعطائك، وقد أبلغك إلى هذه السن والدرجة والحد والمرتبة، بأن صرت مستعداً لقبول الأدب، وقابلاً لعدة الفضل)[1].

وربما كانت كلمة صغير أتبعت بالعنوان هي وكلمة ولد في عصر متأخر عن ابن المقفع، حين صارت العناوين المسجوعة سنّة متبعة بين الكتّاب، فبما أن الكتاب موجّه إلى(بني) فمعنى ذلك أنه ولد ولضرورة السجع لا بد من وصفه بالصغير، ولا يمكن وصفه بالأمير أو الخبير أوالضرير ،أو....

بل إن قول ابن المقفع (أبلغك إلى هذه السن) تدل على أن صاحب هذه النصائح قدبلغ سناً را شدة ....ومن الممكن نسبة العنوان لابن المقفع بالنظر إلى أن هذه الوصايا موجهة لابنه والابن مهما تقدمت به السن يبقى صغيراً في عيون والديه .

ويلاحظ في هذا الكتاب غياب روح ابن المقفع عن بعض المواطن فمثلاً الاستشهاد بالأبيات الشعرية المنسوبة للمتنبي ولأبي العتاهيه . كما أسلفت – لا يمكن أن تكون من ابن المقفع، فابن المقفع توفي في العصر العباسي الاول سنة ١٤٢هـ وكان ظهور هؤلاء بعد وفاة ابن المقفع، فكيف يستشهد بأشعارهم. كما أن شرح الشواهد من أمثال وأقوال ليس لابن المقفع بدليل تلك الألفاظ البعيدة عن عصر ابن المقفع كالحضرة الصمدية ، والتوفيق الإلهي، والتوفيق الرباني ، وجاذبية الفضل الإلهي ، وصاحب الشريعة وكأن هناك من دخل

١- عبد الله بن المقفع، الأدب الوجيز للولد الصغير ، تعريب محمد غفراني الخراساني ، ط١ ، ملتزم الطبع والنشر عالم الكتب القاهرة، ص ٣٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على نص ابن المقفع فأخذ يشرح ويبين ويوضح ويدعم بعض الآراء بالشواهد والأدلة فمثلاً حين استشهد ابن المقفع بقول أمير المؤمنين (ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لماعند الله، وأحسن منه تكبر الفقراء على الأغنياء توكلاً على الله) وهنا كعادة ابن المقفع لم يحدّد لنا عن أي أمير مؤمنين يتحدث المهم جاء الشارح بعد هذا القول وقال : (وتفسيره أنه عليه السلام قال متعجباً : ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء والمساكين، يطلبون بذلك ثواب الله تعالى ورضاه، وأحسن من ذلك سيرة تكبر الفقراء على الأغنياء بأن يتوكلوا كل التوكل على الخالق عزوجل، ولا يرفعوا رجاءهم لغير الحضرة الصمدية، ولا تبالون بغيره في النفع والضرر)[١].

كما نلاحظ مبالغة في الاقتباس من القرآن الكريم لفظاً ، فلو كان الاقتباس بالمعنى لقلنا ربما أكثر ابن المقفع من اقتباساته من القرآن الكريم في هذا الكتاب بخلاف رسائله الأخرى التي يقتصر فيها على الضروري جداً من الاقتباس ، هذا إن وجد أصلاً .. ولكن بما أن الاقتباس كان بإيراد الآيات القرآنية كاملة لدعم بعض الآراء فهذا يجعلنا نحملها محمل الأبيات الشعرية أيضاً.

كذلك هناك مبالغة في إيراد الأحاديث النبوية... ولكن بروايتها عن صاحب الشريعة[٢] ، وصاحب الشريعة كما نعلم مصطلح لم يظهر في عهد ابن المقفع.

بل إن نبيل عبد العزيزعيد في بحثه حول كليلة ودمنة يرى أن نصير الدين الطوسي عندما ترجم الأدب الوجيز من العربية إلى الفارسية فعل ما فعله أبو المعالي نصر الله حين ترجم كليلة ودمنة من الأصل العربي إلى الفارسي وهو (إكمال الأصل العربي لترجمة ابن المقفع بفيض من الحكم ، والأمثال، والاستشهاد بالأشعار الفارسية والعربية، والأحاديث النبوية والأقوال المأثورة)[٣].

١- عبد الله بن المقفع – الأدب الوجيز للولد الصغير ، ص ٧٧.

٢- المرجع السابق ، ص ٦٠، ٧٣، ٨٢

٣- نبيل عبد العزيز عيد- كليلة ودمنه بين العربية والفارسية ،(دراسة مقارنة) الجامعة المستنصرية ، كلية الاداب ، قسم اللغة العربية ، غير منشور ، ص ٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما يرى هذا الباحث ظهور بعض السمات الأسلوبية التي لم نعهدها في أسلوب ابن المقفع في هذه الرسالة كالإطناب والاستعارة في حين مال ابن المقفع كما أوضحت إلى الإيجاز في اللفظ، والمعنى، وعدم التكلف في الأسلوب. يقول الباحث : (إننا لم نر في آثار ابن المقفع سواء في كليلة ودمنة أو في الأدب الكبير والصغير، أثراً للاقتباس والتضمين وتزيين العبارة بأي نوع من الشعر والصناعة، وهذا يوضح أن نصير الدين الطوسي قد أباح لنفسه الخروج عن النص وعدم التقيدبه، وأضاف إليه الحكم والأمثال والأشعار، وآيات من القرآن الكريم ، والأحاديث الشريفة)[١].

ولكن رغم تدخل نصير الدين الطوسي في هذه الترجمة فإن الأفكار الواردة فيها هي أفكار ابن المقفع بدليل أن فيها نصوصاً بعينها نقلت من الأدب الكبير والأدب الصغير[٢] وقد أشرت إلى هذا سابقاً.

الرسالة اليتيمة :

هذه الرسالة منقولة عن كتاب اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور – وهذا الكتاب لم أستطع الوصول إليه– وهي موجودة في كتاب جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت، وقد قدّم ابن طيفور للرسالة فبين فضلها وبلاغتها حتى أنه يقول(إن الناس جميعاً مجمعون أنه لم يعبر أحد عن مثلها، ولا تقدمها من الكلام شيء قبلها)ولكن ابن طيفور ، يقر بأن هذه الرسالة غير كاملة، وذلك بحجة شهرتها بين الناس ، وأن الموجود بين أيدينا هو أول هذه الرسالة فقال (ولم نكتبها على تمامها لشهرتها، وكثرتها في أيدي الرواة لها)[٣].

فلو تم إكمال الرسالة وعرفنا بقيتها لتغير الحال كثيراً ، سيما إذا كان الجزء الثاني من الرسالة يتصل بالأديان .

يتيمة السلطان :

هذه الرسالة منشورة في الطبعة الثالثة من كتاب رسائل البلغاء ١٩٤٦م . وهي

١- نبيل عبد العزيز عيد ،كليلة ودمنة بين العربية والفارسية ص ١٧.

٢- محمد غفراني الخراساني ، ابن المقفع ، ص ١٥١

٣- أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، ج٣ ، ص٤٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مجموعة من الحكم غير المترابطة تنسب لابن المقفع، وتقارب الحكم في موضوعاتها موضوعات ابن المقفع في رسائله الأخرى،وإن كان الأسلوب الذي صيغت به بعض العبارات والحكم يجعلنا نشك في نسبة هذه الأقوال لابن المقفع.

وهذه الرسالة غير كاملة يدلنا على ذلك ختامها فابن المقفع في نهاية الرسالة يناقش قضية استقامة الملك بالمال والرجال ، ولكننا نشعر أن الكلام مقطوع سيما أن ابن المقفع وزّع كلامه بين المال والرجال وفي نهاية الحديث تحدّث عن الرجال فقط مما يوحي بأنه تحدث أيضاً عن المال ، ولكننا لانملك هذا الجزء الذي تحدث فيه عن المال .

كما أن هذا الانقطاع نشعره في وسط الرسالة فهناك جزء من الرسالة لاصلة له بما قبله، ولا بعده .فالرسالة تسير على نهج واحد من بدايتها إلى قوله ص ١٦٧ (إن الملوك لا عهد لهم ولا ذمام ولا صديق لهم ولا حميم ولا يحبون أحداً ، ولا يكرمونه إلا أن يكون لهم إليه حاجة، فيقرّبونه عند ذلك ، ويكرمونه)(١).

ثم يسقط كلام ولا نعرف كم من الكلام سقط، حيث أن مجرى الحديث يتغير تماماً فالحديث هنا على لسان رجل تعرض لخطر عظيم فأخذ لسانه يسيل بالحكمة. ويلاحظ هنا سذاجة التشبيهات التي أقحمت على النص كقوله (يا نفس لا يحملك أقاربك وأهلك على جمع ما تهلكين في جمعه، تريدين بذلك صلتهم ورضاهم، فإذا أنت كالدّخنة الطيبّة تحترق ويذهب بريحها إلى من ينتفع به، وكالشّمعة تفنى وتذهب ويستضيء بها قوم آخرون .... وكقوله (يانفس لا تكوني كالغرفة التي تستعمل في سخونة المرق عند جدّتها وصحتها ، فإذا انكسرت صارت وقوداً للنار)(٢).

ويشير محمد كرد علي إلى أن هذا الحديث موجود في كليلة ودمنةوهو كامل هناك وإن كان هناك، اختلاف يسير في بعض الألفاظ(٣).

عهد أردشير:

كتب هذا العهد في الجزء الأول من كتاب « تجارب الامم» لابن مسكويه ، ولا يذكر

١-يتيمة السلطان ، رسائل البلغاء ، ص ١٦٧.

٢- المرجع السابق ، ص ١٦٩

٣-المرجع السابق حاشية ، ص ١٦٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن مسكويه ولا غيره من المؤرخين مؤلفاً أو مترجماً لهذا الكتاب ، ويرى د. عبد اللطيف حمزة إمكانية نسبة هذا الكتاب إلى ابن المقفع، لأن موضوع الكتاب وأسلوبه يمثلان موضوعات ابن المقفع وأسلوبه ، فهو يتحدث فيه عن ملوك الفرس وكيفية توريث الملك وقد يكون هذا الكتاب لمؤلف أو مترجم تأثر بأسلوب ابن المقفع ومنهجه)[١].

ولكني أرى أن الرأي الأول للدكتور عبد اللطيف هو الرأي الأكثر صواباً... فأما موضوعات هذا الكتاب فقد أشرت إليها سابقاً ، واستشهدت بنصوص من الكتاب دلّت على معرفة ابن المقفع معرفة تامة بهذا العهد، كما دلّت أيضاً على الصلة الكبيرة والتوافق الكبير بين الكتاب وبين رسالة تنسر التي ثبتت نسبة ترجمتها لابن المقفع.

وأما الأسلوب فلنلاحظ معاًالملاحظات الأسلوبية التالية التي استقيتها من نص هذا العهد:

* انطبقت على عهد أردشير سمات الكتابة الفنية في العصر العباسي فقد بدأ العهد بالبسملة فقال (باسم ولي الرحمة)

ثم اتبعها ببيان المرسل والمرسل إليه فقال (من ملك الملوك أردشير بن بابك إلى من يخلفه بعقبه من ملوك فارس)

ثم جاء بالسلام فقال(السلام والعافية) وأتبعها بعبارة أما بعد والفاء فقال (أما بعد فإن صيغ الملوك على غير صيغ الرعية)[٢].

وختم الرسالة بالدعاء إلى المرسل إليه فقال(ونحن ندعو الله لكم بنماء المنزلة وبقاء الدولة، دعوة لا يفنيها فناء قائلها حتى المنقلب ، ونسأل الله الذي عجّل بنا وخلّفكم، أن يرعاكم رعاية يرعى لها ما تحت أيديكم [وأن يرفعكم رفعة يضع بها من عاداكم] ويكرمكم كرامةً يُهين بها من ناوأكم ، ونستودعكم الله وديعة يكفيكم بها الدهر الذي يسلّمكم إلى زياله وغيره [وعثراته] وعدواته) .

وختم الرسالة بالسلام أيضاً حين قال : (والسلام على أهل الموافقة مما يأتي عليه العهد من الأمم الكائنة بعدي)[٣].

١- عبد اللطيف حمزة ابن المقفع ص ١٦٣-١٦٥

٢- أبو علي مسكويه الرازي ، تجارب الامم ، تحقيق أبو القاسم إمامي ، ج١، دار سروش للطباعة والنشر ،طهران ، ١٩٨٧،ص٥٦

٣- المرجع السابق ، ص٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

«انطبقت على العهد أيضاً سمات ابن المقفع الأسلوبيه مثل الرواية عن الأولين أو الحكماء دون نسبة الأقوال لأصحابها ومن ذلك (وقدقال الأولون منا: رشاد الوالي خير للرعية من خصب الزمان)[١].

(وقال الأولون منا : عند حسن الظن بالأيام تحدث الغِيَر)[٢].

وقال أيضاً(وكان يقال: اتق مقارنة الحريص الغادر فإن رآك في القرب رأى منك أخبث حالاتك ، وإن رآك في الفضول لم يَدَعك وفضولك)[٣].

كذلك استخدام المحسنات البديعية دون تكلف قال(وقد كان من الملوك من يذكّره عزّه الذلّ ، وأمنه الخوف، وسروره الكآبة ، وبطره السوقة ، وقدرته المعجزة)[٤].

فيلاحظ هنا استخدام الطباق بشكل واضح بين (عزه والذل. وأمن وخوف . وسرور وكآبة) كما ظهر الترادف في الألفاظ والمعاني كقوله (فإنا قد رأينا الملك الرشيد السعيد المنصور المكفيّ المظفّر الحازم في الفرصة ، البصير بالعورة، اللطيف - [للشبهةّ] المبسوط له في العلم والعمر ، يجتهد فلا يعد وصلاح ملكه حياته ، إلا أن يتشبه به متشبه)[٥].

وقال أيضاً (وأن منكم من سيركب الملك صعباً فيمنى من شماسه وجماحه وخبطه واعتراضه، بمثل الذي مُنيت به ، ومنكم من سيرث الملك عن الكُفاة المذللين له مركَبه ، وسيجري على لسانه، ويُلقى في قلبه أن قد فُرِغَ له وكُفِيَ واكتفى ، وفَزَع للسعي في العبث والملاهي ، وأنّ من قبله من الملوك إلى التوطيد له أجروا ، وفي التمكين له سَعَوا ، وأن قد خُصَّ بما حرموا ، وأعطيَ ما مُنعوا، فَيُكثر أن يقول مسرّاً ومعلناً : خصّوا بالعمل، وخصصت بالدّعة . وقُدموا قبلي إلى الغَرر، وخُلّفتُ في الثقة)[٦].

ويلاحظ في هذه العبارة تكرار المعاني وذلك بالإيتان بتراكيب متشابهة ، كما يلاحظ أيضاً ظهور السجع والطباق.

١- عهد أردشير تجارب الأمم ، ص٥٨

٢- المرجع السابق ، ص٥٦

٣-المرجع السابق ، ص ٦٥

٤- المرجع السابق، ص٥٦

٥- المرجع السابق ، ص ٥٧

٦- المرجع السابق، ص ٥٦.٥٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما ظهرت سمة التكرار حيث يجري بحث بعض القضايا في أكثر من موضع من العهد، ويلاحظ هذا التكرار عندما تحدث عن أهمية شغل وقت الرعية، والحرص على عدم ترك وقت فراغ لديهم فقال: (واعلموا أن بدء ذهاب الدول من قبل إهمال الرعيّة بغير أشغال معروفة ولا أعمال معلومة ، فإذا فشى الفراغ في الناس، تولّد منه النظر في الأمور والفكر في الأصول)(١).

وقال في نفس المعنى (واعلموا أن الملك ورعيته جميعاً يحق عليهم ألا يكون للفراغ عندهم، موضع فإن التضييع في فراغ الملك ، وفساد المملكة في فراغ الرعية)(٢).

وأكثر ابن المقفع من ذكر الأمثلة لدعم الآراء الواردة في العهد فمثلاً يقول :(وقد مضى قبلنا ملوك كان الملك منهم يتعهد الجملة بالتفسير، والجماعات بالتفصيل، والفراغ بالأشغال، كتعهده جَسَدَه بقصّ فصول الشعر، والظُّفر، وغسل الدرن، والغَمرومداواة ما ظهر من الأدواء وما بطن)(٣).

كما يلاحظ أيضاً التقسيمات المنطقية والتفريعات كقوله (اعلموا أن الدهر حاملكم على طبقات منهن : حال السخاء حتى تدنو من السَّرَف ، ومنهن : حال التقتير حتى تَقرُب من البخل ، ومنهن حال الأناة حتى تصير إلى البلادة ، ومنهن : حال المناهزة للفرصة حتى تدنو من الخفة ، ومنهن حال الطلاقة في اللسان حتى تدنو من الهذر ، ومنهن حا ل الأخذ بحكم الصمت حتى تدنو من العيّ)(٤).

كما كثر الاقتباس من الحديث النبوي فقال(ولو لا اليقين بالبوار النازل على رأس الألف من السنين لظننت أنّي قد خلفت فيكم ما إن تمسكتم به كان علامة في بقائكم ما بقي الدهر)(٥).

فهذا مقتبس من الحديث النبوي (وإني قدتركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله)(٦).

١-عهد أردشير ، تجارب الأمم ص ٦١

٢- المرجع السابق ، ص ٦٨.

٣- المرجع السابق ، ص٥٨.

٤- المرجع السابق، ص ٦٧

٥-المرجع السابق، ص ٦٩

٦-أبو داود سليمان بن لأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود ، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس ج٢، ط١، ١٩٧٠ ، ص ٤٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلاحظ أيضاً سهولة الألفاظ ووضوح المعاني وبساطه التراكيب .

كما شاع أسلوب الأمر والنهي في العهد ومن ذلك الإكثار من عبارة اعلموا بحيث تكاد كل فقرة من فقرات العهد تبدأ بهذه العبارة .... ومن ذلك أيضاً قوله (اتقوا باباً واحداً طالما أمنته فضرَّني ،وحَذرتُه فنفعني : احذروا افشاء السرّ عند الصغار من أهليكم وخدمكم، فإنه لا يصغر أحد منهم عن حمل ذلك السر كاملاً ، لا يقول منه شيئاً حتى يضعه حيث تكرهون ، إما سقطاً وإما غشّاً، والسَقَطُ أكثر ذلك . إجعلوا حديثكم لأهل المراتب، وحباءَكم لأهل الجهاد، وبِشْركم لأهل الدين، وسرَّكم عند من يلزمُه خيرُ ذلك، وشرَّه وزينه وشينُه)[١]، كذلك شاع استخدام الروابط الكلامية كحروف الجر وحروف الصلات ومن ذلك قوله (واعلموا أنَّ فيكم من يستريح إلى اللهو والدعة ، ثم يديم من ذلك ما يورُثه خُلقاً وعادة . فيكون ذلك لقاح جِدّ لا لهو فيه، وتعبٍ لاخفض فيه، مع الهجنة في الرأي، والفضيحة في الذكر)[٢].

كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع للقاسم بن ابراهيم :

تنسب لابن المقفع رسالة في معارضة القرآن لم نعرفها إلامن الرد عليها الذي كتبه الإمام القاسم بن إبراهيم ، وقد اختلف الدارسون حول حقيقة نسبة هذا الكتاب للقاسم بن إبراهيم ، وحقيقة نسبة الكتاب الأصلي لابن المقفع فشك أحمد أمين مثلاً في نسبة أصل هذا الكتاب لابن المقفع ، وفي نسبة الرد للقاسم بن إبراهيم وقدّم أدلته التي تدعم رأيه هذا وخلاصتها أن ابن النديم لم يذكر كتاب القاسم هذا ،عندما ذكر كتبه ، وأن السجع الموجود في كتاب القاسم يدل على بطلان نسبته له، لأن السجع من طريقة القرن الثالث الهجري .

وبالنسبة لنسبة الأصل لابن المقفع قال إن أسلوب كتاب ابن المقفع غير الأسلوب المعروف عن ابن المقفع ، حيث عمد ابن المقفع في كتابه هذا إلى تعمدّ السجع[٣].

في حين يرى د. عبد اللطيف حمزة صحة نسبة أصل هذا الكتاب لابن المقفع، لأن أسلوب الكتاب هو ذاته أسلوب ابن المقفع المنطقي المقسم إلى فقرات ، والذي يجيء فيه السجع عفو الخاطر[٤] بل إن هذا الكتاب يعبرّ عن حالة الحيرة والتشتت التي عاشها ابن

١-عهد أردشير - تجارب الأمم ، ص ٦٥.

٢- المرجع السابق ، ص ٦٢.

٣- أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج١، ط٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٧، ص ٢٢٤- ٢٢٦.

٤- عبد اللطيف حمزة ، ابن المقفع ، ص ٨١-٨٤/٨٦-٨٧/٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقفع ليدين بدين من الأديان فصحيح أنه أعلن إسلامه ولكنه ، كان دائم الحنين إلى دينه القديم رابطاً هذا الدين بالحضارة الفارسية . معتبراً الدين أساس هذه الحضارة ، وبما أنه في حجر من حجور الإسلام، فلابد لرجل مفكر أن يبدأ بالتفكير بأصول هذا الدين الجديد، وقواعده فيأخذ بتحليل آيات القرآن الكريم، ويحاول تفسير ما ورد فيه من قصص ...وينتهي الأمر بابن المقفع أخيراً إلى المانوية التي يجد فيها الخلاص الوحيد لحيرته واضطربه بين كل هذه الأديان التي عرفها. ولا شك أن مصدر حيرة ابن المقفع بين الملل والآراء التي شهدها عقله يعود إلى تعلقه بالمثل الأعلى، فهو يريد أن يعرف أي هذه الأديان هو الحق وأيها الأقرب إلى الصواب؟

وينفي عباس إقبال – الذي ترجم لنا آراءه عن الفارسية محمد غفراني الخراساني – ينفي أن يكون أصل الكتاب لابن المقفع، وذلك لأن ابن المقفع (لم يكن قط من أصحاب الجدل والشغب، ولم يكن يجنح إلى المناظرات الدينية – بل إن الأقوال المأثورة عن ابن المقفع وباب (برزويه الطبيب) الذي لاشك أنه من أثر يراعته الجذابة التي تثبت أنه كان يتهرب من المجادلات المذهبية إلى حد بعيد، وكان يعتقد أساساً أن كلام أصحاب المذاهب مبني على الأهواء... . ومن الممكن أن يكون القاسم بن إبراهيم الذي قطن اليمن نسب الرسالة، هذه مجهولة المؤلف إلى ابن المقفع لشهرته بالزندقة مع استحالة – كما يرى عباس إقبال – أن يقوم ابن المقفع بتأليف هذه الرسالة وهو يعيش في كنف الدولة العباسية، ويعمل على خدمتها . إضافة إلى أن أحداً من المصنفين لم ينسب هذه الرسالة لابن المقفع[١] .أما د. محمد بديع شريف فيؤيد ما ذهب إليه د. عبد اللطيف حمزة ويؤكد أن أسلوب ابن المقفع في الكتاب ، هو أسلوبه في أدبيه الكبير والصغير. أما القاسم فإن أسلوبه يمتاز بالسجع المتكلف، وكون النصف الأول من القرن الثالث لم يرد فيه سجعاً متكلفاً لا يعني الشك في نسبة الرد ، وذلك لأن القاسم في كتابه الرد على النصارى يتكلف السجع تكلفاً ظاهراً لا يختلف عماً فعله في كتابه في الرد على ابن المقفع ،فالسجع لايختص به عصر دون آخر[٢].

١– محمد غفراني الخراساني ، عبد الله بن المقفع، ص٨٩–٩٠

٢– محمد بديع شريف، الصراع بين الموالي والعرب، دار الكتاب العربي مصر ١٩٥٤، ص ٦٨–٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينفي محمد غفراني الخراساني نسبة أصل الكتاب لابن المقفع لأن أسلوب الكتاب يبتعد عن أسلوب ابن المقفع، ففيه سجع متكلف، وخلو من الحكمة، كما أن الأخطاء التي ينسبها القاسم لابن المقفع لا تلاحظ إلا حيث تقتضي بلاغة الأسلوب، وما ورد في الكتاب يتناقض مع فكر ابن المقفع وروحه التي تبدو واضحة في تحميداته.

أما الرد على ابن المقفع فينطوي على حقد القاسم الكبير على ابن المقفع، ربما لما عرف عنه من الزندقة التي لا تثبتها مؤلفات ابن المقفع)[١].

وهذه بعض الملاحظات التي لاحظتها على هذا الكتاب أسوقها هنا علّها تنير جانباً لم يصل الضوء إليه بعد:

يبدأ القاسم كتابه هذا بعرض المبدأ الأساسي لمذهب ماني، وهو مبدأ النور والظلمة والخير والشر وامتزاجهما، ويبين عيوب هذا المذهب ومضاره، ثم يتحدث عن خلف ماني في ضلالته وهو من (يسمى ابن المقفع)، وأما مبدأ ابن المقفع فهو(أنه لا يرى من الأشياء كلها إلا مزاجاً مختلطاً كذلك -زعم- النور والظلمة اللذان هما عنده الجهل والحكمة)[٢].

ويبدأ الامام القاسم بالرد على ما قاله ابن المقفع في كتاب، لم يذكر لنا اسمه فكل ما قاله (كان أول ما فتح به كتابه) دون أن يذكر لنا شيئاً عن اسم الكتاب، أو أي معلومات عنه.

ويحاول ابن طباطبا عرض آراء ابن المقفع في الكتاب المجهول، ويرد على كل رأي منها، ولكنها كما نرى آراء متفرقة لانصاً كاملاً متتابعاً، وهذا يجعلنا في حيرة، هل نقلت هذه العبارات بشكلها الصحيح؟ ولِمَ نزعت من سياقها خاصة ونحن نعلم أن معاني العبارات مفردة قد تختلف عنها إذا ما وردت في سياق معين؟ كما أننا لا نعلم هل أورد

١- محمد غفراني الخراساني، عبد الله بن المقفع، ص ٩١-٩٥

٢- القاسم بن إبراهيم، كتاب الرد على الزنديق اللعين بن المقفع، تعليق ميكائيل أنجلو جويدي، مطبعة أكاديمية لنجاي الملكية في رومية سنة ١٩٢٧، ص ٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإمام القاسم في رده هذا جميع آراء ابن المقفع الواردة في كتابه الأصلي أم لا؟ فربما اختار هذه الآراء وترك غيرها مما لا يتفق مع الرد الذي يريد وضعه.

ولا نعلم أيضاً متى كتب ابن المقفع كتابه المزعوم أكان ذلك بعد إسلامه أم قبله؟

ويؤكد القاسم على غايته وهدفه من وضع كتابه هذا، وهو مارآه من إقبال عامة الناس على اعتناق مذهب ابن المقفع، ولهذا قامت الحاجة للرد على أكاذيب ابن المقفع، ولا نعلم لِمَ وضع القاسم غايته من كتابه هذا في منتصف رده على ما جاء في كتاب ابن المقفع قال: (حتى بلغني والله المستعان من تهافت الضعفاء في هذا المذهب العمى، لما رأوا من جهل علماء هذه العامة بما فيه لأهله من الدعاوي ما دعاني إلى وضع أقواله، والكشف عما كشف الله عنه من ضلالة. وإن كان عندنا قديماً لحمقه وضعفه لمّا لا أحسب بأحد حاجة إلى كشفه حتى بلغني عن الحمقى منه انتشاره، وتتابعت بانتشاره عليّ أخبار، ورفعت إلينا فيه مسائل عن ابن المقفع لم آمن أن يكون بمثلها اختدع في مذهبه كل مختدع، فرأيت من الحق علينا جوابه وقطع ما وصل به من باطلة أسبابها)[1].

كما يلاحظ تسخيف الإمام القاسم لما جاء في كتاب ابن المقفع، فكلام ابن المقفع كلام تافه عديم القيمة والفائدة، فالجهلة والحمقى من الناس هم من يتبعون آراء ابن المقفع. يقول (فافهموا عنّا جواب مسائله، فإن فيه إن شاء الله قطع حبائله التي لا تصيد صوائدها، ولا تكيد لها كوائدها إلا حمقان الرجال وموقان الأنذال... وقال: (فأما ماذكر بعد هذا من القيل فحشو مسربل بهذيان الفضول ليس فيه مرجوع نفع، ولا يحتاج له إلى دفع)[2].

يقرّ القاسم ويعترف أنه لم يورد كتاب ابن المقفع كاملاً واضعاً حجته في ذلك أن بعض آراء ابن المقفع من الضعف والسخف اللذين لا يستحقا أن يقف عليها، أو يردها كما يبين لنا أن ابن المقفع نفسه أخبر أنه سيتحدث عن أمور مذمومة، وأخرى محمودة، ولكنه ذكر بعضها وأهمل البعض الآخر، وهذا عيب يأخذه القاسم على ابن المقفع... فحري بنا نحن أيضاً أن نأخذ هذا العيب ذاته على القاسم الذي لم يورد آراء ابن المقفع

١- القاسم بن ابراهيم، الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع، ص ١٥-١٦

٢- المرجع السابق، ص ١٦-١٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كلها قال القاسم : (وأما ما بعد هذا من حشو كتابه فإنا قصرنا لضعفه فيه عن جوابه ثم قال وتلعّب في بعض كلامه، وجوّز ما حكم به لنفسه من أحكامه فقد يبصر المبصرون ، زعم أن من الأمور محموداً وأن منها مذموماً فقال منها ولم يقل كلها ، وسقط عنه نقصها وفضلها)[١].

ويتهم الإمام القاسم ابن المقفع بعيّ اللسان معتمداً على أعجمية ابن المقفع ، فابن المقفع لا يفهم مدلولات الكلام وإيحاءاته. بل يفهم فقط المعنى الظاهر للكلمة لذلك يأتي طعنه بالقرآن الكريم ضعيفاً(وما ابن المقفع بمأمون أن يظن أن الحرس شرطيون لما يلونا من جهله باللسان وقلة علمه بمخارج القرآن)[٢] والإمام القاسم يشير هنا إلى الآية الكريمة (وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً)[٣].

بل إن القاسم يؤكد في أكثر من موضع على جهل ابن المقفع، وتأويله القرآن على ظاهر المعنى فيقول (فإن ابن المقفع إنما استعار أحرفه . فأما معناها فجهله وحرّفه. سمع منا في ذكر الله لفظاً فوعاه كما سمع حفظاً ثم ثبته إلى نوره وضلالته كذباً فأنشأ يمدح به غير الممدوح تلعباً والمعاني منه فأعجمية والأسماء التي تسمى فعربية)[٤]

ليس هذا فحسب بل إن القاسم اتهم ابن المقفع بأنه قد غيّب عقله ووعيه، واتبع الشيطان. فقال:(ولكني أحسب أن ابن المقفع هذى، وألقى الشيطان على لسانه ماتمنى، فجعل ظنه عليه يقيناً أو كابر من وجد قوله بيناً، كيف ياويله قاتله الله وقتله يكون كما افتراه)[٥]

أما أهم المآخذ التي أخذها القاسم على كتاب ابن المقفع وحاول الرد عليها فهي :

أ- افتتاح كلامه بقوله بسم النور الرحمن الرحيم وذكره النور معظماً في أكثر من موضع كقوله: (تعالى النور الملك العظيم الذي بعظمته وحكمته ونوره عرفه أولياؤه والذي اضطرت عظمته أعداءه الجاهلين. له والعامين عنه إلى تعظيمه...)[٦].

ب- طعن ابن المقفع بالله جل وعلا حين قال (انقلب عليه خلقه الذين -زعم- هم

١-القاسم بن إبراهيم ، الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع،ص ١٣

٢- المرجع السابق ، ص١٩.

٣- الآية ٨ سورة الجن

٤-المرجع السابق ، ص ٣١.

٥- المرجع السابق . ص ٢٨.

٦- المرجع السابق ، ص ٩، ١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من عمل يديه ودعا كلمته ونفخة روحه فعادوة وسبّوه واسفوه وأنشأ تعالى يقاتل بعضهم في الأرض، ويحترس من بعضهم في السماء، بمقاذفة النجوم و يبعث لمقاتلتهم ملائكته وجنوده)[١].

وأرى أن هذا الطعن جاء من الفهم الظاهري لألفاظ القرآن الكريم ، وهذا ما يأخذ القاسم على ابن المقفع ويدرج عدداً من الأمثلة على ذلك كقول ابن المقفع: (وكل خلقه دمر تدميراً)[٢] وهنا إشارة إلى عقاب الله لبعض الأقوام على عصيانهم ويظهر أن الآية فهمت بظاهر ألفاظها .

جـ- عدم إيمان ابن المقفع بقضية الغيب حين قال: (واخرج -زعم- سلطان الجاهل الذي يسرّ عليك الجهالة ، ويأمرك ألا تبحث ولا تطلب ، ويأمرك بالإيمان بما لاتعرف والتصديق بما لا تعقل ، فإنك - زعم - لو أتيت السوق بدراهمك تشتري بعض السلع فأتاك الرجل من أصحاب السلع فدعاك إلى ماعنده ، وحلف لك أنه ليس في السوق شيء أفضل مما دعاك إليه لكرهت أن تصدقه وخفت الغبن والخديعة، ورأيت ذلك ضعفاً وعجزاً منك حتى تختار-زعم- على بصرك وتستعين بمن رجوت عنده معونة ونصراً)[٣].

وقول ابن المقفع هذا أيضاً يدل على فهمه ظاهر الدين فهو كمن عرض عليه دين جديد، وجمعت له بعض أسس هذا الدين دون بيان وشرح وتوضيح فرفضها رفضاً قاطعاً . وهو في هذا الرفض يرفض الظاهر الذي عرض عليه . بل إن الأمور التي أخذها ابن المقفع على الإسلام، وهذه الأمور التي ذكرها لنا الإمام القاسم تدل على عدم إيمان ابن المقفع من ناحية ، وتدل على طعنه بالإسلام من وجهة نظر دينه الذي يؤمن به، دون التعرض للإسلام بالدراسة العميقة لفهمه الفهم الذي يستحق .

د- الطعن في الإسلام : يأخذ الإمام القاسم على ابن المقفع قوله: (لا نعلم ديناً منذ كانت الدنيا -زعم- إلى هذا الزمان الذي حان فيه انقضاؤها، أخبث زبدة كلمامخض، وأسفه في ذلك التمخيض أهلاً وأبتر أصلاً ، وأمر ثمراً ، وأسوأ أثراً على أمته ، والأمم التي ظهر عليها وأوحش سيرة، وأغفل عقلاً، وأعبد للدنيا، وأتبع للشهوات ، من دينكم)[٤].

١- القاسم بن إبراهيم ، الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع، ص ١٧.

٢- المرجع السابق ، ص ٢٤.

٣- المرجع السابق ، ص ٢٦-٢٧.

٤- المرجع السابق ، ص ٢٨-٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلاحظ قصور ردود الإمام القاسم على آراء ابن المقفع، فبدلاً من بيان براءة ديننا الحنيف من هذه التهم ، والكشف عن ضرورة الإيمان بمبادئ الإسلام كما سنها الله عز وجل، لا أن نحكم عليه من خلال الأفراد الذين لا يطبقونه على وجهه الصحيح. في الغالب شن الإمام القاسم حرباً على معاوية بن سفيان وملوك بني مروان ،واعتبرهم أعداء الدين الذين غيروا أحكام الله وجاورا على الناس وظلموهم بما فرضوه من أحكام متناقضة.

هـ- الطعن بأصل الرسول عليه السلام والقول إنه من أهل تهامة ،وهنا يرد القاسم عليه بأن ليس مهماً أصل الرسول إن كان تهامياً ، أو شامياً ، أومغربياً ، فالمهم أنه (بشر آدمي بعثه الله إلى كل فصيح وأعجمي)[١].

و- طعن ابن المقفع بفواتح سور القرآن الكريم من الحروف ، ويبين القاسم هنا أن هذه الحروف من الأسرار التي أخفاها الله عزوجل ولم يعط سرّها إلا للأصفياء ، وجهل ابن المقفع بها ينبغي ألا يدفعه للطعن بها وإنكار فضلها .

*كما ذكرت قبل قليل أرى قصور ردود الإمام القاسم على ما طرحه من آراء ابن المقفع، فكيف لو أتى بجميع ماورد في كتاب ابن المقفع المزعوم ؟ وأرى أن تكلف استخدام المحسنات البديعية ،والإتيان بالمترادفات وبعض الأمثلة التي لجأ إليها القاسم لتوضيح ما يقول أبعدته عن غرضه وغايته، وصارت به إلى الغموض، وأخرجته من المعنى الذي يريد كقوله مثلا : (ولا يؤمن عليه الفناء بعدزواله عما كان معهوداً من حاله ، ومع ما صار إليه من انتقاله، عن دار أودّائه، إلى دار أعدائه، فياويل ابن المقفع أي مشسع عن الحق شسع ، وأي متطوّح من الضلالة تطوّح، وإلى أي طخية من العماية تروّح ، فافهموا أيها السامعون عجيب أنبائه، وتدبروا من قوله معيب أهوائه)[٢] . ويلاحظ أيضاً تدخل القاسم في النص الذي يورده عن ابن المقفع مما يجعلنا غير قادرين على الحكم على سمات أسلوب ابن المقفع الحقيقية .

١- القاسم بن إبراهيم الرد على الزنديق اللعين بن المقفع ، ص ٢٩.

٢- المرجع السابق ، ص٩-١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رسالة تنسر:

رسالة تنسر رسالة تاريخية، وسياسية، وأخلاقية، وضعها تنسر كبير الهرابذة -(كبير دير المجوس ، أو رئيس من رؤساء الدين بين عام ٢٢٦ وعام ٢٤١ وهي المدة التي حكم فيها أردشير) (١). رداً على الأسئلة التي آثارها كشنسب شاه ملك طبرستان الذي تردد في الخضوع لأردشير كبقية ملوك الطوائف، وقد حاول في هذه الأسئلة انتقاد سياسة أردشير في حين أخذ تنسر يقنعه بالخضوع لأردشير، وذلك بتوجيه النصائح التي تثبت حاجة البلاد إلى القوانين والأحكام التي أقرها أردشير ، ولهذا فإن الرسالة تحمل طابعاً سياسياً يظهر سياسة الملك تجاه رعيته ،وتوضح قوانين العقوبات المتبعة للحد من فساد الرعية. وطابعاً أخلاقياً إجتماعياً يصف مجتمعاً فسد فيه الناس ، وقطّعوا أرحامهم ، وشاعت السرقة والكذب والأخلاق الذميمة بينهم .

ولرسالة تنسر قصة ، فقدترجمها ابن المقفع من الفهلوية إلى العربية ، ثم ترجمت من العربية إلى الفارسية على يد محمد بن اسفنديار مؤلف تاريخ طبرستان . كما ترجمت من الفارسية إلى الفرنسية على يد دارمستتر.

ولما كان الأصل الفهلوي والأصل العربي مفقودين فقد أعاد د. يحيى الخشاب ترجمتها من الفارسية إلى العربية محتفظاً بأبيات شعرية، وأحاديث نبوية، وآيات قرآنية ، وأقوال من الإنجيل وغيره...

ومن الواضح أن الكثير من الآيات والأشعار، وغيرها من الأمثلة والاستشهادات ليست من وضع ابن المقفع ، وإنما هي إضافات أضافها النساخ ، ولعل ابن اسفنديار أسهم بإضافة عدد كبير من الآيات والأشعار عندما ترجم الرسالة أول مرة عن العربية .

ويختلف الباحثون حول تاريخ كتابة هذه الرسالة فمنهم من ينسبها إلى أيام كسرى أنو

١- عبد اللطيف حمزة - ابن المقفع ، ص ١٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شروان ويقف على رأس هؤلاء كريستنسن ، ومنهم من يرى نسبتها إلى زمن أردشير وعلى رأسهم د. يحيى الخشاب ، ويورد كل من الطرفين أدلته التي تثبت صحة رأيه هذا (١).

ومن أهم الموضوعات التي طرحتها هذه الرسالة :

الحديث عن فساد الزمان ونظام الطبقات :

تبدأ الرسالة بالحديث عن فساد الزمان وأهله، بسبب نسيانهم أحكام دينهم الزرادشتي، وبالتالي فليس هناك ما يحكمهم وينظم حياتهم (وإذا ضلّ الناس في زمان الفساد، ولم يكن من سلطان يضبط الأمن طمعوا فيما ليس لهم ، وضاعت الآداب، وأهملت السنن ، وأغفل الرأي فيما ليس لهم ، وأقحم الخلق أنفسهم. في مسالك لا تعرف نهايتها ، وصرّحت الغلبة، وحمل بعضهم على بعض برغم تفاوت المراتب والأقدار ، حتى يقضى على الدنيا والدين جميعاً ويغدو الناس كالشياطين الوحوش)(٢).

ولعل فساد أهل الزمان جاء بسبب طبقية هذا المجتمع ،حيث كان المجتمع الساساني مقسماً إلى أربع طبقات هي طبقة أهل الدين وتضم الحكام ، والعباد، والزهاد، والسدنة، والمعلمين .

والطبقة الثانية هي طبقة المقاتلة، وهم قسمان: الفرسان ،والرجالة. وهؤلاء يتفاوتون في مراتبهم . وأعمالهم .

الطبقة الثالثة:طبقة الكتّاب .وتضم كتاب الرسائل ، والمحاسبات ،والأقضية والسجلات ، والعقود، وكتاب السير ، كما تضم هذه الطبقة الأطباء ، والشعراء ، والمنجمين.

الطبقة الرابعة: وهي طبقة المهنة ، وتضم الزراع ، والرعاة ، والتجار، وسائر أهل الحرف(٣) .فمن الممكن أن انقسام المجتمع الصارم وفق هذه الطبقات، ومنع الانتقال من طبقة إلى أخرى دفع عامة الناس إلى الفساد، ولهذا نجد الملك يأمر بالسماح لمن ينتمي لطبقة المهنة إذا ثبتت قوته وشجاعته ، وإذا كان أميناً على الدين ، وإذا اختبر وأثبت لباقته وفطنته، فليعرض أمره على الملك ليأمر برفع درجته .

١- لمزيد من المعلومات حول تاريخ كتابة الرسالة انظر : آرثر كريستنسن - إيران في عهد الساسانيين ، ص ٥٢/٥٣. يحيى الخشاب ، كتاب تنسر ، ص ٦-١١

٢- رسالة تنسر ، ص ٣٥.

٣-المرجع السابق ،ص ٣٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلاحظ أن هذا الامر الذي جاء به الملك يبطن وراءه اعتبار طبقة المهنة هي السبب في فساد المجتمع .

ولعل الرسالة تشير هنا إلى الثورة المزدكية التي تبناها العامة، الذين عانوا طويلاً من ظلم الطبقات الممتازة ،فكان أن اقتحم الثوار قصور الأشراف، ونهبوا أموالهم، واغتصبوا نساءهم(١).

وقد أشارت الرسالة إلى ذلك فقد ورد فيها (فإذا حجاب الحفاظ والأدب قد ارتفع وظهر قوم لا يتحلون بشرف الفن أو العمل ، لا ضياع لهم موروثه ، ولا حسب ولا نسب، ولا حرفه ولا صناعة، عاطلون مستعدون للغمز والشروبث الكذب والافتراء بل هم من ذلك يحيون في رغد من العيش وسعة المال)(٢).

بل إن الإشارة إلى ثورة العامة تظهر واضحة عندما أوردت الرسالة(وأصبح العامة كالشيطان أطلق من قيده فأهملوا أعمالهم ،وانتشروا في المدن يسرقون، ويحتالون ، ويثيرون الفتنه ، وأعمال السوء ، حتى بلغ الأمر إلى حد تجاسر العبيد على ساداتهم)(٣).

لا شك أن وضع الناس في طبقات ،وضمن درجات ومراتب ، ومنع انتقال أي فرد من طبقة إلى أخرى ، والتمييز بين هذه الطبقات في (المركب، والملبس، والمسكن ، والبستان، والنساء ،والخدم)، ثم التمييز بين أصحاب الدرجات أنفسهم (في المدخل ، والمشرب، والمجلس، والموقف، والملبس ، والحلية والأبنية على قدر درجة كل منهم)(٤). لا شك أن ذلك كله يثير الحسد، ويوغر الصدور، لأن الهدف من كل هذه التقسيمات هو الحفاظ على كل طبقة نقية لا يشوبها فرد من طبقة أخرى ، وبالطبع فإن هذا يعني حرمان العوام من أسباب الحياة ، بل إن هذا النظام الطبقي حرّم النسب بين الطبقات، حرصاً على نقاء كل الطبقات سيما النسب بين أهل الدرجات والعامة .... ألا يحق للعامة بعد كل هذا أن تثور !؟

١- آرثر كريستنسن ، ايران في عهد الساسانين ، ص ٣٤٣

٢- رسالة تنسر ، ص ٣٥

٣-المرجع السابق ، ص ٣٦

٤- المرجع السابق ، ص ٤٠ /٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أشرت في ثنايا بحثي هذا إلى بعض القضايا المتعلقة بالطبقات في رسالة تنسر ، في مواطن مشابهة لها وردت في الأدب الصغير والأدب الكبير، وفي رسالة الصحابة سياسة الملك في التعامل مع رعيته على أساس طبقاتهم ، وأهمية طبقة المقاتلة ، ومنع الملك الأمراء من التبذير.

ولاية العهد:

أثيرت في رسالة تنسر قضية تحديد ولي عهد يلي الملك وتسمية هذا الولي ولكن تنسر بيّن لنا أن الملك يعلم أخطار تعيين ولي عهد من بعده فالملك إن قام بتحديد من سيتولى الملك بعده سينتظر ولي العهد الجديد موت الملك بفارغ الصبر كما أنه قد يمتلئ غروراً. فيعصي الملك ويرتكب الحماقات وقد يؤدي به الأمر إلى الاعتداء على الناس مما يدفعهم للانتقام منه ويكون مصيره الهلاك . والأصل –وفق رأي تنسر – أن يتعذّب الملك قبل وصوله إلى ما يريد (وأن يكون قد ذاق خلاف ما يهوى وذاق مرارة الحرمان ، وأن يكون قد سمع القدح والتوبيخ من النساء والأطفال والخدم والسادة والأصدقاء والأعداء .[١]

وصحيح أن الملك أقرّ بخطورة تعيين ولي العهد ولكنه لم يمنع أحداً ممن سيجيء بعده من اختيار ولي لعهده وقد أرشد أردشير من يأتي بعده إلى الطريقة المثلى للاختيار وهي كتابه اسم ولي العهد على ثلاث وريقات تسلّم الأولى إلى رئيس الموابذة ، وتسلّم الثانية إلى كبير الكتّاب ، أما الثالثة فتسلّم إلى كبير الإصبهبذين، فإذا ما حان أجل الملك يجتمع ثلاثتهم ويفضون الأختام عن الكتب الثلاثة ليتفقوا على من سيحمل تاج العرش ، فإذا اتفقوا أذاعوا الأمر للناس ، وإن لم يتفقوا تركوا الأمر لكبير الموابذة الذي يقوم بدوره باستشارة رجال الدين والهرابذة وأهل الزهد إلى أن يعتمدوا اسم ولي العهد (وحين يفرغون من صلاة المساء يعتمدون الأمير الذي أوحى باسمه الله تعالى إلى قلب الموبذ).[٢]

وما جاء في رسالة تنسر يتفق مع ما جاء في عهد أردشير فيما يتعلق بالحديث عن مضار تعيين ولي العهد لما يسببه من عداوة وأحقاد بين الملك وولي عهده فيتمنى كل منهما فناء الآخر (ثم إنه ليس منكم ملك إلا كثير الذكر لمن يلي الأمر بعده ومن فساد الرعيّة نشر أمور ولاة العهود فإن في ذلك من الفساد أنّ أوله دخول عداوة مُمضّة بين الملك وولي عهده وليس يتعادى متعاديان بأشد من أن يسعى كل واحد منهما في قطع سؤل صاحبه ، وهكذا الملك وولي عهده لا يَسُرُّ الأرفع أن يُعطي الأوضع سؤله في فنائه ، ولا يَسُرُّ هذا الأوضع أن يُعطى الآخر سؤله في البقاء).[٣]

---

(١) رسالة تنسر ، ص ٥١،٥٢.
(٢) رسالة تنسر ، ص ٦٤/٦٥
(٣) عهد أردشير ، تجارب الأمم ، ص ٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما أن طريقة اختيار ولي العهد تكاد تكون واحدة فالطريقة التي يقترحها عهد أردشير لتحديد ولي العهد هي أن يقوم الملك بالإختيار سراً ويكتب اسم ولي عهده في أربع صحائف (فيختمها بخاتمه فيضعها عند أربعة نفر من خيار أهل المملكة ثم لا يكونن منه في سر ولا في علانية أمر يستدل به على ولي ذلك العهد.. فإذا هلك جمعت تلك الكتب التي عند الرهط الأربعة إلى النسخة التي عند الملك ففضضن جميعاً ثم نُوّه بالذي وضع اسمه في جميعهن فيلقى الملك).[١]

ولا بد من الإشارة هنا إلى ما يذكر كريستنسن من (أن أردشير وسابور الأول وسابور الثاني قد اختار كل منهم خليفته بنفسه ولكن في الحقبة بين حكمي أردشير الثاني وقباد الأول ترك اختيار الملك بوجه عام للعظماء ، ومن الممكن أن تنسجم الطريقة التي أشار إليها تنسر مع هذه الحقبة).[٢] ولكن هذا لا يدل على أن هذه الرسالة غير منسوبة لأردشير لأن أردشير لا يلزم الملوك باتباع سنة في اختيار ولي العهد وقد أشرت إلى هذا الأمر في بداية حديثي عن الرسالة .

نظام الأبدال:

من نظم القانون الساساني المتعلق بحقوق الأسرة زواج الأبدال الذي وصفته رسالة تنسر حيث كان الفرس يزوجون زوجة الميت أقرب أقاربه إن لم يكن له ولد بحيث ينسب نصف أولاد الزوجة من الزوج الثاني له فإن لم تكن له زوجة فليزوجوا ابنته ويفعلوا ما يفعل في الزوجة . (وإذا لم يكن له زوجة أو بنت اشتروا من ماله جارية وزوجوها كذلك من أقرب أقربائه وينسب الولد الذي يولد من هذا الزواج إلى المتوفى).[٣]

كل ذلك حتى يبقى نسل المتوفى وذكره لآخر الدهر.. ويقتل من لا يطبق ذلك.

نظام العقوبات

تورد رسالة تنسر معلومات عن نظرية العقاب عند الساسانيين ، والجرائم التي يعاقب عليها القانون هي جريمة الارتداد عن الدين (حينما يرتد رجل عن الدين أو يحدث البدع في الشريعة). وجريمة عصيان الملك وخيانته ، والجرائم بين الأفراد (حين يظلم بعضهم بعضاً) وقد كان عقاب جريمة الكفر في القرون الأولى من العهد الساساني القتل، وقد جرى تخفيف هذه العقوبة إلى حبس المجرم مدة عام ،ومحاولة هدايته إلى الدين ،فإن اهتدى أطلق سراحه وإن لم يهتد يقتل.

أما عقوبة العصيان والخيانة والهرب من الجيش فكان القانون الساساني القديم يعاقب على هذه الجريمة بالموت إلا أن الملك كما يروي تنسر رأى أن يقتل بعض العاصين ويترك البقية

---

(١)عهد أردشير تجارب الأمم ، ص ٦٣.
(٢) آرثر كريستنسن ،إيران في عهد الساسانيين ، ص ٥٢/٥٣.
(٣) رسالة تنسر ص ١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(حتى يأملوا في العفو وهم بين اليأس والرجاء يعيشون).[١]

وبالنسبة لعقوبة الجرائم التي يرتكبها الأفراد ضد بعضهم بعضاً فقد اختلفت عن السابق حيث أن السارق مثلاً كان يعاقب عقوبة بدنية شديدة أو يقتل، والآن أصبح لا يكتفى بالتمثيل به بل عليه أن يدفع غرامة لمن وقع عليه الظلم وبذلك (يشقى الظالم ويفيد المظلوم).. فمثلاً تقضي الأحكام بقطع أنف الزاني دون قطع أي عضو آخر وذلك حتى يلحقه العار وحتى يبقى على رأس عمله فلا تنقص القوة العاملة في البلاد. وإذا قام المجرمون ممن وقعت عليهم غرامات بالعودة إلى الإجرام بعد تعزيرهم يطلب قطع الأذن أو الأنف دون التعرض لعضو آخر.

وتنسر يوافق الملك على ما أقرّه من نظام العقوبات ويؤيده في رفع الظلم عن الرعيّة مما قد ألحقه التشدد في العقوبات التي أقرها السابقون فيقول (لو نقض الملك شيئاً من ظلم الأولين الذي لا يصلح لعهدنا وزماننا لقيل : «إن هذا الذي نقضه الملك رسم قديم وقاعدة من قواعد الأولين». ويجب أن تعلم الحقيقة: يجب الاجتهاد لتبديل آثار ظلم الأولين والآخرين).[٢]

واللافت هنا أن الملك قد أمر بتدوين هذه الأحكام القضائية (في الكتب والسنن) وهذا ما طالب به ابن المقفع الخليفة عندما أراده أن يدون الأحكام القضائية بعد أن يقرّها ويعممها على الولاة والقضاة.

ولكن.. ماذا يقصد ابن المقفع من ترجمته لهذه الرسالة التي تخالف في أحكامها القضائية أحكام الإسلام وعقوباته فالله جلّ وعلا في كتابه العزيز يأمر بقطع يد السارق وإقامة الحد على الزاني.. فقد قال تعالى:﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخُذْكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾.[٣]

وقال تعالى: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبَا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾.[٤]

ولكن ابن المقفع يشيع في مجتمع إسلامي أحكاماً قضائية تتنافى مع ما أقرّته عقيدتنا الإسلامية فيريد قطع أنف الزاني ، وضرب السارق وإيقاع غرامة عليه !؟

وتجدر الإشاره هنا ومن ما عرضته الرسالة من قضايا وأحكام أن كاتب الرسالة الأصلي تنسر يبين فضائل الملك بتوضيح الأحكام التي أقرها هذا الملك ولكن التعليلات التي تتبع هذه الأحكام أعتقد أن واضعها هو ابن المقفع دفعته لذلك شعوبيته وزندقته حيث يحاول إغراء أفراد المجتمع الإسلامي بهذه الأحكام فيبين فوائدها ومحاسنها وإلا فما الحاجة للتعليق على هذه الأحكام بقوله مثلاً (وهذا الرأي أصلح للحكم).[٥] حين تحدث عن عقوبة

(١) رسالة تنسر ص ٣٨.
(٢) رسالة تنسر ص ٣١.
(٣) سورة النور الآية (٢)
(٤) سورة المائدة الآية ٣٨.
(٥) رسالة تنسر ص ٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عصيان الملك.

أو قوله (فوضع الملك قانوناً بتوقيع الجراحة والغرامة معاً بصورة يشقى بها الظالم ويفيد منها المظلوم ويطيب نفساً ،فإنه حين تقطع يد السارق لن يفيد من ذلك أحد بل سيقع بين الناس نقصان فاحش .. وأمر بقطع أنف الزاني وألا يقطع منه أي عضو ينقص قوته ، وهكذا يلحقه

العار ، ولكنه يعمل فلا تنقص القوه العاملة).[١]

وهذه الرسالة لا تخالف إسلامنا في أحكامها القضائية فقط بل تخالف ما أقرّته عقيدتنا الإسلامية حين يشيع ابن المقفع بترجمته لهذه الرسالة حكم قصر الزواج على واحدة فالملك (قصر الزواج على واحدة أو اثنتين وأنكر كثرة الولد وكان يقول إن كثرة الولد للسفلة . أما الملوك والأشراف فيباهون بقلة الولد).[٢]

فأين هذا من حكمة ديننا الإسلامي الذي أجاز الزواج من أربعة قال تعالى ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾.[٣]

فالعدل الإلهي مقدّر لأحوال الناس عالم بالنفس البشرية وخباياها... فواحدة إن خيف الظلم أي أن واحدة مشروطة بشروط خوف الظلم ، كما التعدد مشروط بشروط ليس المجال يسمح بذكرها .. فماذا يريد ابن المقفع أنتبع سنة ملوكه الفرس أم نحتكم لشريعتنا السماوية ونستظل بعدلها.

وأين دعوة ابن المقفع للإقلال من الأولاد من قول رسولنا الكريم (تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم)!؟[٤]

الحديث عن أرض فارس:

يجيب تنسر عن سؤال الأمير حول مجالس الملك ومعاركه وصلحه وحربه فيبين الأرض التي يحكمها الملك بحيث تشتمل على أربعة أجزاء هي : الجزء الأول هو أرض الترك. والثاني ما بين الروم والقبط والبربر ، والجزء الثالث : السواد ما بين البربر إلى الهند .. والجزء الرابع أرض فارس.

وتظهر يد ابن المقفع الخفيّة هنا وتكشف شعوبيته عن نفسها حين يبدأ بالحديث عن أرض فارس وأهميتها ومزايا أهلها وفضلهم على بقية الخلق ..فلو كان تنسر هو صاحب الحديث لفصّل في وصفه للأجزاء الثلاثة الأولى .. ولا أعتقد أن أيّاً من المترجمين أو النساخ أضاف كل هذا الوصف وذلك لما نعرفه من طبيعة ابن المقفع الذي يحاول وفي أية مناسبة إحياء مجد فارس والحديث عن فضائلها .

---

(١) رسالة تنسر،ص ٣٩.

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩.

(٣) سورة النساء الآية (٣).

(٤) سنن أبي داود ، ج٢، راجعه محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار إحياء السنة النبوية ، ص ٢٢٠، حديث رقم ٢٠٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو هنا يصف أهلها أنهم ذوو سيادة وسلطان ، يمتازون بكرم الأخلاق و العزة والفروسية والفطنة والصناعة ، وهم قمّة في كل ذلك ، كما أنهم ملتزمون بآداب الدين ويشهد لهم بالحنكة في خدمة الملوك وليس هذا فحسب بل إنهم في أوصافهم الجسدية يمتازون بخير الصفات ويأخذ ابن المقفع في وصف لون بشرتهم وهيئة شعورهم .

منتهياً إلى نتيجة مفادها أن أرض فارس هي أصل الخيرات والمنافع بكل الأراضي المحيطة بها ويقول (هذا الجزء الرابع – الأرض المنسوبة لفارس – هو صفوة الأرض ، وهو من بقية الأرض بمنزلة الرأس والسرة وسنام الجمل والبطن .

وأنا شارح لك ذلك : فأما أنه الرأس فلأن السيادة والسلطان كانا لملوكنا منذ عهد إيرج بن أفريدون ، فقد حكموا جميع الأجزاء وكان يؤخذ بأمرهم ورأيهم في الخلاف بين أهل الأقاليم وكانوا يرسلون إليهم بناتهم ويقدمون لهم الخراج والهدايا وأما أنه السرة فلأن أرضنا تقع وسط الأراضي الأخرى وأهلنا أكرم الخلق وأعزهم وقد جمع الله تبارك ملكه فينا فروسية الترك، وفطنة الهند ،وصناعة الروم ،وأعطينا في كل شيء من ذلك الزيادة على ما أعطوا ، وقد حرم الله الآخرين مما أعطانا من آداب الدين وخدمة الملوك ، وأعطينا الأوساط في الصور والألوان والشعور، فلا سواد غالب، ولا صفرة ولا شقرة ، شعورنا ليست مفرطة في الجعودة كشعر الزنوج، ولاهي مفرطة في السبوطة كشعر الترك . وأما أنه السنام فإنه مع صغره بالنسبة لباقي الأرض فهو أكثر منافع وأكثر خصباً، وألين عيشاً من جميع ما سواه . وأما أنه البطن فلأن الأرضين كلها تجلب إليها أطعمتها وأدويتها وعطرها فنمتع بها كما تجبى الأطعمة والأشربة إلى البطن .[1]

ويكمل ابن المقفع مدح فارس وأهلها ،طاعناً بحكم شعوبيته وزندقته بالعرب وبالإسلام، فهو مثلاً يلمح إلى قضية السبايا والرقيق مما شاع عند العرب قبل الإسلام وينكره وينفي عن ملوك فارس استعباد السبايا ،واتخاذ الأرقّاء، بل إنه أيضاً ينفي عنهم طاعناً بالعرب أيضاً الفساد والغارة والقتل والكفر بالدين.

كما أنه يشير إلى الجزية والزكاة مما فرضه الإسلام وذلك عندما ينفي عن ملوك فارس فرض الضرائب فيقول (وجميع علوم الأرض لنا ، ولم ينسب قط لملوكنا القتل والغارة والغدر وسوء الخلق، والكفر بالدين ،فإذا ما خالف هذا ملكان أو قاما لحماية الدين ،فقطعا دابر أصحاب الفساد بالغارة والقتل ،فإنهما لم يجيزا استعباد السبايا ولم يتخذاهم أرقاء. بل عمرا بهم المدن . ولم يفرض ملوكنا الضرائب على رعاياهم طمعاً في الغنم ، أو حرصاً على المال، أو اتباعاً للهوى .. ولو اختلف ملوكنا فإنهم يحتكمون للحق والشريعة والحجة ،وإنّ ألف رجل منا يغلبون عشرين ألفاً من الأعداء أياً كانوا، ذلك لأن رجالنا لا يبدأون بالعدوان

---

(١) رسالة تنسر ، ص ٦٦-٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحرب والقتل).[١]

كما أن هذا المدح لأمة فارس يظهر في مقدمة القصة التي يوردها ابن المقفع ليثبت أهمية الإيمان بالقضاء والقدر .[٢]

ولنسأل أنفسنا هنا بعد هذا المدح الذي أورده ابن المقفع في هذه الرسالة لأمة فارس .. هل مدح ابن المقفع العرب حقاً في المربد!؟؟

السمات الفنية للرسالة:

إذا حاولنا تطبيق خصائص النثر الفنية في العصر العباسي، وخصائص أسلوب ابن المقفع على هذه الرسالة فسنجد أن الرسالة تمتاز بعدد من السمات الفنية فالرسالة تبدأ بعبارة أما بعد على عادة رسائل العصر العباسي ،وتشير إلى أن الرسالة التي كتبها جشنسف ملك طبرستان تبدأ بالدعاء والتعظيم ،وكأن هذه الرسالة أيضاً قد نظمت على نسق رسائل العصر العباسي.

ونجد في الرسالة ذكراً كثيراً لله، وحديث عن الدنيا والآخرة، وثواب الله في الدنيا والآخرة، فمثلاً نجد تنسر يدعو لوالد ملك طبرستان قائلاً (خلّد الله روحه وأبقى ذكره).[٣]، كذلك عندما يتحدث تنسر عن تسخير نفسه لخدمة الناس قال (ليطلبوا إليّ ما فيه صلاح دنياهم وفلاحهم في آخرتهم)[٤].

كما أن تنسر يحاول أن يجعل نفسه قدوة للناس ليبين لهم أن هذه الدنيا زائلة فيقول (ولكي لا يظنوا أو يتصوروا أني اشتغل بطلب الدنيا بالخداع والختل، أو يتوهموا أني أحتال عليهم . ولقد أعرضت منذ زمن بعيد عما هو محبوب في الدنيا، واسترحت إلى ما هو مكروه فيها، فعلت ذلك ليستجيب لي الناس إذا دعوتهم للرشد والحسنى، والخير والسعادة).[٥]

كذلك عندما أعاد الحديث عن الملوك، وكيف ينبغي أن يراعوا شؤون حكمهم وذلك حتى (يعلو اسمه في الدنيا والآخرة).[٦]

فيبدو تنسر كما يظهر رجال الدين الفرس ينادون بالزهد، فقد قدّم تنسر آخرته على دنياه راجياً ثواب الله في الآخرة .[٧]

كما تكثر الألفاظ الموحية بالأفكار الإسلامية ،مما يدل على تأثر ابن المقفع بالثقافة الإسلامية كالحديث عن دار الفناء ودار البقاء وأن على الانسان أن يعمل ما ينفعه في دار البقاء ويزينه في دار الفناء . كذلك الحديث عن وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، والإتيان بحكاية

---

(١) رسالة تنسر ، ص ٦٧/٦٨.
(٢) المرجع السابق ، ص ٥٢/٥٣.
(٣) رسالة تنسر ، ص٤٠
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٥.
(٥) المرجع السابق ، ص ٢٥:
(٦) المرجع السابق ، ص ٢٧
(٧) يذكر آرثر كريستنسن في كتابه إيران في عهد الساسانين ، ص ٨٦: أن رجال الدين كان منهم الحكام والعباد وطبقتهم الأقل درجة والأكثر عدداً هي المغان (جمع مغ) ،والزهاد والسدنة والهربذان جمع (هربد) ثم علماء مختلفون يشغلون وظائف خاصة ثم المراقبون والمعلمون.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن ملك (كان يدين بالقدر وله فيه غلو وتعصب).[١]

وقوله (فقد قال الحكماء : إن الفناء مكتف عن أن يعان وأنت محتاج إلى أن تعين نفسك وقومك بما يزينك في دار الفناء وينفعك في دار البقاء.).[٢]

وقوله في الموازنة بين العمل والاتكال على القضاء والقدر ودعم رأيه بمثل على عادة أسلوب ابن المقفع : (وكن على يقين من أن كل من يسعى دواماً سعياً ،ولا يؤمن بالقضاء والقدر فهو جاهل مغرور، وإنما العاقل من التزم الوسط بين الطلب والقدر، ولم يقنع بواحد منهما ذلك أن القدر والطلب كحقيبتي مسافر على ظهر دابة إذا ثقلت إحداهما خفت الأخرى ،وسقط المتاع ،وكسر ظهر الدابة، واغتم المسافر،وفاته المقصود، وإذا تساوت الحقيبتان ،فإن المسافر لا يضيق صدره والدابة تستريح ويتم المقصود).[٣]

كما ظهرت نزعة الإيمان بالقضاء والقدر في قوله (أيها الشاب لقد حملنا سيل القضاء قبلكم إلى بحر الفناء كي يوردكم القدر كالقش نفس المصير).[٤]

وقوله (فلما جيء به شاء القدر أن يتسرب دخان الغضب من رأس الملك حتى يصل به إلى العيون فأمر بقتله في الحال).[٥]

كذلك الألفاظ (الحق والشريعة والحجة وبيت المال) في قوله :(لو اختلف ملوكنا فإنهم يحتكمون للحق والشريعة والحجة).[٦]. وقوله (ويملأ الخزائن وبيت المال ويعمر المدن).[٧]

ويلاحظ أيضاً في الرسالة تقسيمات ابن المقفع وأسلوبه المنطقي القائم على تقديم مقدمات تلزم نتائج معينة فقال :(صدق الحكماء حين قالوا من عدم العقل لم يزده السلطان عزاً ، ومن عدم القناعه لم يزده المال غنى ، ومن عدم الإيمان لم تزده الرواية فقهاً).[٨]

كما نرى هذه التقسيمات في قوله (السرور عندي أنواع أوّلها صورة الصواب التي أعتقدها ،وأرى نتائجها كل صباح ومساء متمثلة في ظهور الصلاح بعد الفساد ،والحق بعد الباطل . وثانيها سرور أرواح الصالحين والراحلين برأيي وعلمي وعملي ،وها أنذا أسمع أصواتهم تعلو « أحسنت » وأرى السعادة والبشر في وجوههم . وثالثها علمي بأنه سوف تكون بين أرواحنا، وأرواح الموتى ألفة لا يشوبها خلاف، وحين تتصل أرواحنا بأرواحهم سوف نحكي بعضنا لبعض ما صنعنا وسوف نجد السعادة فيما عملنا).[٩]

---

(١) رسالة تنسر ، ص ٧١.
(٢)المرجع السابق ، ص ٧٠.
(٣) المرجع السابق ، ص ٧٠/٧١.
(٤) المرجع السابق ص ٦٠.
(٥) المرجع السابق ، ص ٦١.
(٦) المرجع السابق ، ص ٦٧.
(٧) المرجع السابق ، ص ٦٨.
-٨) المرجع السابق ، ص٥٨.
(٩) المرجع السابق ، ص ٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما يلاحظ كثرة الأمثلة والأدلة والحجج التي تأتي بها الرسالة لدعم ما ورد فيها من آراء مثل (ذلك لتعلم أن ما أمر به الملك من عناية كل امرئ بعمله ، وألا يعنى بشؤون غيره هو قوام العالم ودستور أهله، وهو بمنزلة المطر الذي يحيي الأرض ،والشمس التي تهب القوة، والرياح التي تنعش الروح).[١]

و(إن البيوتات والدرجات مثل الأركان والأوتاد والقواعد والإسطوانات ، وإذا انهار الأساس تداعى المنزل وخرب وانقض).[٢]

كذلك القول بضرورة استخدام الشدة لإيقاع العقوبات بالمجرمين، لأن اللين لا يجدي بدليل (أن المرهم لا يكون ناجعاً مفيداً للجراحات الخطيرة، إذ ليس لها إلاّ الشق أو الكي).[٣]

كما ترد في الرسالة استشهادات من التوراة والانجيل ،وهذا مالم يرد في ما ترجمه ابن المقفع أو ألفه.

فمثلاً تورد الرسالة (فإنه قد جاء في التوراة « هجران الجاهل قربة إلى الله عز وجل).[٤]

كذلك (وفي توراة اليهود وإنجيل النصارى أن الناس تكاثروا في عهد نوح عليه السلام حتى لم يبق من الأرض شبر غير عامر ، وجاء بنولهيم فاختلطوا ببنات أبناء آدم فظهر منهم الجبابرة حتى قيض الله الطوفان ليقهرهم).[٥]

كذلك (جاء وفي توراة اليهود أن الأخ يتزوج امرأة أخيه المتوفى ليبقى نسل أخيه والنصارى يحرمون ذلك).[٦]

وترد في الرسالة أيضاً (أبيات شعرية وحكم غير منسوبة لأصحابها أما الأبيات فالمنظوم منها يمتاز بالضعف ،وكما نعلم لم يرد في رسائل ابن المقفع استشهادات شعرية أو منظومات إلا في الأدب الوجيز، ومن الواضح أنها ليست من وضع ابن المقفع لبعد الزمن بين موت ابن المقفع وظهور الشعراء الواردة أبياتهم كالمتنبي وأبي العلاء المعري .وأما الحكم فتشيع في رسائل ابن المقفع والكثير منها غير منسوب لقائله ومن الشعر والنظم :

(خص بإحسانك رجلين
ليس في الدنيا أتعس ولا أذل منهما
أحدهما رجل طيب عاقل
والآخر ملك فقد التاج والتخت
يبقى ضعيفاً في يد الجهلاء

(١)رسالة تنسر ، ص ٣٦
(٣)المرجع السابق ، ص ٤٠
(٣) المرجع السابق ، ص٤٧.
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٦.
(٥) المرجع السابق ، ص٤١.
(٦) المرجع السابق ، ص٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأوقعه في الفاقه سوء طالعه)[١]

كذلك

(بغاث الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقلات نزور).[٢]

والأبيات :

(في الغيب ما يرجع الأوهام ناكصة والمرء مختدع بالزجر والفال

يخال بالفأل باب الغيب منفتحاً أوالغيب مستوثق منه بأقفال)[٣]

أما الحكم غير المنسوبة لقائليها فمنها (فإن الحكماء الأقدمين قالوا : القلب الفارغ يبحث عن السوء، واليد الفارغة تنزع إلى الإثم).[٤]

وقوله (ألم تسمع حديث رجل صالح من أهل ذلك الزمان قال : (ألم نعرف ونسمع من قبل أن العفاف والحياء ،والقناعة، والصداقة المرعية، والنصيحة الخالصة ،والرحم الموصولة كلها في انعدام الطمع ...).[٥]

وقوله (صدق الحكماء حين قالوا : من عدم العقل لم يزده السلطان عزاً..).[٦]

كذلك فإن الرسالة تورد قولاً على لسان أمير المؤمنين (بحق ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام ألا وإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتعقب الندامة).[٧].

ولا نعلم مَنْ مِنْ أمراء المؤمنين يقصد ابن المقفع ؟

ويلاحظ ظهور سمة الاقتباس من القرآن الكريم في الرسالة مثل قوله : (وندم على هذه العاقبة حين كانت الندامة على الخطأ لا تجدي « فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها).[٨]

كذلك قوله (وإن ألف رجل منا يغلبون عشرين ألفاً من الأعداء أياً كانوا).[٩]

فهذه الآية مقتبسة من الآية الكريمة ﴿ يا أيها النبيُّ حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم

---

(١) رسالة تنبسر ، ص ٢٦.
(٢) المرجع السابق ، ص٤٩
(٣)رسالة تنسر ، ص ٥٤.
(٤) المرجع السابق ، ص ٣٧.
(٥) المرجع السابق ، ص٣٦.
(٦) المرجع السابق ، ص ٥٨.
(٨) المرجع السابق ، ص ٦١/.(الآية ٤٢ سورة الكهف)
(٩) المرجع السابق ، ص٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يفقهون ، الآن خفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾.(١)

كما تم الاستشهاد بالقرآن الكريم عندما تحدثت الرسالة عن فساد الناس فقال (ويغدو الناس كالشياطين والوحوش كما جاء في القرآن الكريم «شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا») .(٢)

ويورد ابن المقفع قصة لإثبات أهمية الإيمان بالقدر وليدلل على أن اختيار الملك ولي عهده قد يحدث فساداً كبيراً وفتنة قد تؤدي في النهاية إلى إيقاع الهلاك والدمار والقتل، وقد نسبت هذه القصة لابن المقفع للملاحظات التالية: فيلاحظ أن جزءاً من هذه القصة كان على ألسنة القردة وهذا أسلوب نجده عند ابن المقفع في كليلة ودمنة.

كما نجد استشهاداً بكثير من الأبيات الشعرية غير المنسوبة لأصحابها إضافة إلى الحكم غير المنسوبة ايضاً.

وبرز ايضاً إستخدام المحسنات البديعية بشكل لافت حتى إن أسلوب القصة يختلف عن بقية الأسلوب في الرسالة فمثلاً نجده يقول (فلما انتقل الولد من عهد المهد والقماط الى حد التخت والبساط) .(٣)

وقوله (كان لتغولشاه كاتب محنك محكك ، كان في خدمته مجرباً ومقرباً ، ذا عقل وحصافة ، وديانة وأمانة ، حسن الصورة ممدوح السيرة ، محمود الخلق مسعود الخلق).(٤)

وقوله (ومهما يكن من شيء فإن الهجرة والجلاء من الجفاء. والبلاء من سنن الأنبياء المرسلين، فإن العاقل إذا رأى تباشير الشر ومناكير الضر في نفسه وفي أتباعه وأهله وأشياعه، فلم يعبأ بها وآثرهم الولد والموطن على سعادة عمره كله، نسب إلى الجهل والكسر وجر نفسه على نفسه قضاء الأجل).(٥)

كما تلاحظ أيضاً تقسيمات ابن المقفع وأسلوبه المنطقي القائم علي تقرير مقدمات ونتائج كقوله (صدق الحكماء حين قالوا : من عدم العقل لم يزده السلطان عزاً ، ومن عدم القناعة لم يزده المال غنى ، ومن عدم الايمان لم تزده الرواية فقهاً).(٦)

---

(١)الآية ٦٥، ٦٦ سورة الأنفال.
(٢) رسالة تنسر ، ص ٣٥/ الآية ١١٢ سورة الأنعام.
(٣) المرجع السابق ، ٥٤.
(٤) المرجع السابق ، ص ٥٥.
(٥) المرجع السابق ، ص ٥٦.
(٦) المرجع السابق ، ص ٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلاحظ أيضاً غموض بعض العبارات مثل (فأخذت تجري من باب لآخرمن شدة النار وتنقل من سراي إلى سراي حتى دخلت سراي كبير من أركان الدولة وأعيان المدينة ، وشاء القضاء أن يكون الرجل مريضاً ، فجرت الشاه عليه وأحرقته، كما أحرقت كثيراً من العظماء).[١] .

ورد ذكر لسورية في الرسالة قال (ويلزمهم بالخراج الذي كانوا يعطونه دائماً لملوكنا عن أرض القبط وسورية التي كان العبرانيون قد غلبوا عليها فسار إليهم بختنصر وقهرهم، ولكنه لم يترك بها أحداً من رجاله لرداءة هوائها وفساد مائها وأمراضها المتوطنة فسلمها لملك الروم قانعاً بالخراج واستمر الحال على هذا حتى عهد كسرى أنو شروان)[٢] . ولكن هل سورية الموصوفة هنا هي التي نعرفها الآن؟

وأخيراً فإن الدلائل والحجج التي أوردها كل من د. يحيى الخشاب وآرثر كريستنسن قد لا تعد كافية لتحديد زمن الرسالة .

فالمؤشرات والدلائل التي يوحي بها نص الرسالة متضاربة، ومن الواضح جداً تدخّل يد خفية في الرسالة وهذا يظهر في القول :(ومعنى الأبدال في مذهبهم).[٣] فمن الذي يشرح مذهب الفرس ؟ ليس تنسر طبعاً وإلالقال (في مذهبنا) ، كذلك عبارة (وأما حكاية التابوت فهي ...).

فمن يقص الحكاية ؟ بالتأكيد ليس تنسر لأن هذه الحكاية من الموروث الشعبي الفارسي ولا بد أن يكون ملك طبرستان عالماً بها كما أن هذه الحكاية مقحمة على النص.[٤]

كذلك عبارة (فاعلم أن الملك قد وجد أحكام الدين ضائعة ومختلة وأن البدع والمحدثات قد قويت وسيطرت على الناس).[٥]

فمن الذي وجد أحكام الدين ضائعة؟ من جعل الديانة الزرادشتية ديناً رسمياً للدولة وهو أردشير – أم من عُرف عنه التساهل في أمور الدين وهو كسرى أنو شروان ؟ سيما وأن الرسالة تشير إلى حرق الإسكندر للأوستا ، وأن الناس قد نسوا أحكام دينهم ونسوا القصص والأحاديث المتعلقه به، ومعنى ذلك أنه مرّ زمن طويل بين إحراق الإسكندر للكتاب وبين محاولات تخفيف العقوبات أو إحياء الدين .. ألا يرجح هذا أن يكون الكتاب منسوباً لعهد كسرى أنو شروان؟

---

(١) رسالة تنسر ، ص ٦٠.
(٢) المرجع السابق، ص٦٨
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٣.
(٤) المرجع السابق ، ص ٤١.
(٥) المرجع السابق ، ص ٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخلاصة

وبعد فهذه هي رسائل عبد الله بن المقفع، وهذه بعض ملامح شخصيته التي حاولت استنباطها بالتوفيق بين ما روي عنه في بطون الكتب من روايات ، وبين أقواله التي نثرها في رسائله . وبالنظر في هذه الرسائل ، والتعمق في دراستها وصلت إلى بعض النتائج كان منها :

١- حملت هذه الرسائل روح عبد الله بن المقفع، واعتزازه بأمجاد أمته الفارسية ومحاولاته بعث تراث أمته، وإن كانت هذه المحاولات في كثير من الأحيان خفيّة لا تكشف عن نفسها إلا في بعض المواطن .

٢- قدّم لنا ابن المقفع في رسائله بعض ملامح المجتمع في العصر العباسي الأول محاولاً في جميع رسائله إصلاح هذا المجتمع وشفائه من الأدواء التي ألمت به، بادئاً برأس المجتمع وهو الخليفة ، مجملاً الظواهر الإجتماعية والأخلاقية والاقتصادية التي ظهرت في ذلك الوقت .

٣- استطاع ابن المقفع تمثيل فن الرسائل في العصر العباسي الأول ، فكانت عنايته بالألفاظ السهلة ، والمعاني الواضحة ، والبديع والبيان غير المتكلف .

٤- يمكن اعتبار ابن المقفع صاحب طريقة في الكتابة ..... وإن كانت أدواته أحياناً قد قصّرت عن الغرض المطلوب ، فغمضت بعض معانيه لتشتتٍ في بعض أفكاره ، ومبالغة في إطالة أو تقصير بعض جمله .

وفي الختام أسأل الله أن أكون قد وُفقت فيما كتبته ، وأعطيت الموضوع حقّه من الدراسة والبحث ، وإن كان فيه نقص أو خلل فأرجو المعذرة ، وبفضل توجيهات أساتذتي الأفاضل يسدّ النقص إن شاء الله .

والله من وراء القصد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثبت المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

- آرثر كريستنسن ، إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، مراجعة عبد الوهاب عزام ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت.

- إبراهيم بن المدبر، الرسالة العذراء، بقلم زكي مبارك ، ط١، دار الكتب المصرية، ١٩٣١.

- إبراهيم علي أبو الخشب ، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية.

- إبراهيم السامرائي، من معجم عبد الله بن المقفع، ط١، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٤.

- ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ، الكامل في التاريخ، راجعه محمد يوسف الرقاق ، ط١، دار الكتب العلميه ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧م.

- ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ،لسان الميزان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

- إحسان عباس، ملامح يونانية في الأدب العربي، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٩٣.

- من محاضرات الشيخ أحمد الإسكندري بدار العلوم ، ابن المقفع، مجلة الزهراء ، مجلة علمية أدبية اجتماعية شهرية أنشأها محب الدين الخطيب. المجلد الثالث ، ج٩ ، منشورات المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤٥هـ.

- أحمد أمين ، ضحى الإسلام، ط٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٧.

- أحمد أمين ، فجر الإسلام، ط٢ ، مطبعة الإعتماد ، بشارع حسن الأكبر.

- أحمد حسن الزيّات ، تاريخ الأدب العربي، ط٦، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٥م.

- أحمد زكي باشا ، الأدب الصغير لابن المقفع، مجلة المقتبس ، محمد كرد علي ، المجلد السابع ، مطبعة المقتبس، دمشق ، ١٩١٢.

- أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة ، العصر العباسي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأول ، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ١٩٣٧م.

-أحمد كمال زكي ، الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري ، ط١، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٦١م.

- ابن أبي الإصبع المصري ، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، تحقيق د. حنفي محمد شرف ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ.

- الاصطخري أبو إسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، مصر ، ١٩٦١م.

- ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة بيروت ، ١٩٦٥م.

- إلكك-فكتور ، ابن المقفع أديب العقل، ط١، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٦م.

- إنعام الجندي ، دراسات في الأدب العربي ، ط٢، دار الأندلس للطباعه والنشر ، بيروت ، ١٩٦٧م.

- إنعام الجندي ، الرائد في الأدب العربي ، ط٢، دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان، ١٩٨٦م.

- أنيس المقدسي ، تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، ط١، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٠م.

- إيليا سليم الحاوي، نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص، ط٣، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٩م.

-البخاري أبو عبد الله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخاري، تحقيق محمد ديب البغا،ط١،دار القلم دمشق ، بيروت، دار الإمام

-براون-ادوارد ، تاريخ الأدب في إيران منذ أقدم العصور حتى عصر الفردوسي ، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي ، مطبوعات جامعة الكويت.

-بروكلمان -كارل ، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار ، ط٤، دار المعارف ، القاهرة.

-البغدادي عبد القادر بن عمر ، خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب ، تحقيق عبد السلام

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

محمد هارون ، مكتبة الخانجي، مصر ، ١٩٨١م.

-البلاذري أبو الحسن ، فتوح البلدان ، ط١، إشراف لجنة تحقيق التراث، منشورات مكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣م.

-التوحيدي أبو حيان ، الإمتاع والمؤانسة ، تصحيح وضبط، أحمد أمين ، وأحمد الزين ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت، لبنان.

- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر .

- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، كتاب التاج في أخلاق الملوك ، تحقيق أحمد زكي باشا، ط١، الطبعة الأميرية ، القاهرة، ١٩١٤م.

-الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين ،ط١، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ،١٩٥٠م.

-الجاحظ أبو عثمان بن بحر، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون،ط١، مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٧٩م.

-الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، المحاسن والأضداد ، تقديم وشرح د. علي أبو ملحم ،ط٢، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩١م.

-جب- هاملتون ، دراسات في الأدب العربي، المركز العربي للكتاب، دمشق.

-جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، منشورات دار مكتبةالحياة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٣م.

-جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، مراجعة وتعليق حسين مؤنس ، دار الهلال.

-الجهشياري أبو عبد الله محمد بن عبدوس ، الوزراء والكتاب ، تقديم حسن الزين ، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٨م.

-جورج غريب ، دارسة ونصوص وأسئلة عامة ، سلسلة الموسوع في الأدب العربي دار الثقافة ، بيروت، لبنان.

-جورج غريب ، عبد الله بن المقفع ، دراسة في الأدب والتاريخ ، دار الثقافة بيروت ، لبنان.

-جورج غريب ، العصر العباسي نماذج شعرية محللة ،سلسلة الموسوع في الأدب العربي ، دار

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثقافة ، بيروت.

- جورج غريب ، العصر العباسي نماذج نثرية محللة ، ط٣، سلسلة الموسوع في الأدب العربي ،دار الثقافة ، بيروت ، لبنان، ١٩٧٨م.

-جورج غريب ، من التراث العربي ، سلسلة الموسوع في الأدب العربي ، ط٣، دار الثقافة ، بيروت، لبنان ، ١٩٨٠م.

-جوزيف الهاشم ، أحمد أبو سعد وآخرون ، المفيد في الأدب العربي ، ط١، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، ١٩٦٤م.

-حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله القسطنطنّي الرومي الحنفي ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٢م.

-حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج٢،ط٢، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨م.

-حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج١،ط٧، مكتبة النهضة المصرية - القاهره ١٩٦٤م.

-حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج٤،ط١، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٧م.

-حسين الحاج حسن ، أعلام في العصر العباسي، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٥م.

-الحصري أبو إسحاق ابراهيم بن علي القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق زكي مبارك ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٣، مطبعة السعادةه مصر ، ١٩٥٣م.

-حنا أفندي نصر ، ابن المقفع مجوسي أو نصراني، مجلة الهلال ، المجلد الثامن ، السنة الثامنة عشرة ، ١٩١٠م.

-حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ط٨، المكتبة البولسيّة ، بيروت ، لبنان.

-حنا الفاخوري ، ابن المقفع ،دار المعارف ، مصر.

-حنا الفاخوري ، الموجز في الأدب العربي وتاريخه ، الأدب المولّد ، ط١،دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٥م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-حنا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الأدب العربي ، الأدب القديم ، ط١، دار الجيل بيروت ، لبنان ، ١٩٨٦م.

-ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، ط٣، دار نهضة مصر الطبع والنشر ، القاهرة.

- ابن خلكان أبو العباس ،شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس ج٣، دار صادر ، بيروت ، ص ٢٢٩.

- أبو حيان التوحيدي ، الإقناع والمؤانسة ، تصحيح وضبط، أحمد أمين ، وأحمد الزين ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت، لبنان.

-خليل جفال ، الشعوبية والأدب ، أبعاد ومضمونات ، ط١، دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٦م.

-خليل مردم بك ، ابن المقفع ، مكتبة عرفة ، دمشق ، ١٩٣٠م.

- دائرة المعارف الإسلامية ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

-الدينوري أبو حنيفة أحمد بن داود، الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال ، مكتبة المثنى ، بغداد.

-زاهية قدورة ، الشعوبية وأثرها الإجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، ط١، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٨م.

- زكي مبارك ، النثر الفني في القرن الرابع ، ط١، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٤م.

- السجستاني الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي ، سنن أبي داود، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس ط١، دار إحياء السنة النبوية ، ١٩٧٠م.

-السيد أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيّات وإنشاء لغة العرب، تحقيق لجنة من الجامعيين ، منشورات مؤسسة المعارف ، بيروت.

-الشريف الرضي علي بن الحسين الموسوي العلوي ، أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد، ط١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ،١٩٥٤م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول، ط٨، دار المعارف ، القاهرة .

-شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط٣، دار المعارف ، مصر ، ص ١٤٢ .

-صاعد الأندلسي ،طبقات الأمم ، تحقيق حياة بوعلوان ، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٥م.

-الصولي أبو بكر محمد بن يحيى ، أدب الكتّاب ، نسخ وتصحيح محمد بهجة الأثري ، المكتبة السلفية ، مصر ، ١٣٤١هـ.

-الطبري أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٤، دار المعارف ، القاهرة.

-طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين الأدب والنقد ، دار الكتاب اللبناني.

-طه حسين وآخرون ، المجمل في تاريخ الأدب العربي ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٣٠م.

-أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار لفكر العربي.

-ابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله، القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم، تحقيق إبراهيم الأبياري ،ط١، دار الكتاب العربي، بيروت .

-ابن عبد ربه أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي ، العقد الفريد ، شرح وضبط أحمد أمين ، أحمد الزين ، ابراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي، بيروت ، ١٩٨٣م.

-عبد الرحمن بدوي ، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ، دراسة لكبار المستشرقين ،ط٢، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٦م.

-عبد اللطيف حمزة ، ابن المقفع ، ط٣، دار الفكر العربي ، ١٩٦٥م.

-عبد الله بن المقفع ، الأدب الصغير والأدب الكبير ،شرح ودراسة د. مفيد قميحة، ط١، دار الشواف للطباعة والنشر ، الرياض ، السعودية ، ١٩٨٩م.

-عبد الله بن المقفع ، الأدب الوجيز للولد الصغير، تعريب وتحقيق محمد غفراني الخراساني ، عالم الكتب ، القاهرة .

-عبد الله بن المقفع ، كتاب تنسر، ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة.

-عبد الله بن المقفع ، كليلة ودمنة ، تقديم عمر أبو النصر ،ط١، دار القلم ، بيروت ١٩٨٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-عبد الله بن المقفع ، آثار ابن المقفع، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان.

-عبد الله بن المقفع ، كليلة ودمنة ، تحقيق محمد أمين فرشوخ،ط١، دار الفكر العربي، بيروت ، ١٩٩٠م.

-عبد الله بن المقفع ، كليلة ودمنة ، تقديم وشرح الطيب البكوش ، عبد المجيد عطية، رفيق بن وناس ، منشورات مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله – تونس.

-عثمان موافي ، من قضايا الشعر والنثر العربي القديم والحديث ، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٤م.

-عز الدين إسماعيل ، في الأدب العباسي ، الرؤية والفن ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٤م.

-عزيزة فوّال بابّتي ، الإطار الأدبي في مطلع العصر العباسي ،ط١، دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان ، ١٩٨٦م.

- العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ، كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٢م.

- أبو علي مسكويه ، تجارب الأمم ، تحقيق أبو القاسم إمامي ، دار سروش للطباعة والنشر ، طهران ، ١٩٨٧م.

-عمر الدقاق، ملامح النثر العباسي ، دار الشرق العربي ، بيروت .

-عمر الدقاق ، مواكب الأدب العربي عبر العصور ،ط١، دار طلاس للدراسات الجامعية١٩٨٤م.

-عمر رضا كحالة ، الأدب العربي في الجاهلية والإسلام ، المطبعة التعاونية ، دمشق، ١٩٧٢م.

-عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية ، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .

-عمر فروخ ، عبد الله بن المقفع وكتاب كليلة ودمنة ،ط٢،منشورات مكتبة منيمنة، بيروت ، ١٩٤٩م.

-عمر فروخ ، المنهاج في الأدب العربي وتاريخه ، منشورات ، المكتبة العصرية ، بيروت ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٩٦٠م.

-عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، الأعصر العباسية ، ط٥، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٥م.

- عيسى العاكوب ، تأثير الحكم الفارسية في الأدب العربي في العصر العباسي الأول ، دراسة تطبيقية في الأدب المقارن ، ط١، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٩م.

-ابن الفراء أبو علي الحسين بن محمد ، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٧م.

- أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، تحقيق علي النجدي ناصف ، إشراف محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامةللكتاب ، ١٩٧٢م.

- ف- بارتولد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر، ط٥، دار المعارف، القاهرة.

-فك-يوهان ، العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، مع تعليقات المستشرق الألماني شبيتالر ، ترجمة رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٩٨٠م.

-القاسم بن إبراهيم،كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع، تعليق ميكائيل أنجلو جويدي،مطبعة أكاديمية لنجاي الملكية في رومية ، سنة ١٩٢٧م.

- ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ، عيون الأخبار ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

- قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، كتاب نقد النثر، تحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادي، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٣م.

-القشيري الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم ، صحيح مسلم ، شرح النووي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

-القفطي جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، تصحيح محمد أمين الخانجي الكتبي، ط١، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٢٦هـ.

-القلقشندي أحمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين ، ط١، دار الكتب العلمية بيروت ، ١٩٨٧م.

- ابن كثيرأبو الفداء الحافظ الدمشقي ، البداية والنهاية ، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون ، ج١٠،ط٣. دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧م.

- ليلى حسن سعد الدين ،كليلة ودمنة في الأدب العربي، دراسة مقارنة ، دار البشير

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ١٩٨٩م.

-محمد أحمد وريّث، كليلة ودمنة ومقتل عبد الله بن المقفع، ط٢، الكتاب للتوزيع والإعلان والمطابع ، طرابلس ، الجماهيرية العربية الليبية ، ١٩٨١م.

-محمد بديع شريف ، الصراع بين الموالي والعرب، دار الكتاب العربي، مصر ١٩٥٤.

-محمد سليم الجندي ، عبد الله بن المقفع، دراسة لأدبه وطرف من سيرته ونخبة من كلامه ، مطبعة الترقي ، دمشق و ١٣٥٥هـ.

-محمد صقر خفاجة ، تاريخ الأدب اليوناني ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٦م.

-محمد عبد الغني الشيخ، النثر الفني في العصر العباسي الأول اتجاهاته وتطوره، الدار العربية للكتاب ١٩٨٨م.

-محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٠م.

-محمد عبد المنعم خفاجي، تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول، ط٢، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٩٨١م.

- محمد عبد المنعم خفاجي ،الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ط١، نشر رابطة الأدب الحديث، دار العهد الجديد للطباعة ، القاهرة ، ١٩٥٤م.

- محمد غفراني الخراساني ، عبد الله بن المقفع، الدار القومية للطباعة والنشر.

- محمد غنيمي هلال ،الأدب المقارن ، ط٥، دار العودة ، ودار الثقافة ،بيروت.

- محمد فهمي عبد اللطيف، ابن المقفع تأليف الأديب عبد اللطيف حمزة،مجلة الرسالة للآداب والعلوم والفنون ، أحمد حسن الزيات ، العدد ٢٢٦، المجلد ٢، السنة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٣٧م.

- محمد قابيل، ابن المقفع ، مطبعة القنال ، بورسعيد.

-محمد كرد علي، أمراء البيان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٧م.

- محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ط٣،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٦م.

- محمد كرد علي، كنوز الأجداد ، ط٢، دار الفكرللطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ١٩٨٤م.

- محمد مهدي البصير ، في الأدب العباسي ، ط٣، مطبعة النعمان ،النجف الأشرف ، ١٩٧٠م.

- محمد نبيه حجاب ، بلاغة الكتّاب في العصر العباسي ، دراسة تحليلية نقدية لتطور

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأساليب، ط٢، مكتبة الطالب الجامعي، ١٩٨٦م.

– المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج٢،ط٢، منشورات دار الهجرة ، إيران ،قمّ ١٩٨٤م.

– مصطفى الشكعة ، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية ، كتاب النثر ، ط٣، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٩٣م.

– ابن المقفع ، كليلة ودمنة وتاريخها ، منشورات المؤسسة المتحدة للكتاب، بيروت.

– ابن المقفع ، كليلة ودمنة وتاريخها ، تعليق محمد حسن نائل المرصفي، ط٢، منشورات المؤسسة المتحدة للكتاب ، بيروت ١٩٨٠م.

–ابن المقفع ، كليلة ودمنة ، تعليق الشيخ إلياس خليل زخريّا ، ط٤، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٣م.

–نبيل عبد العزيز عيد ، كليلة ودمنة بين العربية والفارسية (دراسة مقارنة)، الجامعة المستنصرية ، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية ، غير منشور.

–النووي الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف الدمشقي، رياض الصالحين ، ط١٤، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٩٨٦م.

–وهيب طنوس، في النثر العباسي، ط٢، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ١٩٨١م.

–اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ، تاريخ اليعقوبي ، المجلد الثاني ، دار صادر ، بيروت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

The Epistles Of Abdullah Ibn Al- Muqaffa'a

"Critical Study "

Maha Ahmad Moh'd Saleh

Supervised By : Dr. Esmat Ghosheh

٤٥٨١٧٥

This thesis studies the epistles of the writer and the man of letters Abdullah Ibn Al- Muqaffa'a who lived in the late Omayyad Era and witnessed the advent of the Abbassid era which was characterized by development and civilizational richness .

The research is comprised of four chapters , an introduction and a historical preface.

In the historical preface, I shed light on the effects of foreign (non-Arabic) cultures on the literature of the Abbassid era, particularly the Persian culture which greatly influenced the themes of Arabic literature such as those pertaining to the Sultan and the regulations leading to promote society . The preface also examined Ibn Al- Muqaffa'a's contribution which helped in the enrichment of Arabic literature through his translations of some achievements of other cultures into Arabic , and through his own books.

The first chapter tackles the social dimension of the Epistles , focussing on the most outstanding themes covered in these epistles , such as the conditions of society , friendship and its significance to individuals , encouragement of learning and work , the need for virtuous conduct, preference of wisdom to caprice , money , human work for the Day of Judgement , the judiciary , and food related etiquette.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

The second chapter unfolds the moral dimension of the epistles , examining the ethics advocated by Ibn Al- Muqaffa'a to establish Plato's Utopia . Thus, he wrote about the rules of decorum , virtues morals, honesty , generosity , fury, modesty, jealousy , patience gratitude for assistance ,and preference of practice to theory.

The third chapter analyzes the political and racial themes of the epistles and the effect of his Persian origin on such themes . In this context , he wrote about the Sultan , with special reference to his qualities , how to deal with his subjects (people) , and the rules which he should follow in selecting his retinue. Included also in this chapter is Ibn Al-Muqaffa'a's crticisim of the Abbassid rule

The fourth chapter is earmarked for the study of the technical (artistic) aspects of the Epistles , which were typical of the epistles written during the Primary Abbassid era. This chapter elucidates , too, the impact of foreign cultures on the Writer's litrature , language, style and rhetorics .

Towards the end of the thesis , the most significant views relating to the personality of Ibn Al- Muqaffa'a and his literature are cited along with some of the books which were associated with his name, even through the Arabic versions of which were lost.

Finally , I attempt to conclude how Ibn Al- Muqaff'a was a genuine writer of the epistolary art in the Primary Abbassid era. Moreover he developed a distinguished style and thus was emulated by many of his successors.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit